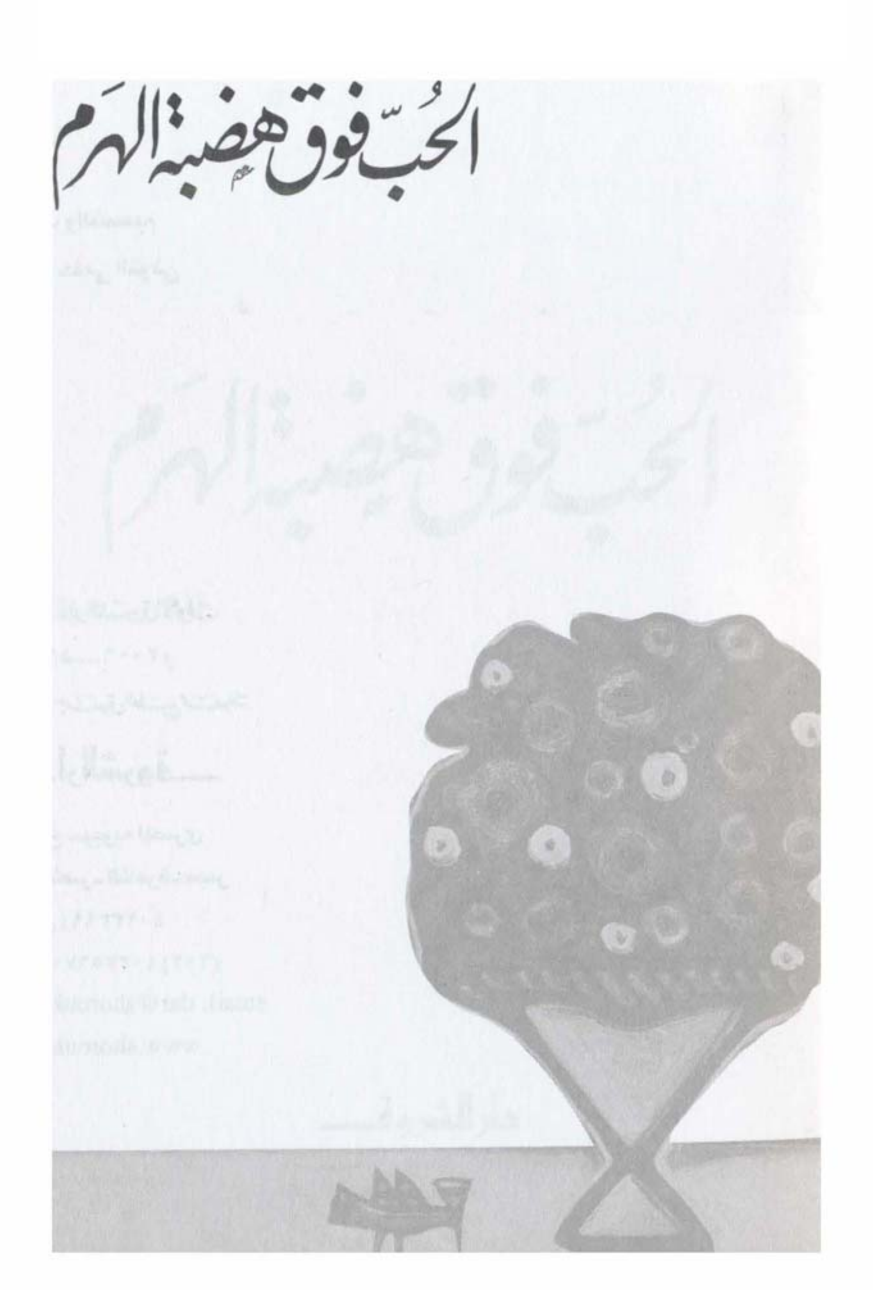
نجيب محفوظ

الحب فوق هضبة الهرم

نجيب محفوظ

الحُبّ فوق هضبة الهَرم

دار الشروق


الحبّ فوق هضبة الهرم

الغلاف والتصميم

للفنان حلمى التونى

طبعة دار الشروق الأولى

١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

٨ شارع سيبويه المصرى

مدينة نصر - القاهرة - مصر

تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩

فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)

email: dar@shorouk.com

www.shorouk.com

المحتويـــات

نــور القــمــر

تجربة جنونية، انتشر نبضها فى زمان الوداع، وانغرست جذورها فى طمى النيل، تحت ظلال النخيل واللبلاب والجازورينا، مهومة فى الحى الرنان ذى الإيحاءات اللانهائية، روض الفرج. اهتدانى إليه مصير حتمى، فهو مصيف من يبهظه الرحيل إلى الإسكندرية أو رأس البر. وهناك وجدت مقلدا لكشكش بيه، وآخر لبربرى مصر الوحيد، ثم قادتنى قدماى - من باب العلم بالشىء - إلى كازينو «الواق الواق» فقضيت سهرة سماع لصوت «نور القمر».

لعله أصغر المسارح، يقع فى نهاية الخط، مرسوم على هيئة سفينة، تطوق جانبيه أشجار الياسمين والحناء واللبلاب، ومقاصير أهل الخلوة، وتشغل وسطه صفوف الكراسى الخيزران. يقدم أول ما يقدم تواشيح عريقة، وتختها المكون من القانون والعود والكمان والرق وأربعة من السنيدة العجائز.

رفعت إلى المطربة عينين فاترتين، شىء أرعشنى كجرس تنبيه، انحصر وعيى كله فى النظر، لم أسمع من الغناء إلا أصداء متلاشية، انسحب منى الماضى وذاب، واتجهت بدفعة من المجهول نحو قبلة جديدة، منذ تلك اللحظة أمسى «الواق الواق» مقصدى كل ليلة طوال فصل الصيف، لم أهجره ولكنه هجرنى بانتهاء المصيف وإغلاق المسارح والكازينوهات، وتحول روض الفرج إلى مرفأ لسفن الغلال.

٢

من هى «نور القمر»؟

امرأة ناضجة. تتألق بأبهة الأنوثة الكاملة. لعلها فى الثلاثين. تختلف الآراء فى تقدير سنها بحسب الأهواء. لا تجد عند أحد معلومة شافية عنها. قوى مجهولة تعزلها عن الناس فى موسم العمل ثم سرعان ما تختفى بقية العام، جميع السكارى يتكاشفون بعذوبة جمالها ولكننى ـ فيما بدا لى ـ خُصِصت بالهيام بها لحد الجنون. ماذا؟ إنهم منهكون فى الأكل والشرب والضحك والطرب، وإعجابهم بها عابر، على حين سلبت منى ـ بشراهة ـ الروح والجسد. ويقول من يدعون الخبرة:

ـ صوتها رقيق محبوب..

فأقول:

ـ ولكنها لا تغنى إلا الأغانى القديمة، وفى اعتقادى أن أى ملحن معاصر يسره أن يلحن لها..

ـ ولِم تدفن نفسها فى روض الفرج؟

ـ من يدرى؟

من يدرى حقّا؟ إنها سر مغلق. علمى بها ـ كالآخرين ـ محدود جدّا، أما هيامى فلا حدود له، على أى حال لم أعرف فى حياتى الانطواء أو السلبية.

٣

ولكن من أنا؟

من ذوى المعاشات، فى الخمسين من العمر، أعزب، ليس بينى وبين المرآة التى تعكس صورتى أى ضيق أو اعتراض. أحب الطعام الجيد، أكول، أحسن طهى ألوان من الطعام كأمهر الطهاة، ضحوك، صافى السريرة. غير أن عزوبتى ركزت اهتمامى فى ذاتى فعلقت بى أنانية طفولية. كنت ضابطا بالجيش، أدركنى المعاش وأنا صاغ فى الخامسة والأربعين من عمرى، خدمت فى السودان والصعيد والسلوم. وكنت طوال عمرى جامح الأهواء، مغرما بالنساء، وسيئ السمعة، فى صباى وشبابى خيبت أمل والدى، رغم أنى كنت وحيدهما، بذلا جهدا طموحا ليجعلا منى طبيبا أو وكيل نيابة ولكننى لم أظفر بالابتدائية إلا بطلوع الروح وقد جاوزت الخامسة عشرة. لذت بالمدرسة الحربية كآخر معقل للأمل كى تجعل منى شيئا ما. وكنت بدينا مفرطا فى البدانة.. رمقنى ناظر المدرسة الإنجليزى بدهشة، كأنه تساءل عما جاء بى، ولكنى أظهرت من البراعة فى السباحة والعدو ما سره وفتح قلبه لى فقبلنى أو أصر على قبولى وهو الأصح. كان الفشل هو ما يدفعنا إلى المدرسة الحربية، لا الوطنية ولا الروح العسكرية. غير أن الروح تتولد بطريقة ما. أما الوطنية فقد تكفلت بها ثورة ١٩١٩. وقد اشتركت فى مظاهرة المدرسة الحربية المشهورة وأصابنى جندى إنجليزى بالسونكى فى وركى، ولولا العفو العام لفصلت من المدرسة وخاب آخر رجاء فى وظيفة محترمة نوعا ما. وتخرجت ملازما ثانيا فى نهاية أربعة أعوام دراسية،

منها عام عقوبة لاشتراكى فى المظاهرة. وفى الترام سمعت أحدهم يهمس:

- كل هذا البدن وملازم ثان فقط؟!

فهمس الآخر:

- إنه فى وزن لواء!

وكان اللواءات فى تلك الأيام ذوى كروش وبدانة، تحسبهم قصابين لا عسكريين. ومات والداى، وامتدت خدمتى خمسة وعشرين عاما، ثم أدركنى المعاش فوجدت نفسى ضخما وحيدا ضائعا يعيش فى زنزانة انفرادية فى صورة شقة. رسمت خطة لإنقاص وزنى فصرت مقبولا، وفترت بهجة الطعام والنساء. وكان الشعر يستهوينى فقررت أن أتخذ من حافظ إبراهيم مثالا على نحو ما، وشغلت وقت وحدتى بالقراءة فى شتى المعارف الدنيوية والدينية، وبت من رواد قهوة المالية - قهوة أصحاب المعاشات - ألعب النرد والدومينو وأتكلم فى السياسة، وأعلق على الأحداث، أفلسفها مستعينا بثقافتى المتنامية. ثم أنضم لكثيرين لأداء صلاة الجمعة. ورحم كثيرون وحدتى فاقترحوا على أن أتزوج.

- الخمسون مقبولة، صحتك جيدة، لم تشب شعرة واحدة فى رأسك بعد، والجنس يعيش فى مثل هذه الظروف حتى آخر العمر..

فكرت فى ذلك باهتمام فاق تصورى، ولكن ثبط همتى أن ظروفى لم ترشحنى إلا لامرأة يائسة وقد أبيت ذلك. الحق أنى اعتدلت فى شهواتى. ربما كرد فعل لما سبق، وقنعت أكثر الوقت بمراقبة الهوانم من موقعى فى القهوة، ونادرا ما وجدت الدافع القوى لمطاردة إحداهن. أصبح لهن فى قلبى أكثر من منافس كالكتاب والمسرح والسينما والأصحاب المدنيين، حتى اقتادنى مصيرى المحتوم إلى الواق الواق.

٤

عرفت الحب لأول مرة فى حياتى. إنه كالموت تسمع عنه كل حين خبرا ولكنك لا تعرفه إلا إذا حضر. وهو قوة طاغية، يلتهم فريسته، يسلبه أى قوة دفاع، يطمس عقله وإدراكه، يصبّ الجنون فى جوفه حتى يطفح به، إنه العذاب والسرور واللانهائى. تلاشى شخصى القديم تماما وحل محله آخر بلا تراث ولا مبادئ، ينقض على مصيره بعينين معصوبتين.

وجعلت أتساءل: «كيف الوصول إلى نور القمر؟».

إنها تغنى وصلتين ثم تختفى حتى مساء اليوم التالى. لا تُرى إلا فوق المسرح. لم تذهب إلى مقصورة قط. الراقصة وجوقتها يفعلن ذلك، ويسعين إليه، أما هى فما إن تفرغ من الغناء حتى تتلاشى فى الكون. وإنى رجل فى الخمسين، محدود الدخل، لا جاه ولا مركز. لا قدرة لى على حيازتها، ولا أدرى إن كانت تقبل علاقة عابرة. أما ابتغاء الرضا والحب فما أبعده عن تصور من كان فى مثل سنى وحالى، وأما الزواج فماذا يعنى لها إن لم يعن الأبهة والرفاهية؟!

أشار علىَّ العقل بأن أقتلع فكرتها من نفسى المعذبة، ولكن ليس للعقل صوت يسمع فى ضجة أهازيج الهوى، وصخب أمواجه العاتية، وأزيز أعاصيره الهوج.

وأعجب من ذلك كله أن يتحول خبير الأطعمة المتقنة، زير النساء، إلى مجنون ملهم، يهيم فى دنيا الحب المترعة بالأسرار، يخاطب بأنينه المجهول، ويجد فى البحث عن لا شىء فى كل شىء، فى ضياء الشمس، بهاء القمر، وهج النجوم، ثراء السحب، أريج الأزهار، سلاسة الماء، فقد غطت «نور القمر» على حياتى وحياة الكون من حولى..

٥

وفى بوتقة الهجران يبعث القلب ويتطهر ولو كان فى الأصل غليظا مشبعا بالإثم. وقد خبرت الضحك والسخرية والشهوات فآن لى أن أعرف الشجى، وأترنم بألحان الأسى.

مضيت أنسحب برفق من جو أصحاب المعاش، من الثرثرة والمقامرة والشراب والخوف من الموت. ملأت «نور القمر» وجدانى واستأثرت بوعيى. أبيت الاستسلام للقهر والهزيمة. جعلت أشجع نفسى وأضرب لها الأمثال من ماضىّ: استهتارى الفائق، ومغامراتى الجريئة واقتحاماتى المذهلة. عبدت دائما ما أهوى وأريد واستهنت دائما بالتقاليد والسمعة والقيل والقال. وموقفى يوم المظاهرة المشهورة هل ينسى؟ لقد أضربنا وذهبنا إلى مدرسة الشرطة، هتفنا بالإضراب، ولما وجدنا ترددا أطلقت رصاصة فى الهواء! وتحديت بدانتى فكنت أعدو بسرعة الريح كأنى برميل بخارى. محال أن أتقاعس يا نور القمر..

٦

وصممت ذات ليلة. سمعت الوصلة الأولى وكانت:

كادنى الهوى وصبحت عليل

ثم غادرت مجلسى ماضيا إلى الباب الخلفى للكازينو واعترضنى البواب فقلت بكبرياء:

ـ أعرف طريقى!

سرعان ما جاءنى الجرسون حمودة مبتسما متسائلا :

ـ أى خدمة يا بيه؟

ـ حمودة، أرغب فى مقابلة نور القمر لأهديها إعجابى.

ـ الجميع يعلنون الإعجاب بالتصفيق.

ـ ولكنى أريد أن أقدمه بنفسى.

ـ ممنـــوع.

فتساءلت بحدة :

ـ من صاحب هذا الأمر السخيف؟

ـ أصحاب الشأن فى الكازينو، ما أنا إلا عبد مأمور..

ـ ولكن لماذا؟

ـ لا أدرى يا سيدى، جميع الزبائن يعرفون ذلك..

فقلت بعجرفة :

ـ ولكننى سأدخل..

فقال بتوسل يليق بزبون دائم مثلى :

ـ أرجوك يا بيه..

ـ على مسئوليتى!

ـ هناك سنجة الترام.

أفقت من غضبى، سنجة الترام هو فتوة المحل وحاميه، لا قبل لى به فضلا عن أننى فى الخمسين من العمر. تراجعت متسائلا فى استنكار :

ـ لهذا الحـــد؟

ـ أنت بيه محترم ولا يليق بك الشغب!

تنهدت لأروح عن غيظى، وقلت له :

ـ إذن فعليك أن تبلغها إعجابى . .

فقال بأسف :

ـ ولا هـــذا !

ـ أمر غريب حقّا !

ـ ما باليد حيلة . .

ـ لماذا لا تفعل كما تفعل الراقصة وجوقتها؟

فقال وهو يحنى رأسه :

ـ الراقصة وجوقتها تحت أمرك !

٧

إن هى إلا جولة خاسرة ولكنها ليست كل شىء . الطريق طويل والزمن طويل . ها هو ذا صوتك الحنون يتسرب إلى أعماقى معطرا بالفتنة وليس بينى وبينك إلا خطوات . لو كان لى أنف كلب لشممت أنفاسك ، لو كان لك قلب لركزت بصرك على عابدك . ولو أعيتنى السبل المادية فى الوصول إليك فثمة قوة الحب ستصنع معجزة فائقة للعقل وفى الوصول إليك هازئة بأعين الحراس .

فى تلك الليلة تعمدت التأخير حتى استقللت الترام الأخير ، واخترت مجلسى إلى جانب الجرسون حمودة ، دفعت عنه ثمن التذكرة فاستعد الرجل للحديث المتوقع . ولما غاص الترام فى الظلام شاقا طريقه بين الحقول تساءلت :

ـ ما معنى هذا يا حمودة؟

ـ تسأل عن نور القمر؟ . . هذا هو الواقع . .

ـ أهى سيدة مصونة حقّا؟

ـ هى كذلك فيما نرى . .

ـ وما السر؟

ـ لا علم لى به .

ـ يوجد سر ولا شك .

ـ علمى علمك .

ـ إنك تعرف السر ولكنك تمكر بى .

ـ صدقنى ، ليس عندى أكثر مما قلت .

ـ هل تؤمن بالخرافات؟

ـ إنها حقيقة لا خرافة .

ـ هل تصدقها؟

ـ فلنسلم بأنها شاذة ، ما الفائدة؟

ـ عندك تفسير لها؟

ـ لا أشغل نفسى بالتفكير فى ذلك .

ـ وراءك أشياء ولا شك؟

ـ أبدا ، صدقنى . .

ـ هل تذهب نور القمر عقب العمل وحدها؟

ـ كما ترى فإنى أذهب قبل ذلك حتى لا يفوتنى الترام الأخير .

ـ بأى وسيلة تذهب هى؟

ـ ربما بالتاكسى ، حنطور المدير موسى القبلى ، فورد صاحب الكازينو حفنى داود ، من يدرى؟

ـ الآن فهمت . .

ـ ماذا فهمت يا سيدى؟

ـ إنها عشيقة أحد الرجلين!

ـ الله وحده يعلم.

ـ ألا يعرف أحد شيئا عن سيرتها الخاصة؟!

ـ نحن نتجنب الفضول حفظا على رزقنا..

ـ أين تسكن المرأة؟

ـ لا أدرى..

فتنهدت وقلت بنبرة اعتراف:

ـ حمودة، أنت تدرك ولا شك ما وراء أسئلتى الملحة؟

ـ أجل يا بيه.

ـ والعمل؟

ـ ما باليد حيلة.. النساء كثيرات.. وكلهن فى النهاية طعام واحد..

أهديت إليه سيجارة، وغمزته ببريزة، ولكنه قال:

ـ إنى لا أخدعك، وليس عندى مقابل!

ـ حمودة!

ـ صدقنى، لقد وقع فى هواها عمدة صعيدى واسع الثراء، ولكن ماذا أفاد؟

فهتفت بغيظ:

ـ إن ملكة مصر أيسر منالا من ذلك..

ـ هذا هو الواقع..

وتفكرت مليا ثم سألته:

ـ سنجة الترام رجل قوى، هل يمكن الاستعانة به؟

ـ لا أدرى، جرب إن شئت..

حقًا إن مجرد الاتصال به مهانة ما بعدها مهانة، ولكن ما الحيلة؟ سألته:

- هل تساعدنى فى ذلك؟

- إنه صاحب غرزة تبدأ عقب التشطيب . .

ازددت امتعاضا وأنا أسأل:

- أيـن؟

- قارب شراعى . .

- ممكن تمهد لى السبيل باعتبارى من أصحاب المزاج؟

- هذا ممكـن . .

٨

لم أكن يوما من أصحاب المزاج. إنى من أصحاب الأمزجة الفوارة التى لا تتلاءم مع المخدرات. وقد دخنت مرة البانجو فى السودان وسرعان ما غشينى النوم فتوكد نفورى من المخدرات. وفى مثل الحال التى أنا مقبل عليها بوسعى أن أمثل وأن أتجنب التدخين الحقيقى. ما العمل وجنونى يستفحل؟ لقد ضاعت منى نفسى. جعلت أنظر إليها - كغريب - بعين الرثاء والأسى. وهان علىَّ أن أسعى لمصادقة سنجة الترام. وهو ربعة، متين البنيان، ضخم الرأس والوجه، فى جبينه ثلاث ندبات وفى أنفه اعوجاج، واسع الأشداق كأنه من أكلة الأحجار. وسرعان ما حسبت تكاليف السهرة فوجدتها - مع الإكرام - تستهلك خمسين قرشا، وهو قدر لا يستهان به مع الاستمرار الذى يقتضيه توثيق العلاقة.

تسللت إلى القارب فصافحنى على ضوء شعلة عربة ترمس وتمتم:

ـ أهلا . .

فشددت على اليد الغليظة وأنا أقول:

ـ مساء الخير يا معلم سنجة . .

وانغرست على جانب وسط تكتل من الأوباش. وانساب القارب فوق الماء الرزين واهبا ذاته المتأرجحة لظلام دامس تشعشعه أضواء النجوم كالهمسات، لعلهم من تجار الغلال والبصل، ينكتون ويقهقهون بفظاظة. ودارت علينا الجوزة لدى امتلاء الشراع بالهواء، ولاطفتنا نسائم معطرة برائحة النيل. ورغم حذرى ثقل رأسى، وناء قلبى بالحزن. ومن حسن الحظ أن أحدا لم يهتم بأحد فلم أضطر إلى الخروج من صمتى وأفكارى. وعند الوراق غادرنا البعض، وانفض السامر عند الفجر.

٩

وثقت المساهرة بينى وبين سنجة الترام. مساء الخير يا معلم سنجة، مساء الخير يا أنور بيه. دعوته للغداء عند الدهان فدعانى للغداء فى المذبح. وجدتنى أندمج فى أوساط البلطجية وتجار المخدرات. أرهقنى الخزى والحزن، عجبت لتدهورى، وكيف ساقنى إليه أنقى وأصدق عاطفة شدا بها قلبى. أجل طالما تحديت التقاليد والحرص على السمعة الطيبة، ولكن عربدة العشاق شىء ومخالطة الأوباش شىء آخر. ولم أعد أختلف إلى المقهى إلا فى النادر. وخمن

الصحاب أن فى الأمر امرأة ولكنهم لم يتصوروا أى امرأة تكون، ولا أى تدهور دفعت إليه بيد حبها الناعمة، وطبعا كتمت سرى حتى لا أكون حديث الجادّ والساخر. كذلك ندر الوقت الموهوب للقراءة، غير أن بعض الشعر الذى سبقت لى معاشرته امتلأ بحياة جديدة وتبدى بحسن جديد وتفجر عن قوى جديدة فأدركت أن جمال الشعر لا يكمن فى ألفاظه وموسيقاه وصوره ولكنه يكمن قبل كل شىء فى القلب البشرى.

وفى تلك الفترة من حياتى زارتنى عمتى نظيمة، أرملة فى الستين، بكريها مهندس مقاول قد الدنيا، وشقيقه موظف دبلوماسى فى سفارتنا بالحبشة. قالت:

ـ انقطعت عنى مدة ولكنى لا أنساك.

فلثمت خدها النحيل ممتنا، وجعلت تتفحصنى باهتمام أثار قلقى، ثم تساءلت:

ـ حتى متى ترضى بهذه الحياة المقفرة؟

أدركت أنها تعود إلى موضوعها المفضل وهو «الزواج» فقلت:

ـ اعتدت يا عمتى العزوبة..

فقالت بحرارة:

ـ عادة سيئة، ضد مشيئة الله.

ـ كل شىء بمشيئة الله يا عمتى..

احتست الشاى وهى تفكر ثم قالت بنبرات جديدة تماما:

ـ أنور.. حدثنى حمدى حديثا لا يصدق..

حمدى مأمور شرطة وزوج ابنتها الوحيدة، وقد اضطرب قلبى وتساءلت:

ـ مـــاذا؟

ـ قال إنك تصاحب قوما ليسوا من أصلك ولا مستواك!

فزعت. هل تتفشى الأسرار بهذه القوة؟ قلت مدافعا:

ـ كلنا أولاد حواء وآدم..

ـ ولكنهما أنجبا قابيل كما أنجبا هابيل!

وقرأت في وجهي ولا شك تحرجي وضيقي فقالت برقة:

ـ أردت أن أحذرك فسامحني..

١٠

تألمت ولكني لم أبال. عزمت على مزيد من الخطوات المسددة. ها هو ذا سنجة الترام يتردد على شقتي في المنيرة رافعا الكلفة يتناول الطعام أحيانا، وأحيانا يضطجع نائما، ومرات أودع عندي حشيشه بعيدا عن أي مظنة. أصبح البيت بيته ابن القديمة، وحمت حوله متحينا الفرص. آنس إليَّ فروى لي قصة حياته منذ نشأته في سوق الزلط، معاركه، سجنه، بلاءه في ثورة ١٩١٩، حتى اختير فتوة لكازينو الواق الواق.

ـ موسى القبلي هو الذي اتفق معي..

ـ المدير؟

ـ نعم.

فقلت بمكر:

ـ يقال إنه قريب لنور القمر.

ـ كلام فارغ..

ـ بذلك يفسرون عزلتها الغريبة . .

ـ سكارى وأغبياء . .

ـ أصل عزلتها تثير القيل والقال!

ـ إنها حرة تفعل ما تشاء . .

ـ تعنى أنها هى التى ترفض المؤانسة؟

ـ علمى علمك، ما يهمنى أننى مكلف بإبعاد من تحدثه نفسه، بالاقتراب منها . .

ـ بلا علم بسبب ذلك؟

ـ ليكن ما يكون، هبها امرأة مصونة، أو رجلا متنكرا فى صورة امرأة، أو عشيقة للمدير أو صاحب الكازينو، ماذا يهم؟ من حسن الحظ أننى لا أرغب فيها . .

وضحكنا طويلا، ثم سألته:

ـ ماذا كنت تفعل؟

ـ كنت أقتحم الحارس والمحروس!

فقلت بدهاء:

ـ ظننت أن الأسرار لا تغيب عن رجل مثلك؟

ـ الأسرار التى تهمنى فقط.

ـ ألست صديق المدير وصاحب الكازينو؟

ـ لك أن تعتبرنى صديق الجميع، ولك أن تعتبرنى بلا أصدقاء!

وكنت عرفت من طبعه أنه لا يطيق سماع ثناء على أحد فقلت:

ـ يبدو أن المدير رجل محترم!

فقال ساخرا:

ـ ما هو إلا قواد.

ـ قـواد؟!

ـ صاحب بيت دعارة!

انبهر رأسى بضوء فوسفورى مباغت. هل يستغل نور القمر بطريقة محنكة؟ ياالخيبة الأمل إذا لم تكن المرأة إلا مومسا؟! ولكن حتى هذا الفرض لم يطفئ لمعة الوجد فى قلبى، بل لعله أرثها بفتح باب يسير للوصول. وصبرت حتى دار رأس سنجة ورقص الانسجام فى مخايله فسألته:

ـ ما رأيك فى سهرة فى بيت موسى القبلى؟

فقال بازدراء:

ـ أعوذ بالله!

ـ من باب العلم بالشىء!

ـ ولكنك كهل محترم وأب!

فقلت ضاحكا:

ـ لست إلا أعزب!

ـ أعوذ بالله!

ثم مستدركا:

ـ وكيف تعيش بنصف دين؟

فقلت لنفسى بأسى: «حقًا ينقصنى النصف الآخر»..

١١

قلت للجرسون حمودة وأنا أغمزه ببريزة:

ـ دلنى على بيت موسى القبلى..

ابتسم الرجل ابتسامة عريضة، غمز بعينيه، قال:

- بريزة أخرى . .

فأثنيت فى سرى على صدق فراستى.

١٢

البيت فى أول شارع مهران السندى المتفرع من شارع دوبريه، شقة أنيقة، صامتة، الأبواب مغلقة، كأنها خالية. قدمنى حمودة إلى موسى القبلى فتلقانى بوجه ودود غير الوجه الذى يدير به الكازينو. وقلت لنفسى: من بلطجى إلى قواد يا قلبى لا تحزن. أما هو فقال بلا حياء:

- جنيهان من فضلك . .

دفعتهما بلا تردد، فقال:

- آخر حجرة فى الدهليز، هل تريد شرابا؟ زجاجة الأوتار بجنيه واحد . .

- اللص! . . إنها فى السوق بثلاثين قرشا. قلت معتذرا:

- ربما فى المرة القادمة.

فقال بشىء من الفتور:

- الهدوء هنا مهم جدّا!

١٣

كم لعب الأمل بقلبى أن أجدها عقب فتح الباب ولكن المعجزة لا تقع بمثل هذه السهولة. ها هى ذى امرأة أخرى لا رغبة لى فيها. تنضم إلى سلسلة المغامرات العقيمة المتلاشية فى العدم واللامبالاة. وقررت أن أحوز ثقة موسى القبلى ورضاه. كما فعلت مع حمودة وسنجة الترام. وسطاء سوء، ولكن بيد أحدهم مفتاح الكنز. مثل هذا العناء تكابده الشجرة حتى يتمخض ليلها الطويل عن زهرة ضاحكة.

واقترحت عليه - موسى القبلى - فى المرات التالية أن أشاربه فى حجرته الخاصة قبل الذهاب إلى حجرتى المقسومة. انبسط واعتبر ذلك تحية فريدة. وذات ليلة قال لى:

- علمت أنك من زبائن الواق الواق؟

- ألم تقع عيناك علىَّ طالما رأيتك وأعجبت بإدارتك؟

- الأمر مختلف غير أن وجهك بدا لى غير غريب وأنت تطالعنى هنا لأول مرة.

شجعته على الشراب، وقلت:

- إنى أشرب فى اعتدال لأسباب صحية.

- لكنها مفيدة للصحة.

فقلت ضاحكا:

- الأمر مختلف.

- موظف؟

- على المعاش.

ـ لكنك مازلت فى طور الرجولة؟

ـ الضابط يحال على المعاش فى أى سن . .

ـ كنت ضابط جيش؟

ـ كنت !

فضحك عاليا وقال :

ـ حلمت فى صغرى بأن أكون ضابط شرطة .

ـ مصيرنا فى الحياة لا تتحكم فيه رغباتنا .

وهو يضحك مرة أخرى :

ـ على أى حال فعملى ذو علاقة وثيقة بالشرطة !

ـ فال الله ولا فالك .

ـ متزوج؟

ـ كــلا .

ـ يندر أن يجىء أحد فى سنك .

فقلت ساخرا :

ـ الحياة دائمة التقدم .

ـ وكيف عرفت بيتى؟

ـ صاحب الحاجة مستكشف . .

ـ حمودة؟

ـ نعـــــم .

ـ رجل غاية فى الفطنة .

فرميت سهمى الأخير قائلا :

ـ وقف مصادفة على سر شغفى بنور القمر . .

رفع حاجبيه الخفيفتين وقال :

ـ أنت من عشاقها؟

فحنيت رأسى لبلوغى آخر الأبواب، وانتظرت الفرج غير أنه قال:

ـ لولا عزلتها ما أثارت شغف أحد..

ـ ولكن الشغف سبق اكتشاف عزلتها..

ـ لا تهتم بالممتنع، عندى من هن خير منها!

يا للداهية!.. هل خاب المسعى أيضًا؟! وانطفأت الجمرات تحت كثافة الرماد؟

١٤

وسألنى سنجة الترام:

ـ كيف تطيق هذه الوحدة؟

كان قد فرغ من قدح الشاى الرابع فاسترخت جفونه من السطول، أجبته:

ـ العادة أقوى من الوحدة.

ـ وهل يليق بمثلك التردد على بيت دعارة؟

فلم أحر جوابا، أما هو فقال:

ـ اعتزمت على أن أكمل لك نصف دينك.

فضحكت وقلت:

ـ إنى الأعزب الأبدى يا معلم سنجة..

فقال بصراحة مخيفة:

ـ عندى بنت مطلقة.

لطمنى قوله كنذير حريق، أما هو فواصل:

ـ بنت ممتازة، هدية، أوقعها سوء الحظ فى رجل لا قيمة له.

ما توقعت أن أتعرض لغضبه قط. لعنت فى سرى الزمان والمكان. قلت:

ـ يلزمنى تفكير طويل، فالتخلى عن عادة مزمنة كالعزوبة ليس بالأمر الهين!

١٥

بات الخطر تحتى تماما مثل ظل منتصف النهار، انسحبْ من التجربة كلها قبل أن يدهمك القضاء، هكذا حاورنى عقلى. ولكنى كنت أحلم بالنجاة وأن أتدحرج نحو الهاوية، لم تعد قوة بقادرة على صدى. الحب المستبد الذى لا قاهر له. ذلك الغول الذى تغنيه فريسته عن المطاردة. الحلم الذى يزرى بكافة الأحلام ويحولها إلى نفاية. لم أنقطع عن موسى القبلى جريا وراء المزيد من الأمل والعرفان. ولما ثمل وانبعث من قلبه الخيال قال:

ـ بيتى محترم، ليس بين زبائنه زبون واحد من الرعاع.

ابتسمت موافقا فتساءل:

ـ ما رأيك فى فتياتنا؟

فقلت بإصرار:

ـ اعترفت لك بأننى مشغوف بالغناء.

ـ نور القمر؟

ـ هو الحق .

ـ أنت رجل غريب .

ـ ألم تحبها أنت؟

ـ كلا . . الحمد لله . .

ـ الحمد لله؟!

ـ لو بدرت منى حركة واحدة تنم عن ميل لفقدت عملى فى الحال .

ـ إذن فهو حفنى داود صاحب الكازينو!

ـ ماذا تعنى؟

ـ هو العاشق الغيور . .

ـ إنه عجوز ذو وجه قرد .

ـ ذلك أدعى للغيرة . .

ـ صدقنى إننى أتجاهل الأمر كله .

ـ ولكن عندك أفكار ولاشك . .

ـ ليكن عاشقها أو أباها . . من يدرى؟!

ـ هل . .

ـ هل؟!

ـ هل يعجز مثلك عن مساعدتى؟

ـ ولم أكدر صفوى ومستقبلى بسببك؟

ـ كصديق . .

ولكنه قاطعنى بجفاء :

ـ ما أنت إلا مغرض!

ـ لا تسئ بى الظن . .

ـ لا تحاول إقحامى فى هذا الأمر، لا تكن أنانيا، غامر بنفسك إذا شئت وإلا فاصرف النظر .

فقلت بحرارة :

ـ أقدم لك الأسف والاعتذار !

مضيت أشاربه دافنا همى فى الصمت، ومضى يذوب فى النشوة وينفض عن نفسه الكدر، ثم سألنى :

ـ هل أغضبتك؟

ـ الحق لا يغضب، ولكن كيف عرفت حفنى داود؟ !

ـ كان ناظر مدرسة أهلية وكنت كاتب حسابات عنده، وتحت ضغط مراقبة وزارة المعارف، ومحاسبتها اضطر إلى تصفية المشروع، وبعد حين قدم مشروع الواق الواق وضمنى إليه مديرا .

ـ ومتى عملت نور القمر عنده؟

ـ من أول ليلة، لعله لم يقم المشروع إلا من أجلها .

ـ وهو الذى فرض عليها العزلة؟

ـ على الأقل هو الذى أصدر الأوامر إلينا . .

ـ أتصور أنها تجىء معه وتذهب معه؟

ـ فى الفورد . .

ـ لا شك فى أنه أصبح ذا مال؟

ـ أعتقد ذلك . .

لم أهدر الوقت سدى كما توهمت، لقد أثريت بمعلومات مفيدة، وتحدد سبيلى كما لم يتحدد من قبل، ولن أقطع صلتى بموسى القبلى مداراة لنواياى الحقيقية . .

١٦

واقتحمنى سنجة الترام بزيارة توقعتها وخشيتها . وكنت قد تجنبت الانفراد به لعله يدرك موقفى من اقتراحه ولكنه كان مدمن بلطجة، معتادا للأخذ دون مقابل ورغم المجاملات ران الفتور على اللقاء، وبتخلى البشاشة عن قسماته أسفرت عن دمامتها وندرها . تساءل :

ـ ماذا جرى؟

إنه يتساءل عن سر تباعدى رغم وضوحه فيضطرنى إلى اختلاق المعاذير . قلت :

ـ ليس المزاج على ما يرام!

فقال بقحة :

ـ هذه عاقبة التردد على بيت قواد!

فقلت باستياء :

ـ ليس الأمر كذلك .

فسأل ببرود :

ـ متى تفى بوعدك؟!

ـ أى وعد يا معلم؟

ـ ألم نقرأ الفاتحة؟

حملقت فيه بذهول فقال :

ـ قرئت بالقلب، أم وجذتنا دون المقام؟!

ـ أستغفر الله، المسألة بالنسبة لى قفزة خطيرة .

فقال وهو ينهض :

- أم وجدتنا دون المقام؟!

غادرني مضطربا . كلا . لم أعرف الجبن فى حياتى ، ولا كنت ممن تعرقلهم الخشية على حسن السمعة . لكنى شعرت بأننى مقبل على عاصفة أو أن عاصفة مقبلة علىَّ، وحتى هذه اللحظة فالنجاة ممكنة . ممكن أن أسدل بيدى ستارا على روض الفرج وبيت موسى القبلى وقارب سنجة، ثم أرجع إلى روتين حياتى السابق بين معاشرة الكتب وسمر قهوة المالية . هذا ممكن نظريا ولكنه مستحيل فى الواقع . الواقع أننى فريسة جنون طاغ يلفظ قيم الحياة كافة، ويتركز فى هدف واحد . ذلك يدفع بى فى شبكة من العلاقات المذهلة، والأخطار المحدقة، ويفتح لى طريقا واحدا إلى مصير محتوم .

١٧

تبادلنا الأنخاب، أنا وموسى القبلى . قال وهو يتفحصنى :

- لعلك شفيت من حبك؟

فهززت رأسى نفيا، قال :

- إنه أمر مضحك وعجيب . .

- هل عندك نصيحة؟

- أأنت غنى؟

- كـــلا . .

- هذا يعنى ٩٠٪ من الأمل .

- لا مؤهلات من مال وشباب!

فقال بدهاء:

- ثمة وسيلة للشفاء، أن تكثر من زيارتنا!

- يخيل إليّ أنك لم تعرف الحب يا موسى؟

- هـذا حـق..

ثم مواصلا بقحة:

- الحق أننى لا أحب النساء، لذلك أتعامل معهن بمهارة فائقة.

تفكرت مليا فى معنى قوله، ثم سألته:

- أترى حالى ميئوسا منها؟

- حدثنى أولا عن حبك؟

- ماذا أقول؟.. إنها تفرض ذاتها على وجدانى وخيالى، أقوى وأعز من الحياة نفسها، لا غنى عنها كما أنه لا غنى للحياة عن أشعة الشمس.

فضحك على رغمه وقال:

- ما أعجب هذا الكلام يخرج من فم ضابط متقاعد خبير بالناس والحياة!

- نحن نعرف معنى الأسر أكثر من غيرنا.

فضحك مرة أخرى وقال وقد ثمل:

- منظرك ضخم لا يثير الرثاء أبدا!

فغضبت وقلت له موبخا:

- سكرت عليك اللعنة.

وقبل أن يفتح فاه دق جرس الباب الخارجى.

خف مسرعا مغادرا الحجرة. ترامت إلىّ ضجة مريبة، قمت إلى

باب الحجرة وأخرجت رأسى إلى الدهليز . رأيت مجموعة تتدفق من رجال الشرطة والمخبرين!

١٨

لم أشعر - من قبل - بمثل الذعر الذى اجتاحنى ، تجسد لى وجه سنجة الترام وراء الكبسة . انقض على مخبر فقبض على أعلى الجاكتة . صكنى بكوعه فى صدرى وهو يقذفنى بوابل من الشتائم . اجتيحت الحجرات ، سيق الرجال والنساء عرايا أو شبه عرايا . من حسن الحظ أننى لم أضبط متلبسا ولكن أى حسن حظ . حاولت أن أهمس بهويتى فى أذن الضابط ولكن المخبر أرجعنى بلكمة فى عنقى . انغمست فى العار حتى القمة . دفعنا إلى السيارة كخراف تشد إلى الذبح .

وصلنا إلى القسم وقد استل منى الإحساس والفكر . وكان تحقيق مهين . حجزت النساء ، وموسى القبلى ، وحررت المحاضر للرجال ثم أفرج عنهم . غصصت بذروة الألم وأنا أعلن هويتى . غادرت القسم شخصا جديدا عاريا تماما!

١٩

ذكرت الحادثة فى صفحة الحوادث الصباحية . لم تعلن أسماء - عدا موسى القبلى - وقيل عنى «وضابط جيش متقاعد فى الخمسين من

عمره!». خُيِّل إليَّ أنه إعلان كاف لفضحي في محيط الأسرة وفي قهوة المالية. انزويت في شقتي بالمنيرة غارقا في القرف. طالت لحيتي وأهملت نفسي تماما. على تلك الحال زارتني عمتي، وأكد لي قلبي بأن صهرها أخبرها بكل شيء. أقنعتني - ما وسعها ذلك - بأن زيارتها عادية. سأصبح حديث الأسرة المحترمة. أبناء عمتي وعمي وخالي أناس محترمون حقًا، وطالما تبادلنا الازدراء الصامت. لا يحبني في أسرتي أحد إلا عمتي. ها هي ذي تعود إلى حديثها المفضل (الزواج).

- لا تكن عنيدا.

حدجتها بارتياب فقالت:

- أهملت نفسك أكثر مما يتصور العقل.

فضحكت ضحكة متكلفة وتساءلت:

- ماذا عندك من أخبار؟

فضحكت ضحكة عصبية وتمتمت:

- تصــور!

ثم اغرورقت عيناها، وقالت:

- إنك صورة طبق الأصل من أبيك، لك منزلة في قلبي لا نظير لها، ليتك تعمل بنصيحتي!

٢٠

لم أفد من الدرس ما يتوقعه العقلاء. قلت إن الجنون حقًا هو الرجوع بعد ما كان. تخففت من البقية الباقية من الحياء فمزقت أثوابي. من الآن وإلى الأبد سأنتمي إلى عالم غير عالم الناس. سأفتح ذراعي

للجنون والسفه، وخمر النزق المعتقة. الحياة لا تتكرر والحب أغلى جوهرة فى تاجها. وفى سبيل الجنون المقدس تستحل كل حماقة. اقتلعت نفسى من مجرى الحياة المألوف المحفوف بالعقل والحكم. خف وزنى تماما وبت قادرا على الطيران والشيطنة، وليأخذ بزمامى نبض القلب الثمل بالبهجة والأسى. وهدانى الصوت الخفى إلى خاطرة مبتكرة وجريئة. فقلت لحمودة الجرسون:

- سيسجن موسى القبلى فهل يمضى الكازينو بلا مدير؟

فقال وهو يرمقنى بانتباه:

- هذا ما يشغل حفنى بيه فى هذا الوقت..

فقلت بهدوء:

- إنى أرحب بهذا العمل!

- أنت؟!

- نعم أنا، لم لا؟

فتردد متفكرا، فقلت:

- قدم ما يسعك من معاونة وأنت مطمئن!

فقال حمودة بارتياب:

- إنى أخمن الدافع وراء ذلك..

- إنى أعرف الأصول!

- لدى أى خطأ تتورط فيه فسأعتبر بالتبعية متورطا فيه ومسئولا عنه وأخسر رزقى!

- لا تخش شيئًا من هذه الناحية.

- ألا تحاول الاستحواذ على المرأة؟

- كلا..

ـ إذن لماذا ترغب فى هذا العمل؟

فقلت باسما فى ثقة وإخلاص:

ـ ربما لأعمل فى رحابها..

٢١

دعانى حمودة ذات ليلة لمقابلة حفنى داود صاحب كازينو الواق الواق. وجدته وراء مكتب صغير وأنيق فى حجرة تطل بنافذة على النيل، واستقبلنى بوجه محايد، وراح يتفحص هيكلى الضخم بلا انفعال. كان عجوزا فى السبعين أو فوقها، ضئيل الجسم، له سحنة قرد لانحدار جبهته وغور عينيه وبروز ذقنه. شعره الفضى مفروق وممشط بعناية، كذلك شاربه. أشار إلىّ فجلست على أحد مقعدين جلديين متقابلين أمام المكتب. تبادلنا النظر فى صمت مليا ثم سألنى:

ـ اسمك؟

ـ أنور عزمى.

ـ أنت ضابط جيش متقاعد حقًا؟

ـ أجل..

ـ وترغب فى العمل مديرا للكازينو؟

ـ نعــــم..

ـ ما الذى دفعك إلى ذلك؟

قلت ضابطا مشاعرى تماما:

ـ الفراغ فتاك. ثم إننى محدود المعاش!

ـ أتراه عملا مناسبا؟

ـ لم لا . . وهناك سبب آخر أن أحتفظ به لموسى القبلى لحين خروجه مَن السجن!

ـ صديقه؟

ـ نعم . .

ـ ولكن العمل يحتاج إلى خبرة خاصة؟

ـ أكثر مدة خدمتى فى الجيش انقضت فى الفروع الإدارية فأنا ذو خبرة بالإدارة والحسابات .

ـ العمل عندنا يتنافر مع الروح العسكرية؟

ـ لا تنقصنى اللباقة!

وساد الصمت مرة أخرى ثم قال :

ـ لا بأس من تجربتك ، ولكن اعلم أن أهم واجباتك أن تمنع المتطفلين عن نور القمر . .

ـ على الإقناع وعلى سنجة القوة عند اللزوم!

ـ عظيم . .

ونادى سنجة الترام وقد دهش لمرآى ، فقال له حفنى داود مشيرا إلىَّ :

ـ أنور عزمى المدير الجديد ، تعاون معه كما تعاونت مع موسى القبلى .

٢٢

لى مجلس خاص بمحاذاة المسرح . وإلى جانب النسبة المئوية التى تشكل مكافأتى على امتياز وهو أن أطلب من المشارب ما أشاء . عملى

الأساسى المحافظة على النظام، مراجعة دفتر التذاكر، التصدى لأى خلاف ينشب بين زبون وزبون، زبون وجرسون، زبون وامرأة من نساء جوقة الراقصة، إلى المهمة المقدمة على غيرها وهى صد المتطفلين عن نور القمر.

ولكن ماذا فعلت بنفسى؟

أظن يحسن بى أن أدفن هذا السؤال وأمثاله. عملى أشرف من غشيان غرزة سنجة، أو التردد على بيت موسى القبلى، أو موقفى فى القسم. فلتدر أسئلتى حول الحب نفسه فهو السر الجدير بالبحث والفهم حقّا. على أى حال فأنا لم أقع فى هوى امرأة عادية، جمالها الفائق معترف به من الجميع. وهى تتبدى فى هالة من الغموض المثير للفضول. تحدق بها العزلة والحراسة المغريتان بالجذب والضلال. ولكن هل اقتربت منها حقّا؟ الجواب بالإيجاب بالحساب المادى. فهأنذا أعمل لحساب حارسها الأخير. أقابله يوميا، أتلقى تعليماته. أقدم له الحساب إنى أتحرك على بعد خطوات من استراحتها الخاصة. سألتقى بها ذات مرة، فى حجرة حفنى داود أو فى الممشى وراء الكواليس. ولكن شيئا من ذلك لم يحدث بعد. لم يحدث لقاء ولا تعارف ولا تلامس. كأنى بذلت ما بذلت وضحيت بما ضحيت لأصل فى النهاية إلى القرد العجوز. وإلى هذا كله جعلت أرقب سنجة الترام بحذر، وأخاف جانبه، وقد أعطانى حقى وزيادة. بل سألنى مرة:

- ألم تحن من جديد إلى قاربنا الشراعى؟

فشكرته بقلب يفيض بمقته وقلت:

- ستجمعنا الأيام بإذن الله.

لا شك فى أنه كان وراء الكبسة ولكن لم يخطر بباله أن يجدنى - نتيجة لها - مديرا عليه! ولا خطر ببالى أن عملى الجديد سيبعدنى عن نور

القمر خطوة بدلا من أن يقربنى منها خطوات. كنت وأنا زبون أراها من مقدمة الصفوف وفى مواجهتها، أتملى طلعتها البهية طيلة الوصلتين، وأسبح فى تيار أنغامها المنسرب. أما الآن فلا أراها إلا من زاوية جانبية، ويشغلنى العمل كثيرا عن التركيز فى عذوبة الصوت، وأسير أحيانا فى الممشى الفاصل بين جانبى الصالة كأنما لأتفقد النظام، وفى الحقيقة لأملأ عينى منها، وبأمل أن ألفت عينيها إلى عبدها المعذب ولكنها كانت تهيم فى النغمة ولا ترى السامعين. وبات عزائى الوحيد أننى أنتمى إلى العالم الغامض المنور بنور القمر..

٢٣

ثمة علاقة عجيبة بين حفنى داود ونور القمر، ما هى؟ هو الذى يسيطر على ظهورها واختفائها، ويرسم الحدود التى لا يجوز تخطيها، وهى تجىء وتذهب، تغنى وتسكت، تنزوى وتصمت، بإملائه وتوجيهه، فأى قوة خفية يملكها هذا العجوز القرد؟! وإلى هذا كله فهى تتبدى هادئة سعيدة، لم لا؟ ما دام لا تبدر منها بادرة غضب أو تمرد، وهو ليس أباها فالقرد لا ينجب ملاكا، وليس زوجها وإلا لعرف ذلك على أوسع نطاق، ولا يتصور أن يكون عشيقها بقبحه وعجزه، فما سر هذه العلاقة العجيبة؟! وهبه ثريا فما قناعته بهذا المسرح الصيفى، لم لَمْ يجعل منها نجمة من نجوم شارع عماد الدين؟! ومهما يكن من أمر سيطرته عليها ألا يشكل هذا الوجه الآخر لسيطرتها هى عليه؟! هذا مؤكد فيما أرى، لا شك فى أنها القوة الحقيقية فى هذه العلاقة الغامضة، وما جنيت حتى الآن من مغامرتى إلا زيادة فى

اضطرام عواطفى وهياج أحلامى وحومانى بجنون حول الخطوة التالية. إنى أقبع فى مجلسى، رفيقى قدح من البيرة مكلل بالزبد، أناجى طيلة الوقت أحلاما طائشة. أتصور أنها علمت بالمدير الجديد، عرفت اسمه وهويته، لمحته مرة أو أكثر، راقها منظره، لم لا؟ حدست السر وراء سعيه، وحتما سيصاب حفنى داود مرة بوعكة تمنعه من المجىء، أو سينقضى أجله، أو أجد حيلة للتخلص منه. عند ذاك تتسرب أضواء الأمل فى هذا الليل البهيم، وينفسح المجال أمام الحب ليصنع معجزاته، إنى أتمزّز البيرة، وأحلم، وأتذوق النشوة، أعانى العذاب المقدس. ومن ناحية تلاطفنى بسمة مفعمة بأريج الياسمين..

٢٤

الظاهر أننى شغلت بال حفنى داود كما شغل بالى، فعقب المحاسبة والتشطيب فى ذات ليلة قال لى:

- لا تذهب.

فلبثت فى مقعدى الجلدى لعبة بيد الاحتمالات المتناقضة، ونهض قائلا:

- تعـال.

خرج من الباب الخلفى وأنا ظله، رأيت الفورد قابعة فى الظلام المتفشى عقب التشطيب وإطفاء الأنوار. فتح الباب الخلفى قائلا:

- تفضل..

واتخذ مجلسه فى المقعد الأمامى أمام عجلة القيادة. سرعان ما تبينت وجودها إلى جانبه فكاد قلبى يثب من صدرى. هكذا جاءت

الخطوة التالية بلا سعى منى أو تدبر، جاءت كضحكة الشروق مسربلة ببهجة سماوية. واندفعت تلقائيا إلى تحيتها فقلت:

- مساء الخير يا هانم.

فغمغمت برد غامض. وخفت عواقب خرقى للتقاليد، ركزت بصرى عليها لائذا بالظلمة. تمليت رسم خلفية رأسها وأعلى منكبيها، ميزت قبعتها العريضة وشملتها المطرزة بالترتر، وثملت بعطرها الفواح. شبران هما ما يفصلان بينى وبينها. انسابت السيارة فى الظلام ممزقة هدوء الحقول بأزيز محركها، انسبت معها فى بحر الهيام بأمواجه المتلاطمة وحواره الشجى. وددت أن أسمع صوتها وهى تحادثه أو أن تمتد الرحلة إلى الأبد.

وجدت السيارة تدخل حى المنيرة، الحى الذى ولدت وما زلت أقيم فيه، ودارت إلى شارع أصلان فوقفت أمام فيللا صغيرة مكونة من حديقة ودور واحد تقع خلف العمارة التى أسكن فيها مباشرة، لم أتمالك أن قلت بدهشة:

- إنى أسكن العمارة خلف الفيللا مباشرة!

فأجاب حفنى بصوت محايد أطفأ حماسى:

- عظيم..

أدخلت إلى حجرة أنيقة مؤثثة على الطراز العربى. جلست على ديوان رانيا إلى القنديل بإعجاب، مناديا إرادتى لجمع شتات فكرى والسيطرة على هوج انفعالاتى. لبثت وحدى عشر دقائق، استقر بقلبى خلالها إحساس مطمئن بالانتماء.

وجاء حفنى داود فى روب صيفى مزركش مثل جدران الحجرة، يحمل مدفأة مشتعلة الجمرات وجوزة. رمقتها باعتبارها أدوات صداقة وألفة. أتقع المعجزة وتهل نور القمر بطلعتها السنية؟!

ذهب إلى الباب فأغلقه ثم اتخذ مجلسه بادئا النشاط المعهود. خاب الأمل. صمتت بلابل السرور. ما الذى دعاه إلى استصحابى معه؟ رغم طعونه فى السن فهو مدخن شره. جاريته رغم نفورى الطبيعى من المخدر. مهما يكن من عبثية الرحلة فقد اهتديت إلى المقام وأمسيت جليسا لصاحبه. وإذا به يقول:

- لا شك فى أنك تتساءل عن سر الدعوة ولك حق. اعلم أنى رجل صريح واضح، وأنت بدورك رجل عسكرى لا يناسبه اللف والدوران.

فرنوت إليه متسائلا، فقال:

- المسألة تتلخص فى الآتى، سفر إلى السويس، نزول فى فندق الفردوس، يدخل عليك صباحا خادم بالفطور، يترك فى الحجرة لفة معينة، يذهب، تضع اللفة فى حقيبتك، ترجع بالسلامة، توتة توتة فرغت الحدوتة!

إزاء كل عبارة تقهقرت ميلا منغمسا فى مستنقع الخيبة. تمتمت:

- تهريب!

- سمه ما تشاء من الأسماء، أربع مرات فى الشهر، مائة جنيه مكافأة عن كل مرة!

- لكنه تهريب!

- الشك لا يمكن أن يرتقى إلى شخص محترم مثلك..

- عندك ولا شك من يقوم بذلك خيرا منى..

- أنت خير من يقوم به حتى يخرج صديقك من السجن.

فقلت باستياء:

- لن أكون مهربا!

- ألا يغريك الثراء؟

ـ بلى، ولكن الوسيلة أن تكون شريفة . .

ـ أنت حر طبعا، ولكن العمل لا مساس فيه للشرف!

ـ هو كذلك فى نظرى . .

ـ لعله الخوف؟!

فقلت بحدة:

ـ لست جبانا . .

ـ أنت حر يا أنور بيه.

وخطرت لى فكرة ماكرة فسألته:

ـ أنت رجل محترم فلِمَ لا تقوم بالمهمة بنفسك؟

ـ وقتى لا يسمح بذلكَ!

فقلت بإصرار:

ـ لا أحب الأعمال المخالفة للقانون!

ـ أنا لا أعترف إلا بالقانون الإلهى . .

ـ آسف جدّاً يا حفنى بيه . .

صمت . . رجعنا إلى التدخين المتواصل . تنهد أخيرا وقال:

ـ على أى حال لنفترق أصدقاء . .

ظننته يطالبنى بالانصراف فهممت بالقيام ولكنه قال بسرعة:

ـ لا أعنى هذا، أعنى أن أختار مديرا جديدا!

وقفت مادا يدى، صافحنى وهو يقول:

ـ فكر، إنى منتظر جوابك النهائى غدا!

٢٥

نجح فى أن يبقينى صاحيا حتى صباح اليوم التالى. إنى مفقود بحسب التعبير العسكرى، وقلت بصوت مرتفع فى حجرة الجلوس بشقتى:

- لا.. لا.. لا..

إن يكن القرب نارا فالبعد موت... ومهما يكن الثمن فلن أرتضى هجر الواق الواق. فيم التردد وقد انتهى أنور عزمى من زمان؟! لقد هجر الأقارب والأصدقاء، تخطى العرف والتقاليد، تمرغ فى السمعة السيئة، حمل فى سيارة الشرطة بين المومسات، يعمل فى وظيفة بينها وبين القوادة نصف خطوة. فيم التردد؟ لم اللغو بمنطق العقلاء وأنت مجنون؟! حقّا إنى أتدهور إلى غير ما حد، ولكن ما أحوجنى إلى رحمتك يا إله المعذبين؟!

ومضيت إلى حجرة حفنى داود فرمقنى ببرود وتساءل:

- يبدو أنك اتخذت قرارا؟

فحنيت رأسى فى تسليم فسألنى:

- ترى كيف تغير رأيك؟

فقلت غاضا بصرى:

- الثراء، أليس هو بالإغراء الكافى؟!

ورجعت إلى مجلسى بخاطرة جديدة من الشك. هل فطن الرجل إلى غرامى بنور القمر؟ العاشق تفضحه أحواله. وهناك أيضا حمودة المطلع على سرى، وكان موسى القبلى كذلك قبله. ولعل

العجوز لم يقبلنى مديرا إلا لعلمه بحالى واعتزامه استغلالى إلى أقصى حد. لو صحت ظنونى فعلىَّ أن أتوقع البطش بى لدى أول بادرة تهديد من ناحيتى. ولكن لعلها مجرد ظنون ووساوس لا أساس لها..

٢٦

ذهبت وجئت وقبضت. لأول مرة يمتلئ جيبى ويصير لى حساب فى البنك. من أعماق الظلمات التى أتردى فيها صعد إلى شعور ملىء بالثقة والنشوة، ينتشر مثل الشذا الطيب، أملى على بأننى أسير فى الطريق الصحيح وأننى بالغ شجرة طوبى[١]. شعور داخلى كنشوة الخمر. ذو قوة تتفتت حيالها صخور الواقع المتحدية. ولم يكن مجرد شعور باطنى فحسب. فالمنطق آزره بطريقته الخاصة معتبرا ما ترديت فيه من درجات السقوط مما لا يمكن أن يضيع عبثا ولكنه الثمن الفادح يؤدى مقدما، وأن حسن الختام آت لا ريب فيه. هكذا عللت نفسى بالأمانى لأتزود بالصبر وألطف من نذالة الجو. وحسبى الآن أننى أمكث فى هالتها كل ليلة فى الفورد مقدار نصف ساعة تضاف إلى رصيد الوصلتين بالواق الواق. وحسبى أيضا أنى صرت عضوا خارجيا فى الأسرة وجليسا دائما فى الحجرة العربية ومغامرة يحمل إليها كل أسبوع كنز نعيمها الوفير، ولدى بعد ذلك عزاء الإنسان ـ أحلامه المتهورة ـ التى تحلق به فى الفضاء بلا أجنحة.

وفى إحدى سهرات الليالى الزرقاء بالحجرة العربية سألته :

---

(١) اسم شجرة فى الجنة.

ـ لم تقنع بفصل نشاط محدود فى ملهى ثانوى بروض الفرج؟!

فأجاب باقتضاب:

ـ فيه ما يكفى..

ـ ولكن ثمة ملحنين معاصرين متفوقين وألحان جديدة وملاهى عامرة بعماد الدين؟

فثقبنى بنظرة كريهة وسألنى:

ـ ماذا يهمك من ذلك؟

فرجف قلبى غير أننى ضحكت قائلا:

ـ يبدو أننى أصبحت من رجال الأعمال!

فقال ببرود:

ـ كلا. أنت موظف يا جنرال!

تضاعف حنقى عليه، تمنيت تحطيم جمجمته، وتساءلت:

ـ ألا تحب الذيوع والتوسع والشهرة؟

فأجاب بصوت أبرد من الأول:

ـ كــلا..

المسألة أنك أنانى وجبان. وحريص على حبس العصفور المغرد فى القفص. تخاف عليها من الملحنين ومن الجمهور الحقيقى، ولكن لماذا لا تحكم قبضتك المعروقة المدبوغة فتبقيها فى الفيللا مثل جوارى الحريم؟!

٢٧

الحياة تمضى فى طريقها لا أجنى منها إلا أمر الثمرات. أحترق مثل الشمعة فيترسب ذوبى فى ماء آسن. وأسرى عن نفسى فأقول لها إنى

خليفته، لا خليفة له غيرى. ولكن هل أقنع بالصبر كالعجائز؟ ألا يجدر بى أنا المغامر بالتهريب أن أغامر بالاقتحام؟! ولكن كيف وهو متصد لى مثل كلب الحراسة؟! حقّا إنى لمجنون. أسير قوى غامضة تترامى خيوطها حتى تتشابك بمدارات الأفلاك أو تنعقد فى مركز الأرض. ويؤكد جنونى وأسرى الخفيف والنسمة والخوار والضجة والتغريد والألوان والضوء وكل شىء.

وتتوقف الحياة فجأة عندما تدق الساعة الثامنة مساء فلا يجىء الفورد كعادته كل ليلة.. انتظرت متابعا عقارب الساعة. اقترب ميعاد الغناء فاتصلت بالفيللا بالتليفون. رد على صوتها:

- آلــــو.

- آلــــو.

- أنور عزمى.. ماذا أخركم؟

- لن نأتى الليلة..

- ولكن الجمهور منتظر..

- تصرف.. مع السلامة..

قطعت الخط. وجدتنى فى دوامة من الابتهاج والانفعال والحيرة. إنه أول حوار يدور بينى وبينها وإن لم تمازجه نبرة طيبة أو كلمة مجاملة. أين حفنى داود؟ لم لَمْ يبلغنى بالأمر؟ لم لَمْ يرد بنفسه؟

وكان علىَّ أن أواجه الجمهور معتذراً عن غياب نور القمر.

٢٨

عند منتصف الليل وقفت أمام الفيللا بشارع أصلان. نائمة مغلفة بالظلام ولا بصيص نور فى الداخل. إنها تطرد الزائر بصرامة موحشة.

مضيت إلى شقتى فلم يطرق عينى نوم حتى الصباح. ترى هل جاءت المعجزة؟ عم ينكشف الستار الأسود؟

ورجعت إليها حوالى التاسعة صباحا. سألت البواب:

- حفنى بيه موجود؟

أجاب الرجل:

- البيه مريض.

تصرفت كفرد من الأسرة فدخلت بثبات. وجدت فى المدخل ممرضة فقلت لها:

- إنى مدير أعمال حفنى بيه.. كيف حاله؟

- لعله أحسن..

- ماذا به؟

- تعب فى القلب..

- هل أستطيع رؤيته؟

غابت دقيقة ثم رجعت وهى تشير إلىَّ بالدخول. رأيته راقدا لا يبدو من الغطاء إلا وجهه. لمحت مخايل الموت فى نظرة عينيه الغائمة الخالية من نبض الحياة وهمومها. الحجرة خالية بخلاف ما توقعت!

- لا بأس عليك، شد حيلك..

أجاب بصوت خافت:

- شكرا.

- لن أرهقك بالحديث..

- لا أهمية لذلك.. إنها النهاية!

أشار إلىَّ بالجلوس على مقعد قريب من الفراش وقال:

- لم أتوقع حضورك!

فتساءلت فى دهشة :

ـ كيف؟ لقد جئتك عند منتصف ليلة أمس ولكنى وجدت البيت نائما تماما . .

قال باقتضاب :

ـ ذهـبت !

جفل قلبى ، تساءلت :

ـ مــن؟

ـ لم تضيع لحظة . . هربت !

ـ نور القمــر؟

ـ المتوحشـة . .

فترت انفعالاتى كلها كشعلة ضئيلة ردمت بكوم تراب ! فلم أدر ماذا أقول ، أما هو فقد تحطمت مغالبته وتدفق الاعتراف بلا ضابط . .

ـ إنها عذراء ، إنه الحب ، إنه الجنون ، أنت تفهم معنى ما أقول !

حدجته بنظرة محرجة وبائسة فقال :

ـ توهمت وقتا أنه أنت . .

ـ أنــا؟ !

ـ إنك برىء ، وأحمق مثلى ، إنها ابنة المرحومة زوجتى شبت تنادينى بالأبوة ، مـاتت أمهـا وهى عروس فى السادسـة عشرة . حـاولت محاولة يائسة ثم قررت الاحتفاظ بها مهما كلفنى جنونى ، بسببها خسرت مشروع مدرسة أهلية كانت تدر علىَّ رزقا لا بأس به . . .

وعيت كل كلمة ولكن ما الفائدة؟ سألته :

ـ أين تظنها ذهبت؟

تجاهل سؤالى وواصل اعترافه :

ـ حصلت على المال بأى ثمن كما تعلم لأوفر لها أسباب السعادة، أنشأت مشروع روض الفرج لأشبع رغبتها فى الغناء والفن، تجرعت العذاب ليلة بعد أخرى، فعلت المستحيل . .

تساءلت بحيرة:

ـ ألم يكن بوسعها أن تتمرد عليك؟

ـ كلا . .

ـ لِـم؟

وهو يتنهد:

ـ موهبة إذا شئت!

ـ أى موهبة؟

ـ فى عينى، لا تفسير لذلك . .

أيخرف الرجل؟ أيؤمن بالسحر؟ هل يتمتع بقوة تسلطية خاصة؟

ـ بمجرد أن اقتحمنى المرض طارت . .

ـ متى؟ لقد ردت على مكالمة تليفونى فى منتصف التاسعة من أمس . .

ـ لم تنتظر النهار . . ربما عند منتصف الليل أو عقب ذلك!

كان من الممكن أن أصادفها فى موقف أمام الفيللا! يا للحسرة المعذبة! وعدت أتساءل:

ـ أين تظنها ذهبت؟

فتمتم

ـ يا له من سؤال أحمق!

٢٩

مات حفنى داود فى نهاية الأسبوع. أغلق الواق الواق أبوابه ولما ينته الموسم. توارت عن عينى الحياة الجديدة بأضوائها وأناسها فوجدتنى منبوذا خارج الأسوار. أنا وحبى الشهيد. هل خدعنى الشعور الباطنى الملهم كما خدعنى المنطق؟! هل أرضى من الغنيمة بالإياب سالما من قبضة الشرطة؟ الحياة قفراء لدرجة الرعب. لا شيء ولا معنى ولا طعم. وهذا الإحساس المتغلغل فى الأعماق بالإحباط والحزن وخيبة الأمل. هل أستطيع أن أواصل الحياة بخواء شامل وقلب معذب؟ وإنى لأتحرى كلما وجدت إلى التحرى سبيلا. أستجوب بواب الفيللا وحمودة وسنجة الترام. أغشى الملاهى ملهى بعد ملهى. أمشى فى الأسواق والشوارع كالمخبرين. فعلت أكثر من ذلك. قصدت قسم المنيرة. أدعى أن لى دينا فى عنق الفتاة المختفية. أعطيت أوصافها وما لدى من معلومات قليلة عنها، طالبت بمعاونتى فى العثور عليها. اندفعت فى كل سبيل بقوة جنونى وألمى.

ولما بلغ بى الألم حده الأعلى قررت أن أقاوم ما دمت أرفض فكرة الانتحار. تجنبت زنزانتى ما وسعنى ذلك، ولكن قهوة المالية لا تشغل إلا بعض وقتى ولم تجد كثيرا فى تسليتى. خطر لى أن أقامر، فالقمار ينسى الإنسان النوم والطعام فلعله يبرئه من الحب. وجدت فيه مهربا محموما ولكنه لم يستطع أن يستغرقنى وأساء إلى أعصابى إساءة حملتنى على إعادة التفكير. والتمست الشفاء فى الكتب الروحية، ولا أنكر أنها فتحت لى باب أمل ولكنه لا يؤتى ثمرته بلقاء المحبوبة إلا بعد الموت، ويجعل من الحياة فترة تسهيد وتعذيب وانتظار. وخطوت

خطوة جديدة تماما فاستشرت طبيبا نفسيا. قصصت عليه قصتى، رأيته يصغى بعناية وحدب. ولما وجدته يرمق هيكلى الضخم قلت له مرددا قولا قديما:

- منظرى لا يثير الرثاء!

فقال بجدية:

- إنك إنسان معذب..

ثم قال بعد هنيهة:

- لا أعتقد أنك مريض إلا إذا اعتبرنا الحب مرضا!

فسألته بتوسل:

- ألا يوجد علاج لحالى؟ أعنى عقاقير مفيدة مثلا؟

- العقاقير مفيدة ولكنى لا أنصح بها إلا عند اليأس..

- أظن أن حالى ميئوس منها تماما.

- ليس الأمر كما تتصور.. إنك سجين ذاتك وعلاجك فى أن تخرج منها..

ارتبكت أمام أقواله فصمت مبتهلا، فقال بوضوح:

- أنصحك أولا بالزواج، أنصحك ثانيا بالاندماج فى نشاط اجتماعى أو سياسى، إذا لم يُجْدِ معك فلدينا آخر وسيلة وهى العقاقير..

بقدر ما أعانى من ألم بقَدر ما أصمم على المقاومة، أزمتى تكشف لى عن جوانب ظلت خافية فى نفسى بِلا استغلال. زرت عمتى نظيمة وعالنتها برغبتى فى الزواج. صادفتنا عراقيل غير يسيرة. السن مثلا والمعاش المحدود وأجزاء من سيرتى الماضية. ولكن ثمة نساء فضليات يعانين ظروفا سيئة ويرحبن بالزواج بقلب متسامح وعقل متفتح.. وجدت بينهن أرملة فى الحلقة الرابعة، أما لفتاة متزوجة، متوسطة الحال والمنشأ والتعليم تدعى فائزة. جددت شقتى بالترميم والتجديد والطلاء

ثم استقبلت بها عروسى. الأمر بالنسبة لى علاج. فى نظر عمتى رغبة فى الاستقرار والإنجاب، ليس زواج حب ولكنه زواج للشفاء من الحب أو تخفيف حدة جنونه، عناصره الأساسية الطيبة والمودة والتعاون والحياة النظيفة المطمئنة. سرعان ما لمحت مخايل الأبوة، تلقيتها بقلق وحب استطلاع ونوع من السرور، ولكنَّ أسير الحب ما زال يرزح تحت أغلاله الصلبة. ثمة شعور بالذنب كدرنى أنى فى الحياة الأخرى سأطلق زوجتى المخلصة لأتزوج من الأخرى! من يدرى؟! فلعل زوجتى ترجع وقتذاك إلى زوجها المتوفى أو إلى من يروق لها من الأرواح الخالدة!

ثم خضت تجربة الانتماء السياسى. تجربة مثيرة للعب عندما يشرع فيها إنسان جاوز الخمسين من عمره بلا انتماء. ألم يتقرر لى ميل محدد منذ اشتركت فى المظاهرة وأطلقت الرصاصة فى فناء مدرسة الشرطة؟ ولكن الوطن يموج بتيارات جديدة أيضا. تيار دينى عنيف، تيار يسارى متطرف، تيار فاشستى حاد. تحيرت طويلا بين المبادئ. فى كل واحد على حدة وجدت عنصر جذب وعنصر رفض. وبدافع من ميولى القديمة اتجهت نحو الوفد، وبخاصة نحو جناحه اليسارى. فيه يطمئن إيمانى الراسخ بالله وحماسى العقلى الجديد للعدالة الاجتماعية. وهو محطة تأمل حتى أكتسب مزيدا من الخبرة والضوء وأفيد فى الوقت نفسه من نفوذ الحزب الشعبى. . سرعان ما انضممت إلى لجنة الوفد بالمنيرة. انغمست فى الزوجية والسياسة، رغم ذلك ظل الأسير الكامن فىَّ يناضل سلاسله، طالبت بترشيحى فى الانتخابات ولكن مطالبتى رفضت لحداثة عهدى الرسمى بالوفدية. رشحت نفسى على مبادئ الوفد. وجدتنى أنافس مرشح الوفد الرسمى ومرشحا آخر من الإخوان. وعند احتدام المعركة وزعت منشورات غريبة استهدفت نفسى تماما.

فيها كلام عن محضر الشرطة إثر القبض علىَّ فى بيت موسى

القبلى، وكلام عن وظيفتى كمدير للواق الواق، وتعليقات ساخرة وجارحة، وخسرت التأمين، ولكنى كعادتى توثبت بكل قوتى لمواصلة المعركة السياسية.. خطبت، حررت فى الصحف، وثقت علاقتى بالزعماء، تبرعت من مدخرات التهريب للجهاد، مضى الأسير على مضى الأعوام يتخفف من آلامه ويتحول أله إلى أسى مقدس وهادئ لا يموت ولا يحيا بعنف وعربدة.

* * *

وفى صيف أحد الأعوام سافرت ضمن وفد برلمانى إلى مؤتمر البرلمانات العربية ببيروت. وفى ذات ليلة، فى رحاب الجبل الأخضر والينابيع العذبة، وجدتنى أمام نور القمر! كنا وبعض أعضاء الوفد فى جلسة سمر تضم صحفيا لبنانيا عائدا لتوه من باريس. تحدث بحماس عن مغنية من أصل مصرى، تشدو بأغانى «فرانكو أراب» وتحقق نجاحا متواصلا تتنبأ له بالعالمية. تدعى نور القمر!

زلزل قلبى لدى ذكر الاسم بعنف يقظة كاسحة. اندفعت فى مجال التذكر والاستجواب متحررا من الجاذبية. انقلبت طفلا يلهو باللعب العقيمة والأحلام المتهورة ويناجى مرة أخرى المستحيل.

وعلمت من الصحفى أيضا أن مدير أعمالها يرسم خطة لرحلة فنية لها، لزيارة القارة الأوروبية كخطوة أولى، فبادرت - فى الفندق - إلى تحرير رسالة لها. قلت:

عزيزتى الفنانة الكبيرة نور القمر:

هل تذكرين أنور عزمى مدير الواق الواق؟ لقد جاءتنى أنباء نجاحك فى مكان لم تخطر لى من قبل زيارته، وعند رجل لم أتصور أن أعرفه يوما أو أن يمدنى عنك بخبر، وقد سعدت بنجاحك سعادة يعجز القلم عن وصفها، سعادة موصولة بتراث قديم من الإعجاب والحب لك فى

قلبى. أملى أيتها الفنانة الكبيرة أن تضعى مصر فى أعز مكان من رحلتك الفنية المقبلة، فهى الأصل، وفيها أول قلب نبض بحبك.

* * *

وفى مصر تلقيت الرد على عنوانى باللجنة. الحق أنه لم يكن ردا بالمعنى المفهوم. كان كارت بوستال تتألق فيه صورتها الخالدة، وعلى ظهره دون بخط اليد:

تحيـــة شـــكر وتقـــدير

(نور القمر)

جعلت أقرأ المدون بعناية. كلا لم أسعد به السعادة المتوقعة. ليست رسالة شخصية من أى نوع كان. إنه أكلشيه للرد على المعجبين. لعلها أمرت بإرساله دون الاطلاع عليه ولا حتى إمضائه، إنه يدفعنى إلى عالم الأرقام والتجريد ويتجاهل عواطفى وآلامى المقدسة. ولكن ها هى ذى صورة لنور القمر بين يدى، بكل بهائها وعذوبتها، بين يدى رغم انشغالها الواضح بمجدها ورغم حيادها القاسى إزاء المعجبين.

سأحتفظ بالصورة ما حييت. ومن يدرى؟ فربما رجعت صاحبتها ذات يوم إلى مصر للزيارة أو الإقامة. ماذا يعنى هذا بالنسبة لى؟ لا أدرى أيضا، لا أحب أن أحسم الموضوع بفكرة محددة لن أجنى من ورائها إلا العذاب. وإذا داخلنى شك ذات يوم فى حقيقة مغامراتى العجيبة فما علىَّ إلا أن أستخرج الصورة من حافظتى، وعند ذلك تنطرح أمامى الحياة بكل ألوانها المتضاربة. وما يند عن مفاتنها من جنون مقدس.

أهل القـــمـــة

قبيلة من النساء. خاطرة تراوده كثيرا وهو ينظر نحوهن. سفرة الغذاء معدة. مغرية للجميع. الصحاف والملاعق والشوك والسكاكين، وعاء البلاستيك المملوء بأرباع الأرغفة، الدورق والأكواب.. هرعت زهيرة إلى المطبخ لتحضر الطعام. من باب الشرفة المفتوح لاح ميدان السكاكيني والجانب الأبعد من البستان الذى يتوسطه تحت سماء الخريف المنقوشة بسحائب بيضاء متناثرة.. نزع قبعته وألبسها فازة فوق مستوى المائدة لطوله الفارع.

جاءت زهيرة بأوانى الطعام، بالكوسة والشواء والأرز والمخلل. تحلقت النساء السفرة، سناء زوجته (٣٠ سنة).. وكريماته الثلاث، أمل (١٠ سنوات).. سهير (٨ سنوات).. لمياء (٦ سنوات).. زهيرة شقيقته (٤٠ سنة وتكبره بخمس سنوات).. كريمتها سهام (١٧ سنة).

تناول خيارة مخللة فدمعت عيناه السوداوان الصافيتان. ما أمهر شقيقته زهيرة! طاهية ماهرة: تضفى على الطعام لذة تعوض ما ينقصه من ترف. يتجنب الثناء عليها إشفاقا من إثارة سناء، يتحاشى قوتها أو بالأحرى عصبيتها. إنه قوى فى القسم، أمام الخارجين على القانون، ولكنه يتحلى بالحكمة فى شقته. السخط لا يفارق سناء منذ اضطرت زهيرة وابنتها للإقامة معه. ورغم أنها تقوم بأعباء البيت كلها. رغم أنها تعمل كطاهية وخادمة، فإنها لم تستطع أن تفوز برضا سناء.

لسهام كريمة أخته جمال بديع (إنه يحب جمالها. لم تحظ بمثله كريمة من كريماته. رغم أن سناء لا بأس بها وهو أيضا لا بأس به. رغم ندبة فى صدغه الأيسر من مس رصاصة نجا منها فى أثناء مطاردة عصابة فى الدلنجات.

انتظمت السفرة حركة نشيطة فى جو يسوده الصمت حتى خرقته سناء بصوتها الرفيع:

- عندنا أخبار.

فتساءل فى توجس:

- ماذا عندكم؟

- بعد الانتهاء من الطعام.

حدثت مشاحنة من المشاحنات التى لا تنتهى. زهيرة وسهام يمكثان هنا بلا ترحيب. لم لا يعترف بأنه هو نفسه لا يرحب بالزحام وأنه يعانى منه من الناحية الاقتصادية. ولكن الواجب هو الواجب. انقلبت الشقة فأصبحت ثلاث حجرات للنوم. ألغى كارها حجرة الاستقبال وأحل مكانها السفرة.. وجعل من الصالة الصغيرة حجرة استقبال وجلوس. يومها قالت سناء:

- بيتى تهدم!

فتساءل بامتعاض:

- لم لَمْ تذهب إلى أحد من أخواتك؟

- لا متسع لها، وكيف تذهب إلى بيت رجل غريب وأنا موجود؟!

- أنت ضابط.. ابحث لها عن شقة.. ولها معاش الأرملة!

فضحك ساخراً وقال:

- شقة فى هذا الزمان! أما المعاش فهو بضعة جنيهات.. لقد مات المرحوم بعد خدمة قصيرة!

ـ وما ذنبى أنا!

ـ لا حيلة لى أو لك. .

من بادئ الأمر شعرت زهيرة بالحرج أكثر مما شعرت بالترمل، ومما يزيد الأسى أنها كانت فى زواجها موفقة. . ولكن الموت عاجله. إنه يدرك تماما. يعرف أنها على يقين من أنها غير مرغوب فيها. . لا هى ولا ابنتها الجميلة. وسناء عصبية. لا تحسن إخفاء مشاعرها أو لا يهمها ذلك. ولم يخفف من حدتها إقبال زهيرة على العمل اليومى الشاق. وطالبتها بالمعاش ولكن زهيرة قالت بذل:

ـ إنه تافه، ولابد من أن تظهر سهام بمظهر لائق فى المدرسة. . وأنا أيضا. . وهو لا يكاد يفى بهذا أو ذاك.

ولاحظ أن شقيقته مستوصية بالصبر والاستسلام. . تسمع وتتجاهل. . تتلقى الأحجار صامتة واجمة. . تحذر كريمتها من الانفعال. وأدرك أن سهام متمردة نوعا ما. وقد نما إلى أذنيه يوما صوت سهام وهى تقول لأمها:

ـ متى أنقذك وأنقذ نفسى؟

فتقول الأم:

ـ زوجة خالك لها عذرها، ألم تكن لطيفة قبل أن نضطر للإقامة معها؟

ـ لكن خالى. . إنه ممتاز ولكنه ضعيف!

ـ ليس المفروض أن يكون ضابطا فى بيته أيضا. . الغلاء نار يا سهام كان الله فى عونه. .

وأشد ما يزعج سهام هو موقف سناء من مستقبلها. قالت يوما لزهيرة على مسمع منه:

ـ متى ما حصلت سهام على الثانوية العامة فعليها أن تعمل. .

ولم تحر زهيرة جوابا، أما سهام فقالت:

- هذا يعنى ضياع مستقبلى . .

فقالت سناء بحدة:

- إنك لا تدركين حقيقة الوضع . .

فقالت زهيرة:

- لِم نتعجل الأمور؟

فقالت سناء بغضب:

- نحن نربى ثلاث بنات، نحن نعانى، عليك أن تفهمى ذلك.

فقالت زهيرة باستسلام:

- لتكن مشيئة الله.

وكان محمد فوزى - الضابط - يقول لنفسه إن القبيلة ممزقة . . ما منهن واحدة إلا وهى ظالمة مظلومة . . الحياة تبدو أحيانا لعنة طويلة. ويتذكر كم أحب أخواته فيما مضى وخاصة هذه الأخت وهى ليست أسوأ حظا منهن . . كلهن متعبات . . ووراء كل سرب من الذكور والإناث.

وتقول له زوجته سناء متحدية:

- عليك منذ الآن أن تستعد لزواج بناتك . .

فيتساءل ضاحكا:

- من الآن يا سناء؟

- عليك أن تشترى شقة لكل منهن.

فيضحك ضحكة عالية ويهتف:

- أتحدى وزير الداخلية أن يفعل ذلك!

- ألا تسمع عن الذين يحتفلون بالزواج فى هيلتون وشيراتون؟

- كما سمعت عن أغا خان - رحمه الله . .

ويداعب أمل كبرى بناته ثم يتساءل :

- ماذا ندرى عن الغد؟!

٢

عقب الغداء جلسوا فى الصالة، وسأل محمد زوجته :

- ماذا عندكم من أخبار؟

ساد صمت غامض كأن كل واحدة تدعو الأخرى للكلام .

وقالت زهيرة :

- أحدهم يطلب خطبة سهام!

ارتسم الاهتمام فى صفحة وجهه الأسمر . هذا الخبر قد يعنى نكتة سخيفة وقد يعد بفرج غير متوقع :

- من هـو؟

- من نفس الحى، طالب بكلية العلوم، يدعى رفعت حمدى . .

نكتة سخيفة لا فرج كما يوحى بها الجو . تساءل :

- ماذا تعرفون عنه أيضا؟

فقالت زهيرة :

- أسرة طيبة . .

فقالت سناء :

- ولكنها فقيرة .

فقالت زهيرة :

- سيكون موظفا بعد ثلاثة أعوام وتكون سهام قد وجدت عملا أيضا .

فقالت سناء :

ـ الجملة ثلاثون جنيها على أكثر تقدير .

فتساءلت زهيرة :

ـ هل نتجاهل سعادتها؟

فقال محمد فوزى متهربا :

ـ أعطونى فرصة للتحرى والإحاطة!

فقالت سناء :

ـ المسألة واضحة ، لن يملك مهرا ، لابد من جهاز ولو حجرة واحدة ، ثم لابد من شقة ، لسنا فى زمن العواطف ، وهذا ما يجب التفكير فيه من الآن .

فقال محمد متحرجا :

ـ أعطونى فرصة . .

وعند ذلك قالت سهام بجفاء :

ـ فلنعتبر الموضوع منتهيا . .

فرمقها خالها بحنان وسألها :

ـ لا شك فى أنك تعرفين أكثر مما نعرف؟

ـ أبـــدا . .

ـ أود أن أسمع رأيك يا سهام؟

ـ لقد أوضحت أبلة سناء الحقيقة .

فقالت سناء :

ـ ربنا يرزقك برجل قادر ، لا فائدة من الشباب ، هذا رأيى . .

فقال محمد مجاملا :

ـ المهم رأيك أنت يا سهام!

فقالت سهام بضيق واضح :

ـ لا رأى عندى يا خالى . .

ـ العواطف وحدها لا تكفى . .

ـ نعــــم . .

ـ إنى على استعداد لفعل ما تشيرين به !

فقالت سناء :

ـ سهام جميلة وسوف تسنح لها فرصة أطيب !

وسألته زهيرة :

ـ ما رأيك أنت يا أخى ؟

فتفكر قليلا ثم قال :

ـ رأيى أن تصارحه سهام بما سمعت وتسمع رأيه . .

فقالت سناء :

ـ معقول هذا الرأى .

هنا غادرت سهام الصالة إلى حجرتها ، أما زهيرة فاغرورقت عيناها على رغمها .

سألتها سناء :

ـ هل أخطأنا ؟

وبادرها محمد :

ـ سأفعل ما تشيرين به .

فقالت زهيرة :

ـ لا خطأ هناك ألبتة ، ولكنى حزينة ، البنت راغبة فى التعليم ولن يتاح لها ذلك ، وراغبة فى الشاب ولن يكون نصيبها ، لا خطأ هناك ولكنى حزينة . .

٣

قرب مقعده من نافذة تطل على ميدان السكاكينى ليسترد أنفاسه. أى حظ هذا؟ إنه غير راض عن نفسه ولا عن أى شىء. وحسن ألا يكون شابا. إنه زمن المودعين. ولكن.. وانقطعت أفكاره فجأة. استقرت عيناه فوق البستان. هذا الوجه يعرفه تماما. كان صاحب الوجه يتربع على الحشائش مسند الظهر إلى جذع نخلة. هو هو دون غيره. زعتر النورى. ماذا جاء به إلى هنا؟ هل يتربص به الأحمق؟.. لا.. لا.. ثمة سبب آخر. شعره حليق. ما زال حليقا. مفهوم. لن أمهله.

تناول قبعته وغادر الشقة.

بعد دقيقة واحدة كان يقف أمام المتربع. وثب الرجل واقفا متهلل الوجه. طويل القامة ولكنه دون محمد بقبضة. وجهه نحيل طويل، حاد البصر، نابت شعر اللحية.. يرتدى بلوفر بنى قديم وبنطلونا رماديا رثا وصندلا.. ابتسم عن أنياب قوية ملونة وهتف:

- أهلا بحضرة الضابط العظيم..

فسأله محمد فوزى:

- متى خرجت من السجن؟

- خرجت من السجن الذى دخلته بفضلك منذ شهر واحد.

- وماذا جاء بك إلى هنا؟

- جئت لأشم الهواء النقى..

- اسمع يا بن الثعلب، ماذا جاء بك إلى هنا؟

فقال باسما:

ـ لماذا تكرهنى يا محمد بك؟ لولاك ما كان الجن الأحمر نفسه يستطيع ضبطى متلبسا ويدخلنى السجن، إنك ضابط شريف ولكن ربنا أمر بالرحمة، ولا تنس العلاقة الحميمة التى تجمع بين الضابط والنشال، نحن معروفون لكم من قديم، نحن نتبادل التحية، وفى بعض حوادث النشل الحرجة تطالبنى برد الشىء الثمين فأسترده من صاحبه خدمة لك، عظيم، أين الرحمة إذن؟

فسأله بصرامة متجاهلا مرافعته :

ـ لماذا تجلس أمام مسكنى؟

ـ صدقنى فإنى أحب هذه الحديقة . .

ـ زعتر، حذار من المزاح . .

ـ عظيم يا حضرة الضابط العظيم، فلأبحث عن حديقة أخرى .

وتفحصه بدقة مليا، ثم سأله :

ـ كيف تحصل على رزقك؟

ـ حتى الساعة لا رزق لى .

ـ هذا يعنى أنك متشرد؟

ـ كلا . .

ثم وهو يضحك :

ـ لا مؤهل لى والحكومة لا تستخدم إلا ذوى المؤهلات . .

فهتف به :

ـ حذار من المزاح يا زعتر . .

قال زعتر بجدية :

ـ يلزمنى رأسمال يا حضرة الضابط .

ـ هذا ليس من شأنى ، وإذا عثرت عليك مرة أخرى بلا عمل فسوف أقبض عليك كمتشرد!

ـ الله معنا . .

ـ ادع الشيطان فهو إلهك . .

ـ أستغفر الله رب العالمين . .

ـ أجبنى ماذا أنت فاعل؟

فتنهد قائلا :

ـ سأبحث عن عمل .

فقال بهدوء مخيف :

ـ ابعد عن وجهى قبل أن أقرر القبض عليك . .

رفع زعتر يده تحية ومضى فى خطوات سريعة كأنه مشترك فى سباق المشى . وقف محمد فوزى يتبعه بعينيه حتى واراه شارع ابن خلدون .

٤

حظه من النجاح فى قسم الشرطة أضعاف حظه منه فى بيته ، إنه ينتصر عادة على اللصوص والنشالين ولكنه ينهزم فى غشاء الهموم العالمية . وقد أبلغته زهيرة أن الشاب رفعت حمدى يرجو لقاءه فرحب بذلك . واقترحت أن تحضر سهام اللقاء فلم يمانع ، ولأنه لا يوجد فى الشقة مكان استقبال مناسب فقد تم اللقاء فى حديقة الشاى بحديقة الحيوان . وجده شابا معتدل القامة ، بشوش الوجه ، واضح الرجولة . قال لنفسه ومن واقع خبرته العريقة . . إنه يوحى بالثقة ويمكن التفاهم معه . . قال الشاب :

ـ إنى معجب بشخصية آنسة سهام، جادة ومحترمة، وحضرتك رجل ذو سمعة طيبة جدًا . .

فشكره محمد فواصل حديثه :

ـ ما يهم العلاقة المقدسة متوافر لدينا . .

فابتسم محمد قائلا :

ـ للأسف الشديد فإنه تغطى ظروف جانبية على الشروط الجوهرية . .

فقال الشاب بحماس العاشق :

ـ علينا أن نتغلب عليها . .

ـ هات ما عندك . .

ـ أمامى ثلاثة أعوام، عملى مضمون فى التدريس أو المعامل .

ـ لعل التدريس أفضل فيما يقال .

ـ وأمامى فرصة للعمل فى الخارج أيضا . .

ـ جميل ذلك، ولكن يجب أن تعلم أننا لا نملك تكاليف الزواج .

ـ أعرف ذلك، المهم أن تكمل سهام تعليمها . .

ـ زدنى إيضاحا . .

ـ إنها أيضا ترغب فى دراسة العلوم، وستجد فرصة للعمل فى الخارج .

دخلت سناء زوجته فى إطار الجلسة فقال بحزم :

ـ ظروف حتمية توجب علينا توظيفها حال حصولها على الثانوية العامة فى نهاية العام . .

ـ ألا يمكن . .

فقاطعه :

ـ غير ممكن. إنى آسف..

فتفكر رفعت مليا مغموما ثم قال:

ـ فلنعلن خطبتنا الآن، ولنؤجل الهموم للمستقبل..

وكان محمد يلحظ سهام من آن لآن ويقرأ موافقتها الصامتة، ولكنه لم ير بدّا من أن يقول:

ـ تصرف غير مقبول.

ـ لمــاذا؟

ـ إنه يعنى انتظارا طويلا وغير مضمون العواقب..

ـ أرى أنه ما دامت النية الطيبة متوافرة، فالعقبات تذوب عادة..

ـ لا أشاركك الرأى، سهام كريمة شقيقتى، ولا أريد أن أعلق مستقبلها على المجهول.

ـ إنه ليس مجهولا.

ـ ولكن عندى رأى أفضل..

ـ ما هو يا سيدى؟

ـ أن يسير كل منكما فى سبيله دون التزام بعلاقة ما. أنا شخصيا لا أحب الخطبة أن تطول بلا حدود، فإذا وجدت ظروف ملائمة فى المستقبل فلا بأس من الموافقة عند ذاك!

فقال رفعت حمدى بقلق:

ـ قد يتقدم لها فى أثناء ذلك رجل ما.

ـ أصارحك بأننى سأعمل ما أراه فى صالحها و..

وتوقف متمهلا ثم قال عادلا عما كان فى نيته قوله:

ـ ما آراه فى صالحها..

فقال رفعت بهدوء:

- أظن من الإنصاف احترام رأيها . .

- طبعا . . طبعا . .

وساد صمت مثقل بالخيبة . . وكانت سحب الخريف منبسطة فلم يهبط من الشمس شعاع واحد غير أن البرودة كانت وانية محتملة . . وابتسم محمد فوزى وقال :

- هناك رجاء لا مفر منه . .

فنظر إليه الشاب مستفهما ، فقال بحزم لا يجد مشقة فى دعوته فى أى وقت :

- ألا يقع بينكما فى الهدنة المقترحة لقاء من أى نوع كان!

لحظ الرجل سهام فى طريق العودة مرات . . قال لنفسه : «إنها ستجهش فى البكاء حالما تنفرد بنفسها» . . لعن نفسه . . ولعن أشياء كثيرة . .

٥

كان منفردا بنفسه فى مكتبه عندما استأذن زغلول رأفت فى مقابلته . . نهض باهتمام فاستقبله عند الباب ، شد على يده باحترام ، وأجلسه أمام مكتبه وهو يقول :

- شرفت يا أفندم!

الرجل فى الأربعين ، ولكنه يتمتع بحيوية شاب فى العشرين ، بدين مع ميل إلى القصر ، كبير القسمات ، داكن السمرة معروف أنه رجل أعمال ، وأنه ذو صلات ، ويتردد اسمه أحيانا عند التبرع لمشروعات خيرية فى الحى .

قال الرجل بصوت مبحوح قليلا :

ـ كان يجب أن نتعارف من قديم فأنت ضابط ذو سمعة هائلة .

ـ كانت ستكون فرصة سعيدة لمعرفة وجيه من محبى الخير .

ـ شكرا ها هى ذى الفرصة ولكنها ليست سعيدة . .

وضحك . فابتسم محمد فوزى وقال :

ـ حادث سخيف . .

ـ ثمنه عشرة آلاف . .

وقدم سيجارة ، فلما اعتذر لعدم التدخين أشعلها وقال :

ـ نشلت حافظة النقود ، بمائة جنيه غير الفكة ، ولكن توجد بها علاقة مفاتيح ذهبية وذات فص من الألماس . .

فتساءل محمد :

ـ كيف ينشل رجل مثلك؟ لابد أنك كنت فى حفل؟

ـ هو ذلك . . فى جامع القبة الفداوية . .

ـ آه!

ـ أعتقد أنه ليس من الميسور بيعه إذا وزعنا نشرة بأوصافه .

ـ سنفعل ذلك على سبيل الحيطة . ولكن النشال يبيعه بثمن بخس لمن يصادفه . .

فقال الرجل مبتسما :

ـ إنه عزيز لأسباب شخصية ، ما نسبة الأمل فى استرداده؟

فقال محمد فوزى باسما ابتسامة أسيفة :

ـ لا سبيل إلى نشال إلا إن ضبط متلبسا ، نحن نعرفهم ولكن من أين لنا الدليل ، وثمة تنبيهات متلاحقة بوجوب احترام القانون . .

ـ إذن أقول عليه العوض؟

ـ توجد وسيلة مجربة فى الأحوال النادرة. أعطنى فرصة أربعًا وعشرين ساعة . .

ـ وإذا لم تنفع؟

ـ سنسير فى الإجراءات العقيمة.

ـ لكم ولا شك وسائل سحرية أقرأ عن أخبارها أحيانا فى الصحف.

٦

أمر الضابط باستدعاء زعتر النورى . . جميع المخبرين يعرفون مقهى النشالين المعروف بمقهى حنش فى خلاء الحدائق فيما تتصل بالحقول، وهو الذى أطلق عليه المعلم حنش اسم «مقهى الأمراء» بعد الثورة . . ودخل زعتر حجرة الضابط تبوح عيناه الحادتان بنظرة قلقة متوجسة وهو يقول:

ـ ستجعلنى لعبتك يا حضرة الضابط؟

لم يرفع رأسه عن أوراق بين يديه. تركه وحده فى دوامة التوقعات المزعجة. قال زعتر:

ـ أعطنى فرصة . .

نظر إليه ببرود وسأله:

ـ أعتقد أنك مصمم على تغيير حياتك، قد أصبحت من المصلين!

ـ نعم؟!

ـ رآك البعض وأنت تؤدى فريضة الصلاة.

ـ أنا ما دخلت جامعا قط طيلة حياتى!

ـ جامع القبة الفداوية .

ـ سيدى الضابط أنا لا أفهم شيئا . .

ـ ولا أنـا !

ـ أنا تحت أمرك . .

قال بهدوء :

ـ أريد علاقة المفاتيح !

تراجع رأسه قليلا . اختفت نظرة القلق . أدرك أنه مطلوب لمفاوضة . تشجع قائلا :

ـ أى علاقة مفاتيح؟

ـ نحن نفهم بعضنا يا زعتر . .

ـ مذ خرجت من السجن وأنا أعيش عالة على المعلم حنش . .

ـ نشل حافظة الوجيه زغلول رأفت عمل لا يقدم عليه سواك .

فابتسم زعتر وقال :

ـ إنك تطلب مساعدتى . .

ـ حذار من الغرور .

ـ لقد قدمت أكثر من خدمة ولكن صدرى ينقبض فى جو القسم . .

ـ لا تخش شيئا . إنك تعرف ما تعنيه كلمتى !

ـ كلام رجال .

ـ نعم يا بن الثعلب . .

ـ عظيم . . لنبدأ من الأول، ماذا تريد؟

ـ علاقة رأفت زغلول . .

ـ لم أنشـــلها .

ـ لا أصـــدقك .

ـ أقسم لك بشرفى .

فضحك محمد فوزى قائلا :

ـ يا بن الثعلب .

ـ أقسم لك بشرفك أنت !

قال الضابط بحدة :

ـ عليك اللعنة ، أتعرف ما يعنيه هذا القسم؟

ـ أعــرف . .

ـ فمن نشلها؟

فهزَّ رأسه قائلا :

ـ سؤال غير جدير بذكائك .

ـ عندك علم بالموضوع؟

ـ غير جدير بذكائك أيضا .

فنظر إليه مقطبا وقد اكفهر وجهه .

قال زعتــر :

ـ يلزمنى وقت للعمل .

ـ متى تحضرها لى؟

ـ لا أدرى ، وربما ضاعت إلى الأبد . .

ـ اسمع يا بن الثعلب . .

ـ أعدك بأنى سأبذل جهدى .

ـ فى ظرف يوم !

ـ على الله الجبر .

تمهل الضابط قليلا ثم قال :

ـ ربما نالك خير ، الرجل ثرى لدرجة الخيال . .

قال زعتر بحماس :

ـ لا يهمنى المال، ما يهمنى حقّا هو خدمتك!

تمتم محمد فوزى باسما :

ـ يا بن الثعلب . .

٧

المفاجأة أن زعتر طرق باب الضابط عصر اليوم التالى . كانت سهام هى التى فتحت الباب وهى التى أبلغت خالها بقدوم زائر يدعى زعتر . انفعل محمد انفعالا شديدا ولعنه ألف لعنة، غير أنه اضطر لاستقباله ومجالسته فى الصالة، بل وقدم له القهوة . بدا زعتر مفعما بالحيوية والسعادة . وقال :

ـ لا تؤاخذنى على حضورى إلى بيتك إذ إننى أكره القسم .

ـ ماذا فعلت؟

دس يده فى جيبه فاستخرج منه العلاقة والمحفظة . تمتم محمد :

ـ والنقود أيضا؟

ـ عن آخر مليم، إذا لم تكن فى الاتفاق فدعها لى . .

فقال محمد مداعبا لأول مرة :

ـ الغنى غنى النفس!

فقال الآخر بتسليم :

ـ أمرك .

ـ من الذى نشلها يا زعتر؟

ـ لماذا تسأل يا حضرة الضابط؟

ـ العلم بالشيء ولا الجهل به.

فابتسم الآخر قائلا:

ـ لم أخن زميلا فى حياتى..

ـ حقّا؟!.. يا لك من رجل عظيم فى الشر!

فضحك زعتر واشتد لمعان عينيه وقال:

ـ وشرف ربنا لولا الحظ السيئ..

ـ هه.. لكنت من رجال الأمن؟

ـ كلا.. لا يعجبنى عملك..

ـ حقّا؟.. ولمه؟

ـ أقول لك، إنك تطارد اللصوص لحساب الحكومة بينما الحكومة أكبر لص فى الدولة!

ـ يا بن الثعلب..

ـ إنكم تكرهون قول الحق يا محمد بك..

ـ هه. إذن ماذا تفضل من المهن؟

فتفكر قليلا وقال:

ـ أقرب عمل لعملى الراهن أن أكون مدير بنك!

فلم يتمالك محمد فوزى نفسه من الضحك، فقال زعتر:

ـ أريد رغيفا محشوا باللحم المحمر..

ـ طلب غير هين، ولكن سيكون لك ما تريد..

فقال زعتر وهو يتنهد:

ـ ورغم العيش والملح سترجعنى إلى السجن غدا إذا وقعت فى قبضتك!

ـ طبعا . . لا مفر من ذلك .

ـ الأمر لله . . من صاحب العلاقة؟

ـ زغلول رأفت من رجال الأعمال والبر . .

ـ رجل أعمال؟ طبعا لص ولكن ما تخصصه؟

ـ كل الناس عندك لصوص؟ !

ـ اسمع يا محمد بك . . ستندم ذات يوم على تمسكك بالشرف .

ـ على فكرة يجب أن أزف إليه البشرى . .

وأدار قرص التليفون . .

ـ زغلول بك رأفت؟

ـ . . . .

ـ مبارك . . العلاقة والحافظة معى . .

ـ . . . .

ـ وهو أيضا موجود .

ـ . . . .

ـ ولكن . . فكر قليلا . . إنه قادر على أن يخطف الكحل من العين . .

ـ . . . .

ـ إلى اللقاء يا إكسلانس . .

والتفت نحو زعتر قائلا :

ـ إنه مصمم على رؤيتك . .

فقال زعتر باهتمام :

ـ تحت أمره .

ـ كن عاقلا . . وكن حكيما أيضا فى الإفادة بما يجود به عليك . .

ـ طبعا . . ولن أنسى المالك الشرعى للمحفظة . .

ـ المالك الشرعى؟

ـ الذى نشلها يا محمد بك . .

فابتسم الضابط وقال :

ـ احذر أن تجعلنى أندم على الموافقة . الحظ يفتح لك بابا شريفا يا زعتر . . والآن دعنى أعد لك الرغيف . .

ولكن زعتر نهض فى لهفة وقال :

ـ لا تضيِّع الوقت ، شكرا ، بنا إلى الرجل ، وسوف أشترى اللحم بنقودى الحلال لأول مرة . .

٨

مضت حياة الضابط بهمومها الشخصية وتوفيقها العام . البيت يسوده غالبا التوتر وقد استغرقت سهام فى دراستها ولكن فى تعاسة ملحوظة . من يدرى؟ ! فقد ينتصر الحب فى النهاية ، سيجد لسهام عملا فى نهاية العام وسينضم مرتبها إلى معاش أمها . وربما حقق رفعت حمدى حلمه ، وهاجرت الأسرة الجديدة ـ سهام ، رفعت ، زهيرة ـ إلى الخارج مجبورة الخاطر . عند ذاك يطمئن على أخته وتحظى أسرته بالاستقلال وتستكن أعصاب سناء زوجته . ما أجمل الأحلام الملطفة للآلام!

وحصلت سهام على الثانوية العامة وراح يسعى لإلحاقها بعمل ولكن التوفيق فى ذلك بدا بعيد المنال . وفى ذلك الوقت جاءه المخبرون بنبإ مثير وهو أن مقهى «الأمراء» أو مقهى النشالين قد خلا منهم . وكان قد

لاحظ قلة ملموسة فى حوادث النشل، حتى مضت أشهر لم يتلق فيها بلاغا واحداً. وأمر بالبحث عن مجمعهم الجديد ولكن لم يعثر لهم على أثر. ولم يجد أحد من المخبرين عند المعلم حنش صاحب المقهى تفسيرا، وفسره هو على هواه فقال: إنهم ضاقوا بصرامته ويقظة المخبرين فهاجروا من الحى. وسُرَّ المأمور بتلك النتيجة غير المتوقعة وهنأ محمد فوزى عليها.

* * *

وكان يغادر نادى الشرطة ذات يوم عندما رأى شابا وشابة فى غاية الفخامة، يغادران سيارة، ويتجهان نحو برج القاهرة، نال من الشاب نظرة عابرة وهو يمضى فى طريقه، ولكنها لم تتلاش كما توقع. التفت وراءه فرأى الشخصين يصعدان سلم البرج، جعل يتأملهما حتى غابا فى المدخل.

ما معنى هذا؟ هل سبق له أن رأى هذا الشاب؟ لقد التقت عيناهما لحظة خاطفة. لم تكن عينا الآخر محايدتين. أم هكذا خُيِّل إليه؟ لمح فيهما معنى ما، حياة من نوع ما تشى بنوع من المعرفة، وضرب الأرض بقدمه. مستحيل. توقف عن المشى، استدار متجها نحو البرج. تفحص الكافتيريا، ثم صعد إلى الشرفة العليا. رأى الشخصين يطلان على القاهرة ونسمة عليلة من نسمات الصيف تداعبهما. اقترب حتى وقف وراءهما. سمع الشاب يقول للشابة بصوت يسمعه هو كأنما هو المقصود به:

- ألم أقل إن له عينين لا تخدعان؟

فهتف محمد فوزى:

- زعتر النورى..

فاستدار نحوه باسما عن أسنان بيضاء وهو يقول محتجا:

ـ محمد زغلول من فضلك .

وأشار إلى الفتاة قائلا :

ـ صديقتى بهية . .

فتمتم الضابط :

ـ جلجـلة؟!

ـ قلت بهية من فضلك . .

جعل ينظر إليهما بريب، فضحك زعتر وقال :

ـ بهية اسم اختارته بنفسها، أما أنا فكونت اسمى الجديد من اسمك «محمد» واسم البك زغلول، بصفتكما صاحبى الفضل الأول . .

فقطب محمد فوزى متسائلا :

ـ عن أى شىء تسأل؟

ـ أنت تفهم، ما أعنيه تماما يا زعتر . .

وضح له عن قرب أن فخامة الملابس وصقل الوجه والأطراف لم تغط تماما على الابتذال فى الحركة والهيئة، وتقدمت بهية (جلجلة) خطوة بجمالها الشعبى الصارخ وتساءلت محتجة :

ـ ماذا فعلنا لتحقق معنا؟

وسأله زعتر النورى بشىء من العظمة :

ـ بأى حق تتعرض لنا يا حضرة الضابط؟

فقال الضابط :

ـ أريد أن أكتشف الجريمة المستترة وراء هذا التغيير .

ـ إنك تخاطب رجلا من رجال الأعمال . وهذه امرأة من نساء الأعمال . .

ـ نحن نعمل فى ضوء النهار . .

ـ لن يخفى سر . .

فضحك زعتر وقال :

ـ يؤسفنى أن يكون أول لقاء لنا على هذا النحو ، لنا ماض مشترك ، وفضلك علىَّ عميم ، أنت الذى سلمتنى مفتاح السعادة ، فماذا يثيرك علىَّ الآن؟ دعنى أدعوك لفنجان شاى . . وليطمئن قلبك . . وهاك بطاقتى الشخصية إذا شئت . .

فقال محمد بذهول :

ـ إنه عام واحد .

ـ ما قيمة الزمن؟ صفقة واحدة تحولك من دنيا إلى دنيا ، الفضل لك ولزغلول رأفت أيضا ، مازلت أعد من رجاله . ولى أيضا رجالى . .

ـ تهريب؟ !

ـ رجعنا نردد ألفاظا لا معنى لها ، اسمها الوحيد «تجارة» . . حتى لو أصررت على الألفاظ الميرى فربما كانت تهريبا قبل أشهر لكننا اليوم فى عصر الانفتاح ، لا تهريب ولا دياولو . . تفضل بزيارتنا . . وانظر إلى تلميذك بنفسك . .

فقال الضابط ببطء :

ـ زعتر . .

فقاطعه بسرعة :

ـ محمد زغلول من فضلك .

ـ أنت تعرف من هو محمد فوزى؟

ـ طبعا . . أعرف أنك ستتحرك . . أعرف أنك تحلم بإرجاعى إلى السجن . . ولكن الحقيقة ستتكشف . . ستعرف أننى رجل شريف . . آمل أن نكون أصدقاء . . لست دون زغلول رأفت استحقاقا لذلك . .

وقالت بهية بدلال:

- وأنا أيضا أريدك أن تكون صديقا لى!

وتساءل زعتر:

- البضائع المهربة كانت تملأ الطرقات فلم لَمْ تصادروها؟ لمَ لَمْ تقبضوا على مروجيها؟ كنا نجول فى الميدانَ يحرسنا رجال الأمَن.. ووراء كل واحد منا شخص ذو مقام.. انتهى عصر المغامرة وما نحن اليوم إلا تجار شرفاء.. ثم إنك صاحب الفضل.

- أضجرتنى بقولك هذا.

- لم يغضبك قول الحق؟ أنا أيضا نشلت ذات يوم ولكنى استرددت مالى بقوتى الذاتية، لم ألجأ إليك لتسترد بقوتك مال لص كبير من نشال مسكين.

وهتفت بهية:

- صديقك زغلول رأفت لص عظيم..

فانتهرها زعتر قائلا:

- اقطعى لسانك. إنه بحكم القانون الجديد تاجر عظيم!

فقالت مخاطبة محمد فوزى:

- نحن ندعوك إلى فنجان شاى.

فقطب الضابط متحولا عنهما فقال له زعتر:

- يؤسفنى ألا تلبى دعوتنا، ولكن لا تبدد قوتك فى لا شىء..

٩

اقترب من الخلاء المشارف للحقول فتبدى له مقهى «الأمراء» فى

عزلته ورثاثته. حجرة حجرية يتقدمها فناء ترابى مسور بالصبار. بدا كالخالى بعد أن تخلى زبائنه الأصليّون عنه، وقف فى الفناء المهجور فلمحه الحنش ـ العجوز الأحدب ـ وسرعان ما هرع إليه مرحبا وقلقا فى آن. جلس محمد وهو يشير للكرسى المقابل داعيا العجوز للجلوس وهو يقول:

ـ لا تقدم شيئا، لى معك حديث يا حنش.

جلس الحنش، لم يزايله القلق. قال:

ـ لم أرك منذ زمن، آخر مرة كنا فى عاشوراء.

ـ أذكر ذلك.. ولكن أين أصحابنا؟

أخذ يطمئن نوعا ما فقال:

ـ ذهبوا ولم يرجعوا.. اختفوا تماما..

رماه بنظرة طويلة وقال:

ـ عرفت ذلك، ولكن أين ذهبوا يا حنش؟

ـ الله وحده يعلم.

ـ ولكنك تدرى أشياء ولا شك..

ـ هل وقعت حوادث نشل؟

ـ كلا.

ـ ماذا يهمك من أمرهم بعد ذلك؟

ـ هذا شأنى يا حنش.

ـ والله..

فقاطعه بنبرة آمرة:

ـ هات ما عندك..

اطمأن العجوز تماما وشعر بأهميته، قال:

ـ لقد أقلعوا عن النشل، غدا سيختفى اللصوص جميعا . .

ـ هات ما عندك . .

فضحك العجوز عن فم خال وقال :

ـ أنت السبب يا حضرة الضابط . .

ـ ذلك بالنسبة لزعتر النورى . إنى أسأل عن الآخرين . .

ـ قيل إن زعتر ذهب للقاء الرجل الذى نشله .

ـ أعرف ذلك طبعا .

ـ وإذا بالحال يتغير تماما، لم يعد عتريس النورى إلينا . . انتظروا، انتظروا طويلا ولكنه لم يعد وكادت جلجلة تجن . .

ـ ثـم؟

ـ ظنوا أنه قبض عليه . . أخذوا يتناسونه . . حتى جلجلة بدأت تستجيب لعشاق آخرين . . حتى كان يوم . .

وسكت الرجل ليشحن الضابط بالشوق . فقال هذا باستياء :

ـ استمر يا عجوز .

ـ كانوا فى الداخل يقامرون حين دخل فجأة سمسون العفش مضطربا بفرحة طاغية، لوح لهم بحافظة نقود فاخرة وتساءل : «لمن هذه؟» فأجابه أحدهم متفكها : للسفير الأمريكى، ولكنه قال بهدوء : إنه عتريس النورى . ملكهم ذهول شامل . أقبلوا نحوه فى مقدمتهم جلجلة . أقسم لهم على صدقه . أين هو؟ لماذا لم يعد؟ وكيف نشلته؟ وراح الرجل يقول : رأيته فى ميدان رمسيس . كان يغادر سيارة . ليس عتريس الزمان الأول . شخص آخر تماما، أى وجاهة وأبهة، شككت فيه طويلا حتى عرفت مشيته وسمعت صوته . إنه عتريس النورى . ماذا حصل له؟ كل شىء تغير حتى جلده . تغير لونه أيضا كأنه نقع فى الماء عاما . هل استولى على ثروة الرجل

الذى دعاه ليكافئه؟ هل نشل البنك الأهلى، وهو يقصد دكان غيار؟ إنه محترم ابن الدايخة. فى الحال رسمت خطة لنشله، نشلته فى الدكان. هذه هى الحكاية. وصاحت جلجلة: الخائن ابن الخائنة. أين يقيم؟ ماذا يعمل؟ ولكن سمسون العفش لم يكن لديه مزيد. وصاحت جلجلة: الخائن ابن الخائنة. أين يقيم؟ ماذا يعمل؟ ولكن سمسون العفش لم يكن لديه مزيد. وصاحت جلجلة: لابد من العثور عليه.. وأكثر من صوت صاح: لن يفلت ولو اختبأ فى جبال الواق الواق. وفيما هم يتبادلون الرأى إذ بدا عتريس النورى فى مدخل الحجرة وهو يرمقهم بنظرة ثقيلة محتدمة بالسباب والسخرية.

وسكت العجوز ليستريح ويسعل ما شاء له السعال، فصبر محمد فوزى حتى استطرد:

- دخل منفوخا بالأبهة. تبادلوا النظرات فى صمت هادئ حتى خرقته جلجلة متسائلة:

- من سعادة الباشا القادم؟

فقال بهدوء:

- الحافظة أولا ثم نتكلم.

فسأله سمسون العفش:

- عن أى حافظة تتكلم؟

فثقبه بنظرة من عينيه الحادتين وقال:

- هو أنت يا بن الخائنة! قلبى قال لى..

فقالت جلجلة:

- قلب المؤمن.

فقال زعتر لسمسون:

ـ الحافظة واعتذر لعمك.

ـ أنت خـــائن!

ـ زعتر خائن!

ـ أين كنت؟.. تقطعنا للنقود.. من أين لك هذا؟

ـ العمل الشريف!

هزت جلجلة وسطها وهتفت:

ـ ادعوا له.. ادعوا له..

ـ العمل الشريف.. عمل الناس الأجلاء.. هات الحافظة.

ـ أقسم لك بشرفى..

قاطعه مقهقها:

ـ احتفظ بشرفك وهات المحفظة.

فقال سمسون بتسليم:

ـ لى مكافأة!

ـ دع ذلك للنساء، هات الحافظة لنتكلم فى المفيد!

فرمى بها إليه سمسون وهو يقول:

ـ نار فى جثة الخائن..

ـ الله يسامحك.. كان فى خطتى أن أزوركم فى الوقت المناسب..

فتساءلت جلجلة:

ـ وما الوقت المناسب؟

ـ هو وقت الخير لا يتقدم ولا يتأخر.

ـ ومتى يجىء؟

ـ عما قريب جدًّا.

ـ ما هو العمل؟

- تجارة . . بضائع تجىء من أوروبا . .

- تهـــريب؟!

- الصبر . . موعدنا بعد شهر واحد . .

وفى الميـعاد يا حضــرة الضــابط ذهبـوا جـميعــا لم يرجــع منهم أحد .

ترامقا صامتين، ثم تساءل الضابط :

- أين هم الآن؟

فقال العجوز بقلق :

- إنهم خارج منطقتك . .

- نعم . . هل تعلمنى واجبى؟ أين هم الآن؟

- إنهم يعملون فى ضوء النهار وتحت حماية الشرطة . .

- ألم أقل لك إنك تعرف أشياء كثيرة؟

فضحك العجوز وتساءل :

- ألم تسمع عن سوق ليبيا؟

- كـــلا .

- إنه فى القلعة يا حضرة الضابط .

١٠

يموج سوق ليبيا بالخلق والحركة والأصوات . يغمره ضوء الكُلُبات الأحمر المدلاة من رءوس أعمدة مغروسة فى الأركان .

أمـواج تتـلاطم من النسـاء والرجـال مـصبـوغـة الوجـوه بالأضـواء

المركزة. قال الضابط إنهم اختاروا مكانا مناسبا بين القلعة والمساقى القديمة. وتابع بعينيه الأكشاك القائمة فى محيط السوق مكتظة بالصابون والقوارير والعلب والبرطمانات والأدوات الكهربائية والإلكترونات. وراء كل كشك صفت الفريجيديرات والسخانات ومكيفات الهواء والنجف فى سرادقات، بهر الضابط بألوان البضائع، بجنون البيع والشراء، بالمهد الذى يلد أناسا جددا. ها هى ذى وجوه العصابة التى اختص دهرا بمراقبتها. خلقوا من جديد. إنهم يرمقونه بدهشة لا تخلو من قلق ثم ينسونه تماما. الشرطة تحفظ الأمن. والنشالون أصواتهم مرتفعة. سيختفى اللصوص ويستغنى بالتالى عن رجال الأمن! ما علاقة زغلول رأفت بهذا كله؟ أصبح هؤلاء من الأغنياء، أما هو وأضرابه فيغوصون فى غمار الفقراء. ها هو ذا زعتر، محمد زغلول أستغفر الله. معه جلجلة فى كشك واحد. وجم الرجل عندما رآه. ها هو ذا يقبل نحوه مرحا مرحبا.

- أهلا محمد بك.. خطوة عزيزة!

- أهــلا بك..

- انتقلت إلى منطقتنا؟

- كــلا.

- جئت للشراء؟

- للفرجـــة.

فتحت له جلجلة علبة كوكاكولا مستوردة وقدمتها مبتسمة، قال:

- شكرا، لا أحبها.

تناولها زعتر وراح يشرب قائلا:

- إنى أعرف ما يحرجك! لعلك سررت بما ترى، تاب الله علينا!

ـ حقّا؟ من النشل إلى التهريب؟

فضحك زعتر قائلا:

ـ عملنا مشروع، انظر إلى الشرطة، نحن تجار، أناس يحتجون إذا الفقراء اغتنوا..

ـ الحال معدن..

ـ سمسون دفع أمس خلو رجل لا يستهان به وأصبح من سكان المنيل!

وقالت جلجلة:

ـ عندنا بضائع تجنن.. شاهد بنفسك..

فقال فى هدوء:

ـ لست فى حاجة إلى شىء..

فسأله زعتر بقلق:

ـ لِم شرفتنا؟

ـ العلم بالشىء ولا الجهل به..

ـ اسمع يا حضرة الضابط، ما كان تهريبا أصبح بفضل الانفتاح تجارة مشروعة..

فضحك محمد فوزى ولم ينبس فواصل زعتر:

ـ سيكون أبناؤنا ضباطا ووكلاء نيابة..

ـ ولِم ترجعهم إلى الفقر؟

فتمادى الآخر فى حماسه قائلا:

ـ ماذا كان الأمراء والباشوات قبل أن يصيروا أمراء وباشوات؟.. كانوا لصوصا، فنحن أصل الوجود يا محمد بك.. ولكن أناسا يكرهون أن يفعل أبناء الشعب مثل الأمراء والباشوات..

ـ يا لها من آراء!

ـ دعنا من هذا كله . . ألا يلزمك فريجيدير؟ . . معصرة؟ . . ريكوردر؟ . . مقويات؟ كل شيء تحت أمرك، ومن غير فلوس . .

ـ إنك لكريم ولكنى لا أريد شيئا . .

فمدت جلجلة عنقها بدلال وإغراء وتساءلت :

ـ ألا يعجبك شيء؟

فتساءل الضابط :

ـ هل تزوجتما؟

فقال زعتــر :

ـ كلا . . إنها تهددنى بالقتل . .

ـ لـم؟

ـ رأيى أنه يجب أن أتزوج من أسرة! . . وعليها هى أن تبحث هى أيضا عن عريس لقطة . .

قال محمد فوزى لنفسه إنها جميلة، حتى ابتذالها جذاب، ليس فى بيته من يضارعها فى جمالها إلا سهام .

وقالت بهية (جلجلة) :

ـ إنه وغد ويستحق الإعدام .

فقال الضابط :

ـ إنها لمشكلة . .

فقالت جلجلة :

ـ لا أهمية لذلك، المهم أن نقدم لك هدية .

ـ شكرا، لا عودة إلى هذا الحديث .

فقال زعتر :

ـ صدقنى لا يقضى بالفقر على الإنسان إلا عقله .

وقالت له جلجلة :

ـ لو عثرت على رجل قوى مثلك لزهدت فورا فى هذا الوغـد . .

فتجاهل قولها ضاغطا تأثره الباطنى .

فعادت تقول :

ـ إذا لـم تقبـل هـدية مسـتوردة فخـذنى أنا هـدية محـلية . . ما رأيك؟

فقال زعتر :

ـ وتهدينى حلا لمشكلتى معها . .

فسأله محمد فوزى :

ـ هل صادفتك متاعب أيام التهريب؟

ـ لا تكـاد تذكـر ، كل كشـك يكمن وراءه رجل مهم يحـميـه من بعيد . .

ـ لا تبـالغ .

ـ هى الحقيقة ، أنت نفسك رجعت إلى زغلول رأفت ماله الضـائع . .

ـ رجل لا غبار عليه؟

ـ صدقنى ليس فى ثروته مليم حلال واحد . .

ـ ماذا فعل معك؟

ـ وظفنى عنده فى أعمال تهـريب تحتاج إلى جرأة خاصة ، تعلمت أشياء وأشيـاء ، استعـملت بدورى العصابة ، اليـوم العمل كله مشروع . .

وسألته جلجلة :

ـ هل لو كنت فى منطقتنا أيام التهريب كنت قبضت علينا؟

ـ طبعـــا .

ـ رغم الحماية؟

ـ بـــلا تــردد .

فقال زعتر ضاحكا :

ـ يعملها ولو تعرض للنفى ، أنا عارفه .

فقالت جلجلة :

ـ يا لك من حبيب قاس! وهل كنت تقبض على زغلول رأفت؟

ـ ربمــا قبلكم . .

فثنت رقبتها فى مرح وقالت :

ـ ستصبح المدينة بلا لصوص ، ماذا تريد أكثر من ذلك؟

ـ أو ستصبح كلها لصوصا . .

ـ النتيجة واحدة .

وقال زعتر بحرارة :

ـ بودى أن أغرقك فى السعادة!

فتمتم فى فتور :

ـ شـــكرًا . .

تصافحا ، هتفت جلجلة مخاطبة زعتر :

ـ قل له إنى مستعدة أن أوصله بسيارتى إلى أى مكان . . لوح لهما مودعا ومضى .

١١

ما معنى ذلك؟ ها هو ذا العبث يتأبط ذراعه متدثرا بالبسمات

الحمراء. لاحظ الضابط أن صوت مرافقه مبحوح مثل صوت الحنش. سأله عن السبب فأجاب بأن صوته بح من كثرة الخطب، ولأنه يؤذن كثيرا داعيا المصلين إلى سوق ليبيا، وأشار إلى الشجرة الضخمة تتوسط الميدان الصغير فى شارع البرج، وقال للضابط:

- أى ضخامة، ما عمرها؟ ستعيش بعدك طويلا، إنها لا تعرف القيود، تحيا حياة مطلقة.

وأشار أيضًا إلى كلبين يتلاعبان وتمتم:

- يعيشان مثل الشجرة، حياة مطلقة، لا يعرفان الضمير ولا يخافان الموت..

فقال الضابط:

- ولكنه الإنسان، وحده.

- حماقة مقنعة بالجلال!

- الجـــلال!

- هو السجن.

- لكنه الإنسان، لا يعرف ذلك إلا الإنسان. ألا يعنى ذلك شيئًا؟

- لا يعنى شيئا.

- هو وحده.

- الإنسان الحقيقى مثل الشجرة، مثل الكلبين..

- إنه وحده، هنا يكمن سره.

- هبك مشرفا على الغرق ولا نجاة لك إلا بالتضحية بآخر، ماذا تفعــل؟

- ساعة الغرق يسيطر الحيوان.

- هذه هى الحياة..

ـ كلا، إنها جريمة يجب التكفير عنها.

ـ هل تعرف الجريمة بالفطرة؟

ـ كفى، على أحدنا أن يتلاشى.

* * *

تهبط النقود بلا حساب فى ميدان ليبيا، السماء تمطر هدايا. بالوقاحة تصان الهيبة.

طيب، ها قد تغير كل شىء، ستسيطر على الحياة بدل أن تسيطر هى عليك. تتحسن علاقات الكائنات. تستقل سناء ببيتها ثم تنتقل إلى بيت أفضل، يتورد مستقبل أمل وسهير ولمياء. تغدق البركة على سهام وزهيرة. تنطلق سيارة بالأسرة يوم العطلة. الفضلاء يعملون بالرذيلة، الأرذال يحلمون بالفضيلة.

* * *

كان بالنادى عندما رأى زغلول رأفت قادما نحوه. انتحى به جانبا فجلسا فى جانب من الحديقة.

ـ فقدت شيئا ثمينا؟

فقال زغلول باهتمام:

ـ كلا، الأمر أجل..

ـ ماذا فعلت بزعتر؟

ـ كافأته بعمل شريف مربح.. ولكنه طماع.

فضحك محمد فوزى وسأله:

ـ ما عدد الأعمال الشريفة فى نظرك؟

فقال باهتمام متزايد:

- محمد بك . . إنى هنا لغرض مهم . . إنك رجل شريف . . صاحب جميل . . حسن . . علىَّ أن أرد الجميل . .

- خيــر؟

- الأمر يتعلق بزعتر .

- ســرقك؟

- كلا . . لكنه شرع فى سرقتك أنت .

- مـاذا تعنى؟

- الأمر يتعلق بكريمة أختك . .

فقطب محمد فى حيرة شديدة :

- كريمــة أختى؟

- إنه يحـوم حـولهـا . . يحـوم حـولهـا باعتبـاره الوجيـه محـمـد زغلول . .

تغير وجهه تماما . ارتفق الخوان بساعديه متسائلا :

- مـاذا؟

- إنى على يقين مما أقول . .

- كريمة شقيقتى آية فى العقل والأخلاق . .

- لم أقل خلاف ذلك .

- لو تعرض لها بإساءة لشكته إلى . .

- لا يتعرض لها بما يسوء . . إنه يحوم حولها كرجل شريف .

- الوغــد .

- خفت أن تخدع الفتاة به ونحن لا نملك قلوبنا .

- شكرًا لك تحذيرى .

١٢

بدا محمد فوزى كئيبا متجهما. من أول نظرة لاحظت ذلك سناء وزهيرة وسهام. أما الصغيرات فيئسن من ملاعبته. . ونطق بنبرة مفعمة بالغضب:

- سهام.

نظرت إليه الفتاة بذهول فقال:

- ما هذا الذى يقال عنك؟

وسكت من شدة الانفعال، ثم قال بازدراء:

- عن رجل له مظهر الوجهاء يدعى أن اسمه محمد زغلول. .

فقالت زهيرة:

- لا شىء يستحق الغضب يا أخى.

وتمتمت سناء زوجته:

- فعلا.

فتساءل بحدة:

- آخر من يعلم؟

فقالت سناء:

- إنه رجل غنى. غرضه شريف، لم تخف سهام عنا شيئا.

قالت زهيرة:

- لم أرد أن أزعجك قبل أن أتحقق بنفسى، وافقتنى سناء على رأيى،

قالت لى سهام إنه رجاها أن يحدثها، ذهبت إليه بنفسى لأقول له إن الطريق الوحيد أن يحدثك أنت.

- ماذا قال؟

- قال إن ثمة سوء تفاهم بينكما قد يخيب رجاءه.

- أكان فى نيتك أن تزوجيها من وراء ظهرى؟

فقالت سناء:

- اتفقنا أن أحدثك ولكنك سبقت!

فنظر إلى سهام متسائلا:

- هل أعجبك؟

فقالت زهيرة:

- إنى أبحث عن حل يرضى الجميع.

أدرك أبعاد الموقف. أدرك أيضا دور زوجته التى تحلم بالتخلص من زهيرة وسهام. ضحك بمرارة وقال:

- ما هو إلا نشال قضى فى السجن عامين!

فوجمن فى ذهول. تذكر هو يوم رآه رابضا فى البستان تحت البيت. قال بأسى:

- لقد رويت لكم حكاية سوق ليبيا، وحكاية زعتر النورى، محمد زغلول هو زعتر النورى!

قرأ وجوههن بنظره الثاقب. سهام يغمرها شعور بالنجاة. زهيرة مطبوعة بالخيبة. سناء مغيظة محنقة ولكن قضى عليها بالهزيمة. تمتمت زهيرة:

- ما تصورت ذلك قط!

فقال بسخرية:

ـ هو هو لم يتغير إلا مظهره، كان لصا غير قانونى فأصبح لصا قانونيا .

١٣

التقت عيناه بعينيه رغم الضجيج والزحام. رسالة خفية سرت منه إلى الآخر. غادر موقفه أمام الكشك نحوه. بدا أنه استشعر الجو كله. قال بتسليم :

ـ قلب المؤمن دليله .

سار محمد فوزى خارجا من نطاق السوق والآخر يتبعه حتى وقفا تحت جدار القلعة الشاهق، وعند ذلك هتف به الضابط :

ـ إنك وغد كالعهد بك . .

فتمتم وهو يواجهه بثبات :

ـ الحلم سيد الأخلاق .

ـ كيف تسول لك نفسك التعرض لبنت أختى؟

ـ بالشرف تعرضت لها . .

ـ لا تنطق بهذه الكلمة يا زعتر .

ـ محمد زغلول .

ـ كذاب .

ـ هذا كل شىء .

ـ سأعتبر الموضوع منتهيا وحذار .

ـ محمد بك . . ربنا قبل التوبة .

- أنت لص لا أكثر ولا أقل .

- إنى رجل شريف وغنى ومن حقى أن أفتح بيتا شريفا .

- اللعنة على شرفك المزعوم .

- لا داعى للغضب .

- فلينته كل شىء ، إنى أكره الاستمرار فى هذا الحديث .

وتركه دون تحية .

١٤

أول ما صنعه أن كلف مخبرا بمراقبة زعتر . وانهمك فى العمل أكثر وأكثر لينسى هموم المطاردة . وقال لنفسه : «سأبقى شريفا ولو لم يبق فى الحكومة سواى» . ولم يترك طويلا للنسيان فقد زاره فى النادى من جديد زغلول رأفت . فى ذلك المساء رجع إلى بيته بالسكاكينى متفكرا ولكن يصاحبه أمل جديد . وبدا وسط قبيلة النساء مرحا . وقال :

- عريس له وزنه يطلب يد سهام .

فتطلعت إليه الأبصار ، وقالت سناء بنغمة أمل واضح :

- ما أكثر العرسان!

فقال بهدوء :

- هذه المرة زغلول رأفت . .

فبادرته سهام :

- قلت إنه لص أيضا يا خالى . .

- لا أنكر ، رددت ما سمعته من لص محترف ، ولكن لا دليل على ذلك .

ـ لن يغير ذلك من الواقع .

فقالت سناء :

ـ فرق بين النهار والليل ، إنه رجل شريف برأى الجميع . .

وقال محمد فوزى :

ـ عرفته ثريا ومن رجال البر . .

فقالت سناء :

ـ رجل له وزنه حقّا ، وهو الحلم المطلوب . .

فقال محمد :

ـ إنه فى الأربعين ، أرمل ، ولا أولاد له .

ـ عز الطلب ! لا خير فى الشبان .

ونظر محمد فوزى إلى سهام وسألها :

ـ ما رأيك ؟

ونظرت إليها أيضا زهيرة كأنها تستوهبها الموافقة ، ولكنها لاذت بالصمت حتى ضاقت سناء بصمتها فقالت :

ـ من واجبك أن تكونى سعيدة !

فقالت سهام بنبرة متوترة :

ـ صبركم حتى أجد عملا ، عند ذاك سأذهب أنا وماما !

فقال محمد مقطبا :

ـ قول غير لائق . .

واجتاح الغضب سناء فهتفت :

ـ جئناك بالسعادة حتى موطئ قدميك ولكنك مازلت تحلمين بالمستحيل . إنها فرصة لا تتكرر ، وأنا بصراحة لم يعد بى صبر !

وقال لها محمد معاتبا :

ـ ســنـاء!

فصاحت بصوت يهدر بالغضب:

ـ دعنى أنفس عما فى صدرى.

فقالت زهيرة:

ـ أعطـونا فرصـة، سـهام ذكية وتفهم كل شىء، ستسير الأمور كما نود.

١٥

أبلغ الضابط زغلول رأفت بموافقة الأسرة. كان التفاهم بين الرجلين كاملا. لم يترك صغيرة ولا كبيرة. اطمأنت سناء تماما إلى أن زوجها لن يغرم مليما واحدا وأن حلمها يتحقق بكل أبعاده. وتصدى محمد فوزى لموجة امتعاض زاحفة فى أعماقه بأن جعل يؤكد لنفسه شرف العريس، ويقول لضميره القلق: «إن أحدا لم يتهمه فى شرفه إلا الوغد زعتر». أجل. لقد تصرف مع سهام بطريقة قاسية. فما من شك فى أن الموافقة انتزعت منها على رغمها. غير أنها ستحظى بالسعادة والجاه. إنه قرار حكيم وستثبت الأيام صدقه وإخلاصه.

وسارت الأمور فى سبيلها المرسوم حتى خرجت سهام ذات يوم إلى زيارة قريبة ولكنها لم تعد!.. طال الوقت وغرق الانتظار فى مستنقع الشك القاتل. تحرى عنها فى جميع مظانها ولكن لم يسمع لها عن خبر. تجسد واقع لم يخطر لأحد على بال. تقوض البنيان كله وتلاشت الآمال مخلفة الرعب والأسى. جنت سناء كما جنت زهيرة، أما محمد فقد ثار ثورة هائلة. قصد من توه رفعت حمدى ولكنه وجده على حال يرثى لها، صاح به غاضبا:

ـ إنك مسئول عما حدث. أنت . . أنت المسئول الأول!

وفى الحال استغل الضابط خبرته فى الخدمة وإمكاناته الغزيرة فى البحث عن المختفية، ولكن مرت الأيام تباعا دون نتيجة.

ورن التليفون فى بيته ساعة الغداء عند اجتماع الأسرة فتناول محمد السماعة:

ـ آلـــو . .

ـ أنا سهام يا خالى . .

ـ سهام. أين أنت؟

ـ أكلمك من الإسكندرية.

ـ ماذا تفعلين هناك؟

ـ إنى أعمل . . وبخير . . اطمئنوا أريد ماما أن تلحق بى.

ـ أعطنى عنوانك أريد أن أقابلك.

ـ ممكن أحضر بنفسى.

ـ وماذا يؤخرك؟

ـ عدنى أن تلقانى بهدوء واحترام.

ـ لك هذا يا سهام.

ـ سأحضر غدا.

ـ احضرى الليلة أرجوك.

ـ ليكن . . إلى اللقاء.

* * *

أقبلت عليهم فى ثبات كأنما قد نضجت فى أيام غيابها أعواما. تلقتها أمها باكية. تساءلت سناء:

ـ ماذا فعلت بنا يا سهام؟

وقال محمد بهدوء :

ـ آخر ما كان يتوقع منك .

فقالت باسمة :

ـ الدفاع عن النفس حق مشروع .

ـ ليس بهذه الوسيلة .

ـ الأفضل أن تسمعوا حكايتى . .

صمتت مليا لتجمع شتات أفكارها ثم راحت تقول :

ـ بلغ منى اليأس مداه، صممت على التحدى والانتقام . قلت إنهم يريدون أن يزوجونى من لص مغطى آخر . سأتزوج من اللص المكشوف . وذهبت إلى محمد زغلول أو محمد النورى .

صاح محمد فى جنون :

ـ كــلا .

ـ هو ما حصل، كنت يائسة عمياء، رأيت فى كشكه امرأة جميلة فلوحت له من بعيد فجاءنى وهو لا يصدق عينيه، فقلت له أريد أن أحدثك حديثا مهما . أخذنى فى سيارته إلى مدينة المقطم . فى مكان شبه خال يطل على القاهرة . كان من العسير جداً أن أبدأ ولكن كان لابد أن أبدأ، سألته : ألا زلت تريدنى؟ أجاب ذاهلا بالإيجاب . فقلت له : إنى موافقة . سألنى : هل أفضيت برغبتك إلى محمد بك أو والدتك؟ أجبت بالنفى . سألنى ماذا دفعك إلى المجىء إلىَّ؟ . . فقلت له إنى لا أريد استجوابا، وإنى مستعدة وكفى . قال : إنى رجل لا يهمنى شىء، لا يهمنى خالك نفسه . . أستطيع أن أفعل ما يحلو لى . . ولكن لابد أن أعرف ما حملك على المجىء . . قلت لا جواب عندى . . واتركنى إذا شئت . قال : إنى أعرف أن الوغد زغلول خطبك . . هذه هى المسألة . . ما

قـولك؟ . . قلت إنى أرفض الاسـتـجـواب . قـال : يبـدو أنك لا توافقين عليه . . ربما لسنه وسوء سمعته . . إن ما جاء بك إلىَّ هو الرغبة فى الانتقام أو الرغبة فى الانتحار . فلم أحر جوابا ولمعت عيناى ، قال إنك عنيدة مثل جلجلة . . إنى أحب هذا . . ولكنى لا أعـرف العـبـودية فى الحب . قلت إذن فلنرجع . قـال : أرفض أن أجعل من نفسى أداة انتقام فى يدك . قلت : إذن فلنرجع . قال إن هذا يعنى أن أسلمك للوغد زغلول رأفت . . كلا . . قد وقعت فى شبكة من المنافقين واللصوص ، ومن الشهامة إنقاذك . قلت : ولكن كيف؟ قال : خالك يحسبنى شيئا قذرا . . كلا أنا لم أخن زميلا فى حياتى . . حتى جلجلة فإنى مرتبط بها رغم شبعى منها . . وقد جعلت عصابة من النشالين عصبة من الأعيان . . معجزة تحتاج لثـورة كـاملة . . وإنى أرفض أن يسـتـعـملنى أحد أداة انتـقـام . . ولكننى سأنقذك . . خالك رجل فقير لأنه شريف . لذلك يهمه أن يتـخلص منك على خـيـر . . لذلك وافق على تسليـمك للص قـانونى . . اسمعينى جيدا . . أنت متعلمة . . سألحقك بعمل يحفظك من المنافقين واللصوص .

سـاد صـمـت تجـلى فـيـه صـوت الأنفـاس المتـرددة . . ثـم تساءلت أمها :

ـ أى عمـل؟

ـ موظفـة فى كـشك يملكه فى الإسكندرية بأجر بسيط ونسـبـة فى الأرباح .

ـ أهو يكفيك يا بنتى؟

ـ فوق الكفاية يا ماما . . لابد أن تأتى معى . . ستجدين حياة معقولة جدًا .

وقالت سناء :

- إنه رجل مذهل .

استمر الحديث بعد ذلك ولكنه - محمد - لم يتابعه . غرق فى أفكاره بعمق وحزن وذهول . أى هزيمة منى بها؟ . . إنه يتلاشى من الوجود ويحسن به أن يتوارى عن الأعين . وغادر الشقة صامتا . ولما اقترب من ضجيج السوق أثارت الأصوات فى صدره شجنا ثقيلا . ولمحه زعتر فهرع إليه متهللا . تصافحا . وقفا يترامقان فى صمت طال حتى ضاق به محمد فتمتم :

- شكرًا لك يا زعتر .

فقال الرجل ضاحكًا :

- محمد زغلول من فضلك .

فقال محمد فوزى بهدوء ويقين :

- زعتر النورى ، اسم طيب لرجل طيب! . . ماذا يخجلك منه؟!

السماء السابعة

١

سحابة معتمة تقتحم الوجود وتنغمس فى الفضاء. كل شىء يموج بحضور كونى غريب، لا شبيه له من قبل، يحلل الكائنات إلى عناصرها الأولى، ينذر بالعدم أو بخلق جديد. رغم ذلك مازال يملك وعيا بما يحدث، أو أنه يعيش اللحظات الأخيرة من الوعى. سيطر عليه شعور فائق الإلهام إنه يشهد ما لم يشهد من قبل ولكنه مازال رءوف عبد ربه. رءوف عبد ربه بلا خوف ولا وساوس ولا مبالاة. يقف خارج أسوار البوابة التاريخية، فى الخلاء، فى الظلام، بلا وزن ألبتة. هو والصديق عانوس قدرى راجعان من سهرة الليل، أين أنت يا عانوس؟. . لا يسمع صوتا، لا يحس بمس الأرض، وثمة شعور عجيب بانعدام الوزن، والغوص فى السحابة المعتمة المقتحمة. وعندما ينادى صديقه لا يند عنه صوت، إنه موجود وغير موجود. وهو حائر ولكنه غير خائف. وقلبه يتوقع إجابة قريبة وصريحة. وترق السحابة وتمضى فى التلاشى. ويقف التموج ويختفى. عند ذاك تتضح ظلمة الليل المشعشعة بإشعاعات النجوم. أخيراً تتراءى يا عانوس. ولكن ماذا تفعل؟ ثمة أناس يحفرون فى الأرض حفرة بهمة ونشاط. وثمة شاب مطروح على ظهره ينزف الدم من رأسه. إنه يرى ذلك بشىء من الوضوح أكثر مما تسمح أضواء النجوم. يا للعجب! ما الشاب المطروح إلاه، رءوف عبد ربه نفسه. إنه أنا دون غيرى وهو منفصل عنه

تماما، يراه من بعد قريب. ليس شبيها به ولا توءم له، إنه جسمه، وهذه بدلته، وهذا حذاؤه. عانوس يحثهم على العمل، لا يراه ألبتة، فيما يبدو، يظن أن الجسم المطروح يحوى بالكامل صديقه رءوف لا يفطن إلى الكائن الذى يراقبه بلا انفعال. أدرك أنه غير مرئى مثل جسده المطروح. هل انقسم إلى اثنين؟ هل غادر الحياة؟ هل قتل وعانى الموت؟ قتلتنى يا عانوس؟ ألم نقض معا سهرة ممتعة؟ متى شرعت فى قتلى؟ كيف هانت صداقتى عليك لتستأثر برشيدة؟ ألم تقل لى بأنك ستعتبرها شقيقة لك من الآن فصاعدا؟! ها هم أولاء الرجال يحملون جثتى ويرمون بها فى الحفرة. ها هم أولاء يهيلون عليها التراب ويسوون سطح الأرض. عاد وجه الأرض إلى صورته المألوفة وغاب رءوف عبد ربه كأنه لم يكن. ولكننى موجود يا عانوس. أحسنت صنعا بدفن أداة الجريمة الصلبة. زال كل أثر. لماذا أنت متجهم هكذا؟ أين نظرة عينيك الساخرة؟ أعترف لك ـ ولو أنك لا تسمعنى ـ أننى طالما أحببتها. أتظن أن علاقتنا انقطعت وانتهت؟ الصداقة أقوى مما تظن. حتى الموت يعجز عن محقها. كذلك الحب. رشيدة لى أنا وليست لك ولكنك متهور وسيئ التربية. نشأت فى محيط أبيك المعلم قدرى الجزار. محتكر اللحوم، ناهب الفقراء والمساكين، راشى الرجال وشارى الذمم، فلقنك أن تطمع فيما ليس لك وأن تناله بقوة الجريمة.. ماذا أنت فاعل الآن؟ لم يكن يطيب لك الجلوس فى المقهى بدونى، ولا المذاكرة، ولا الذهاب والإياب من الجامعة، أكبر صديقين فى الحارة رغم الفارق اللانهائى فى المال والجاه والسطوة. فإن نسيتنى أنت فما أنا بناسيك. واعلم بأننى لا أحمل نحوك رغبة فى الانتقام أو حتى الإيذاء، لقد دفنت جميع هذه العواطف والانفعالات فى الحفرة مع جثتى، حتى العذاب الذى تعانيه حارتنا من ظلم أبيك وأمثاله لا ينعكس الآن فى صدرى غضبا وحنقا وحقدا وثورة، ولكنه صورة شائعة مرفوضة بقوة الحب، ويشكل رغبة

سامية مبرأة من الأوشاب لتغييرها تغييرا كليا. إنى أرثى لك يا عانوس. لم أرك فى هذه الصورة القبيحة من قبل. إنك هيكل عظمى تسكنه الخفافيش. الدم المسفوك يلطخ وجهك وجبينك. عيناك تقدحان شررا وتتدلى من أذنيك حيَّتان. رجال أبيك يسيرون خلفك على حوافر حمير وبرءوس غربان يرسفون فى أغلال مغروسة بالشوك. إنه ليحزننى أن أكون السبب المباشر لتشويه صفحتكم لذلك يغشانى الأسى وتفتر فى أشواق البهجة!

٢

من خلال تنهدة وجد نفسه فى مدينة جديدة. تضىء بلا شمس مشرقة. مسقوفة بالسحب البيضاء. أرضها تنضح بالخضرة على هيئة أزهار وفواكه، تتخللها على مدى لا نهائى أكواخ بيضاء كالورد، وثمة جموع تتلاقى وتفترق فى خفة الطير. وجد نفسه فى بقعة خالية. عانى غربة الوافد الجديد. وعلى حين فجأة تجلى أمامه رجل يتدثر بسحابة بيضاء. ابتسم إليه وقال:

- أهلا بك يا رءوف فى السماء الأولى!

فهتف رءوف بفرحة متألقة:

- هى الفردوس؟

- قلت السماء الأولى لا الفردوس..

- إذن فأين الفردوس؟

- بينك وبينها طريق طويل يقطعه سعيد الحظ فى مئات الألوف من السنين الضوئية!

فند عن رءوف صوت كالأنين فقال الرجل:

- دعنى أقدم لك نفسى أولا ، محدثك آبو الذى كان يوما كاهن طيبة ذات المائة باب .

- تشرفنا يا سيدى ، من حسن الحظ أنى مصرى مثلك .

- لا أهمية لذلك ، لقد فقدت هذه الجنسية منذ آلاف السنين ، وإنى الآن موفد كمحام للدفاع عن القادمين الجدد .

- ليس ورائى تهمة ولكننى شهيد .

- صبرا ، دعنى أحدثك عن موطنك الجديد ، هذه السماء تستقبل الوافدين الجدد ، فيها يحاكمون وأتولى أنا الدفاع عنهم . الأحكام تتراوح بين البراءة والإعدام . فى حال البراءة يقضى البرىء عاما واحدا هنا يتأهل فيه روحيا للصعود إلى السماء الثانية . . .

فقاطعه رءوف متسائلا :

- لكن ما معنى الإعدام؟

- معناه أن يقضى عليه بأن يولد من جديد فى الأرض ليمارس الحياة مرة أخرى لعله يلقى قدرا أكثر من النجاح ، أما ما بين البراءة والإعدام فيقضى على المتهم عادة بأن يعمل مرشدا روحيا لشخص أو أكثر فى الأرض ، ويكون صعوده إلى السماء الثانية رهنا بتوفيقه أو تمد مدة تجربته وهكذا . .

قال رءوف باطمئنان :

- على أى حال فإنى واثق بالبراءة فقد عشت طيبا ومت شهيدا . .

فابتسم آبو وقال :

- لا تتعجل ، ولنبدأ الحديث فى قضيتك . . أخبرنى بهويتك؟

- رءوف عبد ربه ، السن ثمانية عشر عاما ، طالب تاريخ بالجامعة ، يتيم الأب ، أمى أرملة تعيش على منحة خيرية من الأوقاف .

- لماذا أنت راض عن نفسك هكذا يا رءوف؟

- رغم فقرى الشديد فإنى طالب مجتهد يحب العلم ولا يكف عن النهل منه .

- جميل هذا من ناحية المبدإ، ولكنك كنت تتلقى كثيرا وتفكر قليلا .

- التفكير يكتسب بالعمر والمران، وعلى أى حال لا يعد ذلك تهمة؟

- هنا يحاسب الإنسان على كل شيء، ألاحظ مثلا أنك كنت تبهر بالأفكار الجديدة .

- للجديد سحره يا سيد آبو .

- أولا لا تقل سيدى، ثانيا نحن لا نحاسب على التفكير ولو كان خاطئا، ولكننا ندين التسليم بأى فكرة ولو كانت صحيحة .

- إنها محاكمة قاسية، العدل فى الأرض أرحم!

- ننتقل إلى العدل، كيف وجدت حارتك؟

- بشعة . . أكثرها فقراء متسولون . . يسيطر عليها فتوة يحتكر الغذاء . . اشترى شيخ الحارة . . يسرق ويقتل ويعيش مطمئنا فوق القانون .

- إنه وصف دقيق، ماذا كان موقفك؟

- الرفض والتمرد والرغبة الصادقة فى تغيير كل شيء .

- تشكر . ماذا فعلت لتحقيق ذلك؟

- لم يكن بوسعى أن أفعل شيئًا!

- وتريد أن تصعد إلى السماء الثانية؟

- لم لا؟ كان عقلى وقلبى رافضين لما يجرى .

- ولسانك؟

- لو نطق بحرف متمرد لكان جزاؤه القطع .

- ولكن حتى الكلام وحده لا يرضى محكمتنا المقدسة!

- يا لها من محكمة! وهل كنت إلا فردا وحيدا؟!

- حارتنا مكتظة بالتعساء.

- واجبى الأول كان تحصيل العلم.

- الأمانة لا تتجزأ ولا عذر عن التخلى عنها.

- ألم يكن من المحتمل أن يؤدى ذلك إلى العنف؟

- لا تهمنا الصفات، ما يهمنا هو الحق!

- ألا يشفع لى أنى قتلت فى سبيل الحب؟

- حتى هذا لا يخلو من عنصر فى غير صالحك.

فتساءل رءوف بدهشة:

- أى عنصر هذا؟

- إنك منحت عانوس ثقتك وهو صورة من أبيه الطاغية!

- لم أتصور أننى مذنب لهذا الحد؟

- ثمة ظروف مخففة ولكن مهمتى فى الدفاع عنك ليست يسيرة.

- هيهات أن يظفر أحد بالبراءة فى ساحة هذه المحكمة.

- صدقت، قلة نادرة أدت واجبها الكامل نحو الأرض.

- أعطنى مثالا أو مثالين.

- خالد بن الوليد وغاندى.

- إنهما نقيضان!

- للمحكمة تصور آخر، والعبرة بالواجب نفسه.

- الآن لم يعد لى أمل..

- لا تيأس، ولا تستهن بخبرتى الطويلة، سأفعل المستحيل لإنقاذك من الإعدام!

- ماذا يمكن أن يقال؟

ـ أقول إنك بدأت بداية لا بأس بها فى ظروف بالغة المشقة، وإنه كان يرجى منك خير لو امتد بك العمر، وإنك كنت محبا صادقا وبارا بوالدتك.

ـ إذن فغاية ما أطمع إليه أن يقضى علىَّ بأن أكون مرشدا روحيا؟

ـ وهى فرصة لاستدراك ما فاتك، فى عالمنا هذا لا يصعد الإنسان إلا بفضل توفيقه فى الأرض.

ـ أيها المحامى الجليل لِم لا ترسلون مرشدا للمعلم قدرى الجزار؟

ـ ما من أحد إلا وله مرشده.

فهتف رءوف بذهول:

ـ وكيف يستمر الشر إذن؟

ـ لا تنس أن الإنسان حر، كل شىء يتوقف فى النهاية على قوة تأثير المرشد وحرية الفرد.

ـ ألم يكن من الخير أن تلغى هذه الحرية؟

ـ قضت المشيئة بألا يقبل فى السموات إلا الأحرار.

ـ كيف لا يقبل فى السماء ولى حارتنا الطاهر الشيخ عاشور؟ إنه لا يمارس الحرية فكل ما يقول أو يفعل من إملاء إلهامه الصادق؟

فابتسم آبو وقال:

ـ ما هو إلا صنيعة لقدرى الجزار، يؤول الأحلام لمصلحته وينقل إليه همسات الضمائر من البيوت التى ترحب ببركته!

فصمت رءوف مغلوبا على أمره. غاب قليلا فى الخضرة اليانعة المزركشة بأكواخ الورود، استسلم للملاحة وعذوبة الجو ثم تنهد قائلا:

ـ ما أتعس أن يجبر الإنسان على هجر هذه الجنة!

فهتف به آبو:

ـ حذار من الرغبة الآثمة فى الهروب من الواجب .

فتساءل رءوف :

ـ متى أمثل فى ساحة المحاكمة؟

فأجاب آبو :

ـ لقد تمت المحاكمة!

فرنا إليه رءوف بدهشة فقال :

ـ تم الاستجواب ومرافعة الدفاع فيما جرى بينى وبينك ، وصدر الحكم وهو يقضى بندبك مرشدا روحيا ، تهانىّ!

٣

تقرر استبقاء رءوف عبد ربه فى السماء الأولى فترة قصيرة ليتطهر من أى شائبة ، وليؤهل لمهمته . وبغية تدريبه وتثقيفه أبقاه آبو إلى جانبه فى الوقت الذى يستقبل فيه المرشدين عادة .

وقال له رءوف :

ـ أود أن أرى أدولف هتلر ، هل يجىء الآن؟

ـ لقد قضى عليه بالإعدام فولد فى حارتكم من جديد وطالما رأيته :

ـ هتـــلر؟

ـ هو المعلم قدرى الجزار .

فصمت رءوف مليا من الدهشة ثم تساءل :

ـ إذن فمن يكون شيخ الحارة شاكر الدرزى؟

ـ لورد بلفور!

ـ والشيخ عاشور الولى الكذاب؟

ـ إنه خنفس خائن الثورة العرابية .

ـ أراهم لا يتغيرون ولم يستفيدوا من إعادة التجربة .

ـ ليس الحال كذلك دائمًا . أتدرى من تكون أمك؟

ـ إنها ملاك يا آبو .

ـ ما هى إلا ريا السفاحة المشهورة ، فانظر كم تقدمت!

فذهل رءوف وصمت على حين استقبل آبو أول الوافدين .

قال الوافد :

ـ إنى أبذل أقصى ما أستطيع .

فقال آبو :

ـ أعلم ذلك ولكن يلزمك مضاعفة الجهد فقد آن لك أن تصعد!

ولما اختفى الوافد قال رءوف :

ـ إنى أعرفه جيدًا أليس هو إخناتون؟

ـ هو عينه ، إنه سيئ الحظ فطال مقامه آلاف السنين .

ـ ولكنه أول من بشر بالله الأحد!

ـ هذا حق ولكنه فرض إلهه على الناس بالقوة لا بالهداية والإقناع فتيسر لأعدائه من بعده أن ينتزعوه من القلوب بالقوة ، ولولا صفاء سريرته لقضى عليه بالإعدام .

ـ ولم طال به المقام هذا الدهر؟

ـ لم يوفق مع أحد ممن ندب لإرشادهم مثل فرعون موسى والحاكم بأمر الله وعباس الأول .

ـ ومن رجله اليوم؟

ـ كميل شمعون!

وجاء الوافد الثانى، قدم تقريراً، تلقى كلمات مشجعة ثم اختفى.

عند ذاك قال رءوف:

- إنه الرئيس ويلسون!

- أجل.

- حسبته من القلة السعيدة التى صعدت إلى السماء الثانية.

- أنت تشير بلا شك إلى مبادئه السامية ولكنك نسيت أنه لم يستغل قوة أمريكا فى تنفيذها، بل إنه اعترف بالحماية على مصر.

- ومن رجله؟

- الأستاذ توفيق الحكيم!

ولما اختفى الوافد الثالث قال رءوف:

- إنه لينين بلا شك..

- نعـــم.

- حسبت أن الإعدام كان نصيبه لإلحاده، ماذا قلت دفاعا عنه؟

- قلت إنه من خلال ثرثرة فكرية غير الأسماء ولم يغيِّر الجوهر، سمى إلهه المادة الأزلية وأضفى عليها من صفات الله القدم والخلق والسيطرة على مصير الكون. وسمى الرسل بالعلماء، والملائكة بالعمال والشياطين بالبرجوازيين، ووعد أيضا بالجنة فى تحديد أكثر لزمانها ومكانها. ونوهت بقوة إيمانه وبلائه فى خدمة الكادحين وروح تضحيته وتقشفه، وقلت أيضا إن ما يهم الله سبحانه هو ما يصيب الناس من خير أو شر. أما هو - جل جلاله - فمستغن عن البشر، لن يزيده إيمانهم ولن ينقص من شأنه كفرهم به. هكذا خفف الحكم وعين مرشدا روحيا!

فتساءل رءوف مبهورا:

- ومن رجله؟

ـ الأستاذ مصطفى محمود.

ـ وهل ندب ستالين مرشدا أيضا؟

ـ كلا، ستالين أعدم لقتله الملايين من الكادحين بدلا من أن يعلمهم ويدربهم.

ـ لعله يعيش اليوم فى حارتنا؟

ـ كلا، إنه يعمل فى أحد مناجم الهند.

بانتهاء استقبال لينين فرغ آبو من مقابلات الساعة، استصحب رءوف لنزهة فى السماء الأولى. لدى تفكيرهما فى النزهة انطلقا مباشرة، استجابة للرغبة الداخلية، بلا حاجة إلى استعمال القدمين، كطائرين، ثملين بنشوة باطنية انعكاسا لمفاتن الحركة المنسابة فى يسر وعذوبة. غاصا فى جو فضى ذى أرضية خضراء مزركشة وسماء مضيئة بألق السحائب البيضاء. مرا بوجوه كثيرة تمثل شتى الأجناس والألوان. منهمكين فى الظهور والاختفاء ما بين السماء الأولى والأرض. كل مستغرق فى مهمته الرفيعة. يستهدفون للأرض وأهلها رقيا ونصرا، يأملون من ورائها تكفيرا وتطهيرا لأنفسهم ليواصلوا صعودهم فى مراقى الروح والإبداع والقرب من الحقيقة العظمى. يعملون بإصرار، تدفعهم الأشواق الحارة اللانهائية إلى الكمال والحق والخلود. قال رءوف:

ـ يُخيّل إلىّ أن العناء هنا لا يقل عن نظيره فوق الأرض؟

فأجاب آبو باسما:

ـ هما عناء واحد متصل، غير أن الإنسان يمارسه ها هنا بقلب أنقى وعقل أذكى وهدف أوضح.

ـ زدنى وضوحا يا آبو.

ـ أنتم تحلمون فى الأرض باليوم الذى تتحقق فيه المدينة الفاضلة

المؤسسة على حرية الفرد وعدالة المجتمع والتقدم العلمى والسيطرة الظافرة على قوى الطبيعة، وفى سبيل ذلك تحاربون وتسالمون وتتحدون القوى المضادة المسماة فى اصطلاحاتكم بالرجعية، هذا جميل طيب ولكنه ليس الهدف كما تتصورون، إن هو إلا الخطوة الأولى السديدة فى طريق طويل من الرقى الروحى يبدو حتى للذين يقيمون فى سمائنا الأولى بلا نهاية . .

فاستغرق رءوف فى التأمل حتى سأله آبو :

- فيم تفكر يا رءوف؟

فقال بأسى :

- أفكر فى مدى بشاعة الجريمة اليومية التى تواصل اقترافها القوة المضادة!

- وهى جريمة يشارك فيها الطيبون بالسلبية والقعود عن الجهاد خوفا من الموت وما الموت إلا ما ترى.

- أى حيـــاة؟

- إنها معركة بلا زيادة ولا نقصان!

وتفكر رءوف طويلا حتى أرهقه التفكير فعاد إلى تشوقه السابق لمعرفة مصائر الشخوص الذين يهتم بهم، فسأل آبو :

- أود أن أعرف مصائر زعماء وطنى؟

- انتظر حتى تراهم أو سل ما بدا لك.

- ماذا عن السيد عمر مكرم؟

- إنه مرشد أنيس منصور.

- وأحمد عرابى؟

- إنه مرشد لويس عوض.

ـ ومصطفى كامل؟

ـ مرشد فتحى رضوان .

ـ ومحمد فريد؟

ـ مرشد عثمان أحمد عثمان .

ـ وسعد زغلول؟

ـ هو وحده الذى صعد إلى السماء الثانية!

ـ بسبب تضحياته؟

فابتسم آبو قائلا :

ـ بسبب انتصاره على ضعفه البشرى!

ـ زدنى إيضاحا يا آبو .

ـ لعلك تعلم بأنه عانى هفوات الطموح قبل الثورة ثم سما عقب الثورة إلى رؤية رفيعة من الشجاعة والفداء فاستحق البراءة .

ـ ومصطفى النحاس؟

ـ كان مرشد أنور السادات ، وعقب ٦ أكتوبر وعودة الحرية صعد إلى السماء الثانية . .

ـ وجمال عبد الناصر؟

ـ إنه اليوم مرشد القذافى . .

* * *

وفى نهاية التدريب القصير قال آبو لرءوف :

ـ كن مرشدا روحيا لقاتلك عانوس قدرى الجزار .

فامتثل رءوف الأمر بحماس وعزيمة فقال آبو :

ـ اعتمد فى الإيحاء على فكرك وإنه لقوة عظيمة إذا أحسنت استخدامها ، واستعن عند الضرورة بالأحلام ، والله معك .

٤

هبط رءوف عبد ربه إلى الحارة يرى ويسمع على السرائر على حين لا يرى له طيف ولا يسمع له صوت. ينتقل من مكان إلى مكان كالنسمة المنسابة، فى حارته المحبوبة بصورتها المتكاملة الثابتة، وأناسها المنهمكين فى شئون الحياة، إنه يملك ذكرياته كافة، وضمنها آماله وآلامه السابقة، ويتمتع بصفاء ذهن مثل الضياء الساطع. عشرات وعشرات من الكادحين والكادحات يعملون بأعين خابية وسواعد مفتولة. الضحكات تطفو فوق الشتائم كالزبد المتألق الممزوج بالحموضة. ها هو ذا المعلم قدرى الجزار فى وكالته، لا شبه بينه وبين هتلر فى ملامحه، لكن جسمه ترهل من مص دماء البشر. ها هو ذا لورد بلفور، أو شاكر الدرزى شيخ الحارة، الذى أهدر القانون تحت قدمى الجزار، وها هو ذا الولى الماكر عاشور الذى يستلهم الغيب لتأييد سيده ومولاه. لك الله يا حارتنا. كيف ومتى تمرقين من هذه الأغلال المحكمة؟ ويبدو أن اختفاءه - رءوف - قد حرك ألسنة الحارة وقلوبها. النسوة يحطن بأمه الباكية:

- هذا ثالث يوم يمر على اختفائه..

- بلغى القسم يا أم رءوف..

- بلغت عم شاكر الدرزى شيخ الحارة.

ويجيء صوت شيخ الحارة متهكما:

- ألاعيب شباب هذه الأيام!

فهتفت الأم الباكية:

- ابنى لم يغب ليلة واحدة بعيدا عن بيته.

وها هى ذى رشيدة راجعة من معهدها. جمال وجهها الأسمر مكتس بالكآبة. أمها تقول لها:

- اعتنى بنفسك فالصحة لا تعوض!

فتقول وهى تختنق بالبكاء:

- إنى أعرف، قلبى لا يكذبنى.

رنا إليها رءوف بإشفاق. صدقت يا رشيدة. قلب المحب جهاز استقبال دقيق. ولكننا سنلتقى ذات يوم. الحب خالد يا رشيدة وليس كما يتوهم البعض. وها هو ذا القاتل يخطر راجعا من الجامعة. تمسك بيد كتابا وتقتل بالأخرى!.. إنى لا أغيب عن ذهنك ولكنك لا تدرى بأننى انتدبت مرشدا لك. هل تطيعنى اليوم أو تمضى فى غيك؟.. كل شيء يدعو للطمأنينة يا عانوس. أبوك يلقى ظله على الجميع. الحكومة والولاية ملك يمينه. تحت أمرك أى شهادة زور تحتاج إليها، ولكن صورتى لا تبرح مخيلتك. فلم لا؟ ألسنا صديقين ضرب بمودتهما المثل؟! ثم إنك مازلت شاديا فى الإجرام. لم تتمرس به كوالدك، ومن خلال ثقافتك تعلمت أو على الأقل سمعت عن أشياء جميلة. أتحلم بأنك ستظفر بقلب رشيدة نتيجة لتلك الجريمة؟ ما هذا الذى قتلته ودفنته فى الخلاء؟ لا يعنينى أمره بأكثر مما يعنيك. إنى رفيقك الأبدى كما سترى. اعترف يا عانوس، اعترف بجريمتك، اعترف والحق بى فسيكون لك دور أفضل. ها هى ذى أمى التعيسة تعترض سبيلك:

- يا سى عانوس.. أليس عندك خبر عن صديقك؟

- أبدا والله..

- قال وهو يودعنى إنه ذاهب إليك..

- تقابلنا دقائق ثم أخبرنى أنه ذاهب إلى مشوار مهم وأننا سنلتقى مساء اليوم فى القهوة.

- ولكنه لم يرجع . .

- ألم أزرك سائلا عنه؟

- حصل يا بنى ولكنى أكاد أجن . .

- وإنى مثلك فى القلق .

صدقت يا عانوس . إنى أرى القلق فى روحك مثل النمش فى الوجه . ولكنك قاس وخبيث ، إنك من القوى المضادة يا عانوس ألا تدرك خطورة ذلك؟ إننا نشكو طول الطريق الأبيض فما بالك وأنت تنحدر فى الطريق الأسود؟! . . إنى ملازمك . إذا لم تتذوق هذه الدجاجة المحمرة فالذنب ذنبك ، إذا لم تستطع أن تركز ذهنك فى كتابك فالذنب أيضا ذنبك . لن أتخلى عنك فلا تبدد تعبى هباء ، واسهد طويلا فلن يدركك النوم قبل الفجر .

ولما صعد رءوف إلى السماء الأولى وجد آبو منهمكًا فى الحديث مع إخناتون ، وكان إخناتون يقول :

- كلما قلت له يمينك أخذ يساره!

فقال له آبو :

- استعمل قواك كما يجب .

- ينقصنا استغلال القوة المادية .

فهتف آبو :

- ألا ترغب فى الصعود؟ المسألة أنك لم تعتد المناقشة والإقناع ولكنك ألفت إصدار الأوامر .

والتفت آبو إلى رءوف وتساءل :

- كيف الحال عندك؟

- بداية حسنة .

ـ عظيـــم!

ـ ولكنى أتساءل أليس لكل فرد من العامة مرشده؟

ـ طبعـــا.

ـ إذن لماذا هم مستسلمون؟!

ـ يا لك من مخطئ، إنك أحد أبناء عصر الثورات!

في تلك اللحظـة، هبـط عصفـور أخضـر في حجـم تفاحـة حتى حط على منكب آبو. قرب منقاره الوردى من أذن آبو فبدا هذا منصتـا ثم طـار مدوما في الفضاء حتى توارى خلف السحائب البيض.

ورأى آبو نظرة التشوف في عينى رءوف فقال:

ـ إنه رسول السماء الثانية جاءنى ببراءة الصعود للمدعو شعبان المنوفى.

ـ ومن شعبان المنوفى؟

ـ جندى مصرى استشهد في المروة على عهد محمد على، وهو مرشد لمهرب نقود يدعى مروان الأحمدى فنجح أخيرا في حمله على الانتحار.

وجاء شعبان المنوفى مشمولا بثوبه السحابى، فقال له آبو:

ـ ستصعد مجللا بالبركات إلى السماء الثانية!

وهرع إلينا جميع المرشدين كالحمام الأبيض حتى ازدحم بهم المكان الأخضر. وقف شعبان بينهم متهلل الوجه. وعزفت موسيقى بلحن سماوى، وقال آبو:

ـ اصعد يا وردة المدينة الخضراء وواصل جهادك القدسى.

فقال شعبان المنوفى بصوت عذب:

ـ طوبى لمن يقدم خدمة لأرض العناء.

ومضى يصعد بخفة الشذا الرشيق والموسيقى تعزف لحن الوداع البهيج .

٥

ها هو ذا عانوس قدرى الجزار يقف أمام ضابط المباحث . الضابط يسأله :

- متى رأيت رءوف عبد ربه آخر مرة؟

- عصر اليوم الذى اختفى فيه ، زارنى فى البيت ، سرعان ما غادرنى لمشوار مهم واعدا بمقابلتى مساء فى القهوة .

- هل أخبر شيئًا عن مشواره؟

- كــلا . .

- ألم تسأله عنه؟

- كلا . . حسبته أمرا يتعلق بالأسرة .

- رآكما البعض وأنتما تسيران معا فى الحارة عقب الزيارة .

* * *

لا تضطرب ، الأفضل أن تعترف . فرصتك الذهبية لو تعلم!

* * *

- أوصلته حتى خارج البوابة .

- إذن ذهب إلى الخلاء؟

* * *

هذه فلتة لسان يا عانوس . ما أكثر الفلتات! لن ينجيك إلا الصدق .

* * *

- نعـــم .

- ماذا فعلت بعد ذلك؟

- قصدت القهوة لأنتظره .

- حتى متى بقيت فيها؟

- حتى منتصف الليل ، ثم رجعت إلى بيتى .

- تستطيع أن تثبت ذلك؟

- كـان يجلس بالقـرب منى طوال الوقت عم شـاكـر الدرزى شـيخ الحارة . . وفى الصباح الباكر ذهبت إلى مسكنه وسألت والدته عنه فأخبرتنى بأنه لم يعد!

- ماذا فعلت؟

- سألت عنه جميع الأصدقاء والمعارف فى الحارة .

- ألك تصور خاص عن اختفائه الطويل؟

- كلا ، إنه شىء محير حقّاً .

* * *

ها أنت ذا تنصرف من القسم يا عـانوس . إنك تستعيد كل كلمة قيلت . تندم على ذكر البوابة . تتساءل عمن شهد مسيركما معا . كأنك تفكر فى مزيد من الشر . وتعيد على مسامع أبيك ما جرى من حوار . إنه مطمئن جداً . فى جيبه تستقر النقود والقانون والشـهود . جرم محترف . أنصحك للمرة الثانية أن تواجه جريمتك بشجاعة وتصفى حسابك . ثم ما هذا؟ ألا تزال صورة رشـيدة ترتسـم فى مخيلتك؟ هذا هو الجنـون عينه . ثم إنك تدرك أن التحـريات ستجرى عنك مثل الطوفان . شيخ

الحارة يقرر ذلك أيضا. الغيب ينذر بمفاجآت مجهولة. إنك تفكر في ذلك كله وتفكر أيضا فى رشيدة يا أحمق!.. لذلك قال رءوف لآبو:

- الخوف من الموت أكبر لعنة سلطت على البشر.

فتساءل آبو باسما:

- ألم يكن ذلك خليقا بأن يمنعه من ارتكاب جريمته؟

ولزم رءوف الصمت، فقال آبو:

- لقد انتدبت مرشدا لا فيلسوفا، فتذكر ذلك.

٦

إنك تتساءل يا عانوس لم يستدعيك الضابط ثانية، حسن، الأمور لا تنتهى بالبساطة التى يتصورها أبوك. ها هو ذا الضابط يسأل:

- ماذا تعرف عن حياة رءوف الشخصية؟

- لا شىء فيها يستحق الذكر.

- حقّا؟.. وماذا عن حبه لرشيدة الطالبة بمعهد الفنون الطرزية؟

- كل شاب لا يخلو من علاقة كهذه!

- ألك أنت مثلا علاقة مثلها؟

- هذه شئون خاصة ولا شأن لها بالتحقيق.

- أتظن ذلك؟.. حتى إذا كنت تحب الفتاة نفسها؟

- المسألة تحتاج لإيضاح.

- طيب!.. ما هو؟

ـ كاشفته مرة بأنى أرغب فى خطبة رشيدة فصارحنى بأنهما متحابان، وفى الحال اعتذرت واعتبرت الأمر منتهيا!

ـ ولكن الحب لا ينتهى بكلمة.

ـ كانت مجرد عاطفة عابرة.. لا أدرى ماذا تقصد؟

ـ إنى أجمع معلومات، وأتساءل ترى ألم تتغير عواطفك نحو صديقك ولو قليلا؟

ـ كلا.. عاطفتى لرشيدة كانت عادة، أما صداقتنا فكانت صداقة العمر!

ـ تقول كانت؟ هل انتهت؟

فقال عانوس بضيق:

ـ أقصد إنها صداقة العمر.

* * *

تتساءل ترى هل جرى تحقيق مع رشيدة؟ وبم اعترفت؟ حسن. إنى أقول لك إن التحقيق جرى، وإنها اعترفت بمحاولاتك فى انتزاعها من قلب صديقك، كما اعترفت بسطوة أبيك وخوفها على نفسها وعلى أمها. أؤكد لك أن الأمور تمضى فى غير صالحك.

* * *

فضحك الضابط وقال:

ـ تتكلم كما لو كنت يئست من رجوع صديقك!

ـ إنى واثق برجوعه، بهذا يحدثنى قلبى.

ـ قلب المؤمن دليله، وإنى لأرجو ذلك أيضا!

* * *

تخرج هذه المرة من القسم وأنت أشد اضطرابا من المرة الأولى.

أظنك شعرت تماما بأن الضابط الماكر يشك فيك يا عانوس . لا تتصور أن أباك قادر على كل شيء . هتلر نفسه ألم ينهزم وينتحر ؟ !

٧

الضابط يستدعيك للمرة الثالثة يا عانوس . أعصابك بدأت تتمزق . أبوك يرمق شاكر الدرزى بغضب ، ولكن ماذا بوسعه أن يفعل ؟ ! قف أمام معذبك الضابط واسمع :

- يا عانوس ، تلقينا رسالة من مجهول يتهمك بقتل صديقك رءوف !

وهتف بغضب مفتعل :

- تهمة حقيرة . . ليكشف عن وجهه .

- صبرك ، نحن نقدر الأمور بميزان دقيق ، أنت وصاحبك ألم تكونا تذهبان كثيرا خارج البوابة للسهر ؟

- بلى . .

- أين كنتما تقضيان الوقت فى ذلك الخلاء ؟

- فى مقهى الشرفا فوق الهضبة .

- هذا ما قدرته ، وقد قررت أن أجرى مواجهة بينك وبين رجال المقهى !

* * *

انتظر ولا تضطرب . إنك عنيد ، هذه هى الحقيقة . لا تريد أن تستجيب لمناجاتى . ثق بأننى أعمل لصالحك يا تعيس .

* * *

وتمت المواجهة فشهد صاحب المقهى وصبيه أنهما لم يريا عانوس منذ أكثر من شهر. لم يتجل الاقتناع الكامل على وجه الضابط. ورمق عانوس بنظرة صارمة وتمتم:

ـ تفضل بالانصراف!

* * *

تغادر القسم وعلى شفتك ابتسامة النصر. لك الحق فى ذلك. أبوك أحكم خطوط الدفاع من حولك ولكن هل ينتهى الأمر عند هذا الحد؟ قلبك ينقبض وأنت تمر أمام مسكن ضحيتك. تساورك الهواجس مرة أخرى. من المجهول الذى أرسل الخطاب؟ وهل يكون آخر خطاب من نوعه؟ إنك قاتل يا عانوس وضميرك لا يريد أن يستيقظ. لأزورنك الليلة فى المنام. مادمت لا تستجيب إلى ندائى الخفى، فستجد جثتى مطروحة إلى جانبك فوق الفراش. ها هو ذا شخيرك يعلو تحت وطأة الكابوس. وتستيقظ فزعا بقلب ثقيل. وتنزلق من الفراش لتبل ريقك بجرعة ماء. ولكنك ستجد الجثة حال استغراقك فى النوم، ويتكرر الحلم ليلة بعد أخرى. تدعو أمك الشيخ عاشور لفحص حالك فيهبك حجابا لتضعه فوق قلبك، ولكن الجثة لا تبرح منامك. وتسوء حالك فتذهب سرا إلى الطبيب النفسى. تتردد عليه أسبوعا بعد أسبوع. يقول لك قولا عجبا. إنك تتصور أن صديقك قد قتل وأن جثته هى جثتك أنت للارتباط العاطفى بينكما، عاطفة واحدة ربطت بينكما فجثته هى البديل عن جثتك، ولكن لماذا تتصور أنك أنت القتيل؟ جثتك بدورها بديل عن جثة أخرى أو بديل عن شخص آخر تود أنت قتله فى أعماقك وهو أبوك، وعليه فالحلم كله انعكاس لعقدة أوديب! إنك لا تعشق أمك ولا تود قتل أبيك ولكنك تعشق رشيدة وقتلتنى أنا لتزيحنى من طريقك.

وشكا رءوف أمره إلى آبو، فقال آبو :

- الشكوى من التشخيص العلمى الناقص كثيرة، حساسية من الإحباط تشخص كمرض ناشئ عن تناول الشوكولاتة، كآبة من فقدان الإيمان يعالج بسببها العصب السمبتاوى، إمساك شديد بسبب الوضع السياسى توصف له الملينات، وهلم جرا!

- والعمل يا آبو؟

- هل أدركك اليأس؟

فبادره رءوف :

- كلا..

- استثمر ما لديك من قوة!

٨

حفظت قضية رءوف عبد ربه لعدم الاهتداء إلى أسباب اختفائه. تلاشى الحادث رويدا رويدا من الأذهان، لم تعد تذكره إلا أمه ورشيدة. ومضى عانوس يمارس حياته اليومية مستغرقا فى العمل واللهو. كان الماضى يطارده من حين إلى حين سواء فى اليقظة أو فى المنام، ولكنه ألف مناوشاته وغالبها بالإرادة والمخدر والمنوم. وأمن جانب القانون تماما فراح يفكر من جديد فى رشيدة وإلا فما معنى إقدامه على أفظع فعل فى حياته؟! كان يتعمد رؤيتها وأن يريها نفسه كل صباح وهما ذاهبان إلى معهديهما. مازال وجهها مكتئبا بكآبة الذكرى فهل لم تفقد الأمل بعد؟ وألا تفكر يوما فى مستقبلها كفتاة تنشد الحياة والسعادة والإنجاب؟! وهل تطمح إلى من هو أصلح لها منه فى الحارة كلها؟! لقد ضاعفت مغامرته

الجنونية من تعلقه بها ورغبته الثابتة فى الاستحواذ عليها. ومرة تصادف مجلسه لصقها فى الترام، فحيّاها ولكنها تجاهلته فقال:

- كان يجب أن نتبادل المساعدة.

فقطبت نافرة ولكنه واصل حديثه:

- فكلانا يعانى فقد عزيز مشترك!

عند ذلك خرجت من صمتها قائلة:

- لم يفقد ولكنه قُتل!

- مــاذا؟!

- كثيرون يؤمنون بذلك؟!

- ولكنه لم يكن له عدو واحد؟!

فرمته بنظرة ازدراء ولاذت بالصمت.

* * *

إنها تتهمك يا عانوس بقتله. أكنت فى شك من ذلك؟ تستطيع أن تمحو الجريمة من صفحتك ببعث نفسك والوقوف فى وجه أبيك. لقد فات أوان الحب.

* * *

غادرت الترام قبله فأتبعها نظرة مليئة بالحقد والرغبة. ودهمت مخيلته أحلام طائشة مفعمة بالعنف والشهوة.

٩

وقالت أم رشيدة لأم رءوف :

ـ الجميع يتكلمون عن ذلك الرجل العجيب الذى يحضر الأرواح ، فلم لا تجربينه علما بأنه لن يكلفك مليما واحدا؟

فرنت إليها الثكلى حائرة ثم تمتمت :

ـ وتذهبين معى!

ـ لم لا؟ . . سأتصل بالمرحوم أبى رشيدة!

وقالت رشيدة وهى تتابع الحديث باهتمام :

ـ أناس محترمون كثيرون يؤمنون بتحضير الأرواح .

وتواعدن على يوم فى تكتم شديد . وقال رءوف لآبو متهللا :

ـ هى فرصتى لكشف الستار عن المجرم .

فقــال آبــو :

ـ أنت منتدب مرشدا له لا عليه!

ـ أنترك هذه الفرصة تفلت من أيدينا؟

ـ لست مرشد شرطة يا رءوف ، إنك مرشد روحى وهدفك أن تنقذ عانوس لا أن تسلمه للجلاد .

ـ ولكنه مثل الصخر لا تؤثر فيه نسائم الحكمة .

ـ إنه اعتراف بالعجز .

فهتف رءوف :

ـ كلا . . لم أقنط بعد . . ولكن ماذا علىّ أن أفعل إذا استدعيت روحى؟

ـ أنت حر فلا تقيد حريتك بالإلحاح فى الاسترشاد.

وانعقدت جلسة التحضير وشهدتها أم رءوف وأم رشيدة ورشيدة.

واستدعت روح رءوف فحلَّ فى ظلمة الحجرة وقال لأمه بصوت سمعه جميع الحاضرين:

ـ رءوف يحييك يا أمى..

فشهقت المرأة لتوكدها من موت ابنها وتساءلت:

ـ ماذا حدث لك يا رءوف؟

فقال رءوف بلا تردد:

ـ لا تحزنى، أنا سعيد، لا يزعجنى إلا حزنك، تحياتى إلى رشيدة.

وسرعان ما غادر الحجرة...

١٠

ورجعت أم رءوف وأم رشيدة ورشيدة وهن يتساءلن:

ـ لِمَ لَمْ يبح بسر مقتله؟

فقالت أم رءوف وهى تجفف دمعها:

ـ ولكنه انعدم فى عز شبابه.

فقالت رشيدة:

ـ لا تزعجيه بالحزن..

وقالت أم رشيدة:

ـ من يدرى لعله مات فى حادث.

ـ ولِم لَمْ يخبرنا بحقيقة موته؟

ـ إنه سره على أى حال!

وأصبح شهود الجلسات هواية أم رءوف، وسلواها الوحيدة فى الدنيا. وكانت تصحب أم رشيدة ورشيدة معها، وعندما جاءت الأيام الأخيرة السابقة لامتحان رشيدة تخلفت عن الذهاب معهما.

وفى ليلة من تلك الليالى وكانت بمفردها بالشقة وهى تذاكر إذ اقتحم الحجرة عليها عانوس قدرى الجزار. تسلل من المنور ثم اقتحم الحجرة. وهتف به رءوف أن ارجع ولا تتقدم خطوة واحدة، ولكنه هجم على رشيدة وكتم الصوت فى فيها براحته وهو يقول:

ـ ستجرين بعد ذلك ورائى يا عنيدة.

وشرع بوحشية فى اغتصابها وهى تقاوم بعنف يائس وصرخ:

ـ سأغتصبك حية أو ميتة..

وتسللت يدها إلى المقص فوق الخوان وبقوة جنونية وهى مهتصرة تحت ثقله رشقته فى جانب رقبته. شد عليها بقسوة ووحشية ثم تراخت قوته فانطرح فوقها جسده بلا حراك وتدفق الدم الحار على وجهها وصدرها الممزق..

دفعته عنها فاستلقى فوق الكليم المتهرئ وجرت مترنحة نحو النافذة وهى تصرخ بأعلى صوت..

١١

هرع الناس إلى الشقة فوجدوها كالمجنونة مخضبة بالدماء. رأوا جثة عانوس فارتفع الصراخ. صاحت وهى تتكور على نفسها:

ـ أراد أن يغتصبنى..

ولولا وصول الضابط وشيخ الحارة قبل أن يتناهى الخبر إلى المعلم قدرى الجزار لفتك بها. كان يزأر.

ـ ابنى.. وحيدى.. سأحرق الدنيا..

أحاطت القوة برشيدة وصاح الضابط:

ـ الجميع يخرجون فى الحال..

وصاح قدرى موجها عاصفته إلى رشيدة:

ـ سأشرب من دمك..

وانتشرت نيران الخبر الدامى فى الحارة..

١٢

وقف عانوس يرنو إلى جثته وهو فى حيرة غاشية. تقدم رءوف منه باسما فنظر إليه الآخر وتمتم:

ـ رءوف!.. ماذا جاء بك؟

فأجابه برقة:

ـ جاء بى الذى جاء بك، هلم معى بعيدا عن هذه الحجرة.. فأشار إلى جثته وقال:

ـ وأترك هذه؟

ـ هى ثوبك القديم ولم يصلح للاستعمال!

ـ هل.. هل..؟

ـ أجل.. لقد غادرت الدنيا يا عانوس..

وصمت مليا ثم قال مشيرا إلى رشيدة:

ـ ولكنها بريئة .

ـ أعرف ذلك ، ولكنك لن تستطيع إسعافها . . هلم معى . .

فقال عانوس بعد تردد :

ـ آسف على ما اقترفته فيك!

ـ لا أهمية للأسف . .

ـ إنى سعيد بلقائك . .

ـ وإنى سعيد بلقائك . .

١٣

وسرعان ما أعطاه فكرة سريعة عن دنياه الجديدة . ولما جاء آبو قال رءوف :

ـ آبو ، محاميك يا عانوس . .

فقال آبو مخاطبا عانوس :

ـ أهلا بك يا عانوس فى السماء الأولى . .

فتساءل عانوس بذهول :

ـ كتبت لى الجنة؟!

فابتسم آبو وقال :

ـ صبرك ، الطريق أطول مما تتصور . .

ومضى آبو يزوده بالمعلومات الضرورية عن عالمه الجديد ، والمحاكمة ، ونوعية الأحكام المتوقعة . وتمثلت لعانوس أفعاله أشباحا قبيحة مفزعة فتجهم وجهه وتجرع القنوط حتى الثمالة ، غير أن آبو قال :

ـ على أى حال فإن مهمتى هى الدفاع عنك . .

ـ وهل لديك فرصة لذلك؟ . . هل يخفف من آثامى حرمانى من الحياة وأنا فى عز الشباب؟

ـ لقد خسرتها بيد فتاة وهى تدفع عن شرفها اغتصابك، ثم تركتها متهمة بقتلك . .

ـ هذا صحيح، كم أتمنى أن أندب مرشدا روحيا لها!

ـ كانت ناجحة كما كان مرشدها ناجحا فليست فى حاجة إليك . .

ـ أيعنى هذا أننى هلكت؟

ـ أبوك ولا شك يربض وراء فسادك، هو الذى دللك، هو الذى ملأك بالأنانية، هو الذى جرأك على كرامات العباد، هو الذى يسر لك ارتكاب الجرائم كأنك تملك الدنيا بلا شريك . .

فقال عانوس منتعشا:

ـ نطقت بالحق!

ـ ولكنك تحاكم باعتبارك ذا عقل وقلب وإرادة حرة!

ـ قوة أبى خدرت قواى جميعا!

ـ السماء تعدك مسئولا عن نفسك وعن العالم أجمع . .

ـ أليست مسئولية فوق طاقة البشر؟

ـ ولكنك تحملتها مقابل ظفرك بالحياة.

ـ لقد ولدت بغير إرادة منى.

ـ بل أخذ عليك العهد وأنت فى الرحم . .

ـ بالصدق والصراحة لا أذكر ذلك . .

ـ كان عليك أن تتذكره.

ـ إنها محاكمة لا دفاع . .

- علينا أن نكشف عن الحقيقة!

- لم أخل من خير فقد طلبت العلم كما أننى أحببت حبا صادقا.

- سعيت إلى العلم كوسيلة إلى مركز مرموق، وكان حبك مجرد رغبة متعجرفة فى امتلاك فتاة صديقك الفقير..

- لم تكن تفارق خيالى لحظة واحدة..

- لم تكن إلا كبرياء وشهوة..

فقال عانوس متعلقا بأى خيط وهو يشير نحو رءوف:

- مارست الصداقة الصافية..

- ألم تقتلها بعد ذلك بوحشية؟

- كان حزنى قاسيا..

- لا غبار على ذلك..

- وحبى للقطط وحنوى عليها؟

- هذا جميل أيضا.

وبعد صمت قليل عاد آبو يتساءل:

- وماذا عن موقفك من جبروت أبيك؟

- كنت ابنا بارا!

- البر لم يكن مطلوبا فى حالك..

- طالما استفظعت بعض فعاله..

- وطالما أعجبت بأفعال أخرى لا تقل عن الأولى فى بشاعتها..

- لو مد فى عمرى لتغير الأمر..

- إنك تحاكم على ما كان..

- أو أن أعطى فرصة أخرى.

فقال آبو بغموض:

ـ ربما تهيأ لك ذلك . .

ـ متى أمثل أمام المحكمة؟

ـ لقد تمت المحاكمة يا عانوس ويؤسفنى أن أبلغك بأنه قضى عليك بالإعدام . .

فى الحال تلاشى عانوس كنفخة الشابورة . تحت ضوء الشمس . ونظر رءوف إلى آبو متسائلا :

ـ هل أستمر مرشدا له؟

ـ إنه لن يولد من جديد فوق الأرض قبل عام على الأقل وقد ينتظر أكثر من ذلك . .

ـ وما عسى أن يكون عملى الجديد ؟

فقال آبو بأسى :

ـ ستتقدم إلى المحكمة من جديد!

فهتف رءوف :

ـ ألم أبذل أقصى ما لدى من جهد؟

ـ بلى ، ولكنك فشلت وقد أعدم رجلك كما رأيت . .

ـ العِبرة بالعمل لا بالنتيجة .

ـ العِبرة بالعمل والنتيجة معا ، ثم إنك أخطأت خطأ فاحشا . .

ـ ما هَو يا آبو؟

ـ لم يكن لك إلا أن تحمله على الاعتراف بجريمة قتلك كأنها الجريمة الوحيدة فى الحارة أو كأنها أكبر الجرائم .

ـ ألم تكن مشكلته الأولى؟

ـ كلا .

ـ فماذا كانت مشكلته؟

ـ أبوه كان المشكلة، لو حرضته على أبيه لأصبت أكبر الأهداف!

فلاذ رءوف بالصمت محزونا فواصل الآخر حديثه:

ـ لم تحسن اختيار الهدف، غلبتك الأنانية وأنت لا تدرى، الأيسر أن يتمرد على وحشية أبيه، ولو نجح فى مهمته لانفضح ولم يكن يسيرا أن يعترف شاب أحمق مدلل ليضحى بحياته، كان أمر جرائم أبيه متضمنة جريمة قتلك..

فقال رءوف مسلما:

ـ أعلنى الحكم..

فقال آبو:

ـ يؤسفنى يا رءوف أن أبلغك بأنه قُضى عليك بالإعدام.. وسرعان ما تلاشى رءوف عبد ربه.

١٤

جرى تحقيق طويل مع رشيدة سليمان، قدمت للمحاكمة، اقتنعت المحكمة بأنها ارتكبت جريمتها دفاعا عن النفس فأصدرت حكمها بالبراءة. وجدت أمها أن من الخطر غير المأمون العواقب البقاء فى الحارة تحت رحمة المعلم قدرى الجزار فهربت مع ابنتها بليل ولم يستدل لهما على مكان.

ولما كان تيار الحياة المتدفق أبدا يجرف زبد الأحزان فقد تزوجت أم رءوف الوحيدة الفقيرة من شاكر الدرزى شيخ الحارة عقب وفاة زوجته بنصف عام، وأنجبت له طفلا ذكرا أسمته رءوف تخليدا لذكرى فقيدها. ولم يكن رءوف الجديد إلا روح عانوس ابن قدرى الجزار قد لبست

جسما جديدا. كذلك أنجبت إحدى زوجات قدرى الجزار طفلا ذكرا أسماه الرجل عانوس تحية لذكرى فقيده ولم يكن سوى روح رءوف تقمصت جسدا جديدا.

١٥

نشأ رءوف (عانوس) فى بيت شاكر الدرزى الحافل بالإخوة والأخوات، فى حياة ميسورة بفضل النقود التى يرشوه بها قدرى الجزار. ولكن شيخ الحارة لم يكن يعنى بتربية أولاده، زوج البنات، أما الصبيان فلم يجاوز أحدهم مرحلة الكُتَّاب فى تعليمه. فعملوا فى شتى الحرف سواء فى الحارة أو خارجها، ولم يكن حظ رءوف أسعد من إخوته. فى البدء أصرت أمه على أن ينجح فى التعليم، وأن يعيد سيرة أخيه الفقيد، وبسبب من إصرارها تعرضت لزجر شديد من زوجها. وسرعان ما ألحق ابنه عاملا صغيرا فى الطابونة، وفرح رءوف بذلك إذ لم يجد فى نفسه الميل الصادق أو العزيمة المتوثبة لطلب العلم. وبتقدمه فى العمر مضى يدرك الوضع فى حارته، سطوة المعلم قدرى الجزار، والدور الخسيس الذى لعبه أبوه، والحياة الفقيرة التى قضى عليه بها فى خدمة المعلم رشاد الدبش صاحب الطابونة. وقد زامل عانوس رءوف فى الكُتَّاب، ومال كل منهما إلى صاحبه، فاشتركا فى اللعب دهرا، وتوطدت بينهما ألفة قوية، غير أن الحياة فرقت بينهما رغم تجاورهما فى حارة واحدة. ألحق عانوس بالابتدائية، ثم الثانوية، ثم دخل كلية الشرطة. ربما تلاقيا فى الطريق، أو تقابلا فى بيت قدرى الجزار ورءوف يتلقى العجين أو يرجع بالأرغفة، عند ذاك يتبادلان ابتسامة عابرة، أو تحية ـ من ناحية عانوس ـ فاترة. أدرك رءوف أن صداقة الطفولة ذابت

وتبخرت، وأن عالميهما متباعدان. وازداد شعوره حدة بتناقضات الحياة وتعاستها، فحنق على عانوس ولكنه كره قدرى الجزار ورشاد الدبش، واحتقر أباه. الحق لفحته نار الحياة، ولكن ضرّمها ما يترامى إلى أذنيه فى القهوة من مناقشات الشباب. حتى عانوس يجالس أولئك الشبان ويدلى برأيه فى حماس. وعند ذلك يبدو شابا غريبا، متنافرا مع جو البيت الذى يعيش فيه، ومتمردا على أبيه الجبار.

وجعل المعلم قدرى الجزار يراقب نمو ابنه بقلق. إنه نبت جديد شرس، غريب مثير للمخاوف، أو كما قال عنه مرة «ابن حرام».

ومرة سأله:

- ماذا تقول فى القهوة للأوباش وماذا يقولون لك؟

فأجاب عانوس بأدب:

- نتبادل الهموم يا أبى..

- إنهم أعداؤك..

فقال باسما:

- إنهم أصدقائى..

فهتف الأب بغضب:

- إذا جاوزت حدك فستجدنى شخصا آخر لا يعرف الرحمة..

قال قدرى الجزار لنفسه إن ابنه سيصير عما قريب ضابطا، سيعقل ويعرف موضع قدمه، ثم يتزوج وتنتهى مشكلاته.

وتخرج عانوس ضابطا، وعين فى قسم الحى بفضل أبيه وسعيه عند الكبراء.

١٦

إنه الزمن الذى جعل من رءوف وعانوس شخصين غير متوقعين. اكتسح الحارة تيار، بل تيارات جديدة، متمردة وأحيانا ثائرة. لذلك مرقا من جو البيت الخانق واستعار كل منهما لنفسه شخصية جديدة. ولم يشعر أحد بخطورة عانوس قبل أن يصير ضابطا. أجل وقعت مشاغبات متباعدة بينه وبين أبيه ولكن الأب توقع أن يتغير كل شىء لصالحه حال اندماج ابنه فى حياته الرسمية، أما رءوف فسرعان ما غضب عليه معلمه رشاد الدبش، فلطمه على وجهه وصاح به:

ـ احرص على رزقك ولا تحرض أقرانك على الفساد.

ولولا منزلة أبيه ـ شاكر الدرزى ـ كشيخ حارة لفصله من عمله ولكنه شكاه إليه فدهش الرجل لهذا العصيان الجديد فى نوعه وأدبه بعلقة ساخنة. ولما آنس منه عنادا استعان بحضرة الضابط عليه وقال له:

ـ يا فندم هدده بالقانون فهذا خير من أن نضطر إلى القبض عليه غدا..

هكذا مثل رءوف أمام صديقه القديم عانوس. تبادلا النظر طويلا. ثمة ذكريات مشتركة أفعمت «جوهما» بالدفء، ابتسم عانوس وسأله:

ـ كيف حالك يا رءوف؟

فأجاب رءوف:

ـ قطران، بعيد عنك..

ـ كان عليك أن تستمر فى تعليمك..

ـ إنه أبى وما مضى قد مضى..!

فشحن صوته بجدية وهو يقول :

- احرص على رزقك فالقانون لا يرحم . .

فقال رءوف بنبرة ذات معنى :

- معلمى شره ولا رحمة فى قلبه . .

قال عانوس بصوت منخفض :

- احرص على رزقك . .

وعقب ذلك سعى عانوس لاتخاذ إجراء هزَّ وجدان الحارة وزلزل أباه فقد نقل شاكر الدرزى إلى حارة أخرى وأحل محله شيخ حارة جديد أهلا للثقة يدعى بدران خليفة . ثار الأب قدرى الجزار ثورة عنيفة فقد خسر اليد التى تحميه من القانون ، وسأل ابنه :

- كيف يحصل هذا وأنت ضابط فى القسم؟

فقال له عانوس :

- فى ذلك حماية لك وللناس!

- إنك ابنى وعدوى يا عانوس . .

- اعلم يا أبى بأنى ابنك البار . .

كان لكل لغته الخاصة به ، واستحال التفاهم بينهما ، واغبر وجه البيت بالتراب الأسود . .

١٧

وجاءت امرأة لمقابلة عانوس فى القسم . عندما وقعت عيناه على صورة وجهها جاش صدره بنغمة جديدة وعذبة ، بديعة هذه السمرة

الرائقة وهاتان العينان اللوزيتان السوداوان . كأن الصورة قد رسمت على هواه من أجل هواه . لعلها فى الخامسة والثلاثين أو تزيد ، فهى أكبر منه بحوالى عشرين عاما . فى عينيها رصانة تقارب الكآبة . قالت :

- إنى أطلب حمايتك!

سألها عن هويتها فقالت :

- اسمى رشيدة سليمان ، مدرسة ، نقلت حديثا إلى مدرسة العهد الجديد بالحى . .

هذا الاسم ، هل مر ذات يوم بشبكة ذاكرته . . سألها وعيناه تحدقان فى وجهها بشغف :

- مم تخافين؟

- إنه تاريخ قديم ، قد أتعرض بسببه لاعتداء على حياتى . .

- حقّا؟ ما التاريخ؟ ومن المعتدى؟

قالت بعد تردد :

- قضية قديمة برئت منها ، كنت فى حال دفاع عن النفس ، ولكن والد القتيل رجل مخيف وله أعوان مجرمون . .

اقتحمته الذكرى القديمة التى سمعها تتردد فى صباه كعاصفة ، شد على أعصابه ليملك نفسه المشتتة . إنه أمام قاتلة أخيه عانوس الأول . هاهى ذى تفتنه كما فتنت أخاه من قبل وواصلت رشيدة حديثها :

- هربنا إلى إمبابة ، عملت مدرسة فى الأقاليم ، وإذا بى أنقل فجأة إلى الحى القديم . .

صمت مطحونا بدوامة انفعالاته ، لم يسألها عن اسم الرجل المخيف ، ولكنها قالت :

- أما الرجل فمعروف عندكم ، إنه المعلم قدرى الجزار . .

استرد نفسه بجهد شديد متسائلا :

- حضرتك متزوجة؟

- لم أتزوج قط . .

- لم لَمْ تشرحى ظروفك للمنطقة التعليمية؟

- لَم يهتم بى أحد .

- أين تسكنين؟

- ١٥ شارع الدرى ، إمبابة . .

فقال بهـدوء :

- اطمئنى ، سأخاطب المنطقة بنفسى ، وإذا تباطأت فسأعمل على حمايتك . .

تمتمت بحـرارة :

- شكرا . لا تنسنى من فضلك !

- كلا . ليس من المستطاع نسيانك !

١٨

لم يجد عانوس صعوبة فى إلغاء النقل . وبنفسه ذهب إلى البيت رقم ١٥ بالدرى بإمبابة . الوقت أصيل ، والنيل شبه ساكن ، ومن فوق سطحه تتهادى لفحات باردة . استقبلته رشيدة بدهشة ممزوجة بسرور وأمل ، ثم قادته إلى حجرة استقبال صغيرة وبسيطة ومهندمة . قال :

- معذرة عن الزيارة ، ولكنى أردت أن أسارع بطمأنينتك بإلغاء النقل !

- ألف شكر يا فندم . .

أمرت له بقهوة فتهيأ له البقاء فترة كما أمل.

- تعيشين مع والدتك.. !

- أمي ماتت منذ عشرة أعوام، معي شغالة عجوز طيبة..

يا للخسارة إنها عانس ولكنها محتفظة بروائها!

- هل يزعجك أن تعرفي أنني عانوس قدري الجزار ابن الرجل المخيف؟!

ذهلت. تلون وجهها الأسمر فاكتسى بعمق. لم تنبس بكلمة..

- إني ألمس انزعاجك..

فقالت بنبرة متهدجة:

- مجرد دهشة..

- أرجو ألا تكرهيني..

فقالت بحياء:

- إنك إنسان..

ومضى يحتسي القهوة وهو يختلس منها النظرات، ثم قال ضاحكا:

- لست مخيفا كوالدي!

- إني واثقة بذلك..

- حقّا؟!

- الأمر واضح جدّا، والحق أني بريئة!

فقال بهدوء:

- إني واثق بذلك..

ومواصلا بعد صمت:

- ولكنه ثمة شيء يحيرني؟

فرمقته بنظرة متسائلة فقال :

ـ لِم لَمْ تتزوجى؟ !

فنظرت بعيدا مليا ثم قالت :

ـ رفضته أكثر من مرة . .

ـ ولكن لماذا؟

ـ لا أدرى . .

ـ بسبب حب الآخر؟ !

ـ ولكنه نسى ككل شىء!

ـ لابد من سبب!

ـ ليس الدم بالتجربة الهينة ، لعلى يئست من القدرة على إسعاد أحد . .

ـ أمر مؤسف . . .

ـ لعل الخير فيما كان . .

فقال متعمدا :

ـ مازلت شابة وجميلة .

فى طريق عودته سبح فى أجواء خيالية ، كره الضرورة التى تبعده عن البيت ١٥ وعن إمبابة ، وقال لنفسه : «إنى أحب رشيدة» .

١٩

وقف الجفاء سدا منيعا بينه وبين أبيه . حزنت أمه حتى الموت . أصبح البيت كئيبا مثل جحر الفئران . هل سعى إلى النقل إلى إقليم؟ وإمبابة؟ !

ماذا يحدث لو عرف أبوه العاطفة المتأججة فى صدره؟ تراءت له فكرة طارئة وهى أنه خلق عقابا لأبيه. وإلا فما معنى أن يعلن عليه حربا سرية مذ وعى ما حوله؟! يا له من أب خليق بالرفض المطلق! إنه لموقف مؤسف ومحزن. خاصة وأن الرجل أحبه كل الحب. بقدر ما هو وحش فظ فى الخارج فهو أليف مستأنس بين جدران بيته. وهو لا يتصور شذوذ نفسه. يؤمن بأنه يمارس حقوقه الطبيعية، حقوق الذكى القوى. نهمه للمال والسطوة غير محدود. اعتاد الإجرام كأنه تحية الصباح. حدوب على أعوانه وكريم حتى السفه. أما الكادحون ممن يبتز نقودهم ويحتكر أقواتهم فيحتقرهم وهو لا يرحم من يحتقر. وسيمقته يوما فيمحق أبوته. الأدهى من ذلك أنه دمغ أمه بطابعه فهى تعبد قوته. وكلما ارتكب إثما استغرقتها العبادات ولكنها تعبده. إنه - عانوس - يقيم فى عرين، فى معبد للقوة والخطايا.

وتعقدت الأمور، وقذفت من جوفها مواقف متحدية، فقد ضُبط أعوان لأبيه وهم يبتزون نقودا من عمال الطابونة. سرعان ما ألقى القبض عليهم لأول مرة فى تاريخ الحارة. انفجر ينبوع فرحة ضاحكة فى الحارة وثار بركان فى بيت قدرى الجزار. لم يعد البقاء لعانوس محتملا. قرر الذهاب. اهتز جذع أمه وهى تبكى وتقول:

- إنه الشيطان..

فلثم جبينها وذهب. واستأجر شقة صغيرة فى إمبابة! وقال لنفسه: «إن القضاء على أعوان أبيه هو قضاء على طاقته الشريرة». سيعجز عن الإيذاء وتفلت الحارة من قبضته الجهنمية. وكان يدعو الله ألا يضبطه - أباه - متلبسا بجريمة مباشرة. والظاهر أن الرجل صمم على مقابلة التحدى بتحد مثله قبل أن ينهار جداره. ففى نفس الليلة نشبت معركة بين الأعوان وبين عمال الطابونة، وأصيب رءوف إصابة بالغة، غير أنه اغتال المعلم قدرى الجزار قبل أن يلفظ أنفاسه.

أحداث متتابعة متفجرة، زلزلت بها الحارة زلزالا ، فانغمست في الدم، ولكن تبددت الظلمات .

٢٠

وجد قدرى الجزار نفسه أمام آبو ، وسمعه يقول له :

ـ أهلا بك يا قدرى فى السماء الأولى .

ومضى يعرفه بنفسه وبالمكان . لاحظ أن قدرى شارد اللب، ثقيل النظرة فقال له :

ـ كأنك لم تقطع أسبابك بالأرض بعد؟

ـ شيء يثقل على صدرى .

ـ انتبه . . إنك تعرف الآن مصيرك .

ـ أجل، ولكنى ما تصورت أن يقتلنى ولد مثل رءوف !

ـ ذاكرتك الجديدة لم تنبعث فيها اليقظة بعد .

تبدت الحيرة فى أسارير قدرى الجزار، ومضى يفيق رويدا رويدا حتى ندت عنه آهة عميقة وابتسم آبو وتساءل :

ـ أعرفت من هو الولد رءوف؟

فقال قدرى بأسى :

ـ قتلنى ابنى عانوس !

ـ أجل، وماذا كنت قبل ذلك؟

ـ أدولف هتلر !

ـ وقبل ذلك؟

- بردونى قطاع الطرق بأفغانستان!

- سجل أسود طويل، لماذا تستعصى على الترقى وتهدر الفرص المتاحة؟.. ابنك أفضل منك، كثيرون أفضل منك.

فقال بانكسار:

- لن يذهب هذا الدرس سدى!

- ولكنك حتى مثولك بين يدى لم تكن قطعت أسبابك بغرائز الأرض!

- لم أكن قد أفقت بعد.

- عذر أقبح من الذنب، فيم تأمل؟

- آمل أن أندب مرشدا!

- هل لديك دفاع عن سلوكك فى الأرض؟

- نعم، لقد بدأت تاجرا صالحا، وما أطمعنى فى الناس إلا ضعفهم وتهاونهم ونفاقهم، فاستعذبت القوة والطغيان ولم أجد رادعا.

- إنهم سيعاقبون على ضعفهم وتهاونهم ونفاقهم كما ستعاقب على استغلالك لحالهم.

- وقتلى بيد ابنى الحقيقى ألا يكفر عنى سيئاتى؟

- لا قيمة لهذه العلاقات هنا، وكم قتلت من أبناء وإخوة وأنت لا تدرى!

- على أى حال فأنا لم أخلق طبعى ولا غرائزى.

- إنك مالكها الحر ولم تحدّ حريتك فيها حدود.

فقال بتوسل:

- أحسن دفاعك عنى ولك ما تشاء!

فضحك آبو وقال:

ـ مازلت لاصقا بالأرض، وهو الإثم الذى لا يغتفر!

ـ ماذا تقول عن المحاكمة؟

ـ لقد انتهت المحاكمة يا قدرى، وقضى عليك بالإعدام.

وسرعان ما تلاشى قدرى الجزار!

٢١

وتلقى آبو رءوف وهو متلفع بسحابته البيضاء، وجرى تعارف قصير فتجلى التساؤل فى عينى رءوف. وقال له آبو:

ـ أهلا بك فى السماء الأولى.

ومضى يزوده بالمعلومات الضرورية، ثم سأله:

ـ كيف جئت إلى هنا؟

ـ قتلت فى معركة.

ـ ولكنك قتلت قاتلك أيضا.

ـ هاجمته وأنا مطعون، لا أدرى شيئا بعد ذلك.

ـ للمرة الثانية تجىء قاتلا ومقتولا.

ـ حقّـــا؟

ـ إنى أعلم ما أقول.

ـ ماذا كان جزائى فى المرة السابقة؟

ـ الإعـــدام..

فتساءل رءوف بقلق:

ـ هل يتكرر ذلك؟

- ماذا تريد أنت؟

- كنت أخوض معركة عادلة وقتلت شيطان حارتنا .

- هذا حـق . .

فتهلل وجه رءوف وتساءل :

- هل آمل فى البراءة؟

- مما يؤخذ عليك كسلك عن طلب العلم!

- ما أقسى الظروف التى عانيتها!

- هذا حق ولكننا نقيم الفرد من خلال صراعه مع ظروفه .

فتجلى الأسى فى وجه رءوف ، فقال آبو :

- إنك ولد طيب ولكن الصعود إلى السماء الثانية مطلب عزيز .

- ألا يشفع لى ما فعلت؟

- لقد سمع كل شىء ، وصدر الحكم بندبك مرشدا .

فسلم رءوف بالحكم راضيا فقال آبو :

- بشرى أخرى ، ستندب لإرشاد عانوس .

- ضابط الشرطة؟

- أجل ، وسلوكه يبشر بالخير مما يضمن لك عاقبة سعيدة .

- هى السماء الثانية فيما أعتقد؟

- أجـــل .

- أهى الجنة الموعودة؟

فابتسم آبو وقال :

- توجد سبع سماوات منذورة لخدمة أهل الأرض فلم يئن الأوان للتفكير فى الجنة!

- وكيف يتم الصعود من سماء إلى سماء؟

ـ من خلال المحاكمات المتتابعة . .

فتساءل رءوف فى ذهول :

ـ وهل نعفى من الكفاح بعد السماء السابعة؟

فابتسم آبو وقال :

ـ هذا ما يقال عادة على سبيل التشجيع والعزاء، ولكن لا يوجد عليه دليل واحد!

ومضى به فى انسياب عذب غنائى، يغوصان فى أمواج مقطرة بيضاء، فوق خضرة متألقة لا حدود لها .

الحب فوق هضبة الهرم

١

أريد امرأة. أى امرأة.

إنها صرخة مدوية، انبعثت أول ما انبعثت من جوانحى على هيئة همسات من الذهول. همسات من الأنين. همسات من الغضب. ثم انفجرت صرخة مدوية. ما هى بالأنانية. ما هى بالبهيمية. ما هى باللامبالاة. إنى أزعم بأنى مواطن بدرجة مقبولة، بل إنى أيضا إنسان بدرجة لا بأس لها. رأسى شهد حوارا طويلا عن الفقر والتخلف والسلام والديمقراطية والتموين والمواصلات والطرق. به مضغ أيضا لهموم الأسرة الكبيرة كالصراع بين الشرق والغرب، تلوث البيئة، نضوب المواد الأولية، العلاقة بين العالم المتطور والعالم الثالث، احتمالات الحرب النووية. إذن فالوعى آخى بينى وبين المواطن والإنسان. غير أننى لم أعد أفكر بشىء من ذلك. أو أن تفكيرى به فتر وتقهقر وذاب فى اللامبالاة. أنجم ذلك عن خمود فى العاطفة أو الفكر أو التعلق بالحياة؟ كلا وأقسم على ذلك. المسألة أننى ما إن ختمت حياتى المدرسية حتى التحقت بالوظيفة ومن ثم خبرت الفراغ والبطالة. عند ذاك تضخمت همومى الشخصية استأثرت بوعيى كله، ركبتنى، اجتاحتنى، استعبدتنى، أصابتنى بالهوس. باتت أى مشكلة سواها ترفا، لهوا، سخفا. الجنس أصبح محور حياتى وهدفها. انقلب وحشا ذا مخالب وأنياب. قوة مطاردة مهددة. يطالب بالممكن ويطمح إلى

المستحيل. خلق منى كائنا جنسيا خالصا. ذا حواس جنسية، وأخيلة جنسية، وآمال جنسية، وأحلام جنسية. على ذلك فإننى أبعد ما يكون عن الاستهتار أو المجون، رافض للإباحية وفلسفاتها. أروم الحياة الشرعية المستقرة. ألتمس إليها الوسيلة بلا شروط متهورة أو طموح كاذب أو طمع قبيح. أنشد حقّا حيويا أوليا لا أدرى كيف أهتدى إليه.

ولكن من أنا؟

٢

على عبد الستار، فى السادسة والعشرين من عمرى، ليسانس حقوق، موظف بالشركة أ. د. س. ولدت مع الثورة، ناهزت الحلم عام ١٩٦٧ المشئوم، نلت ليسانس الحقوق عام ١٩٧٤، كنت من حملة الثانوية علمى. حملنى تيار التنسيق إلى كلية الحقوق بشهادتى العلمية. ما خطر لى قط أن أدرس القانون، ولكننى نجحت بقوة الإرادة؛ إكراما لعناء أسرتى المكافحة، خوفا من التشرد والجوع، ولما ألحقت بشركة أ. د. س. عينت بإدارة العلاقات العامة، غنى عن البيان أننى كنت زائدا عن الحاجة. خُيّل إلىَّ أن الزائدين أكثر من العاملين. وقال لى وكيل الإدارة:

- احجز كرسيا.

ثم قال بنبرة ساخرة:

- قد يتعذر ذلك غدا. منظرك مقبول، تصلح للعلاقات العامة، ولكنك ستبقى بلا عمل حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا.

فقلت بهدوء:

- عندى فكرة عن كل شىء.

- عظيم. ستبقى أيضا بلا مكتب حتى نراجع المخازن، أصبحنا فى حاجة إلى حجرة إضافية، لماذا لا يسمحون للموظفين الجدد بالبقاء فى بيوتهم مع الاحتفاظ لهم بحقوقهم فى العلاوات والترقيات؟

فقلت بغيظ مكتوم:

- اقتراح وجيه جدّا!

- ولكن لابد من التوقيع فى دفتر الحضور والانصراف.

هكذا التحقت بالخدمة وهكذا استقبلت عهدا من الفراغ المطلق لا خبرة لى به من قبل. فيما مضى استأثرت الدراسة بحيويتى، ولم تخل العطلات من الاطلاع وأنشطة الشباب. إلى ذلك فقد انتفعت بنشأة أسرية دافئة تعبق بعطر الدين والقيم. ولما انبثق الجنس استطعت أن أروضه بالخلق والعمل والأمل. أما فى عصر الفراغ فقد انفرد بى، كما انفرد بى الزمن فى جريانه، وتساءلت متى؟ وكيف؟ جلست على الكرسى كمن ينتظر دوره فى تحقيق. أراقب أقرانى العاطلين، وآخرين يذهبون بالأوراق ويجيئون، وامرأتين كهلتين متزوجتين، بين نوافذ مغلقة لصد تيار الخريف البارد، فى جو فاسد بأنفاس البشر والسجائر، ومن زجاج النوافذ أتطلع إلى شرفات العمارة المقابلة مترقبا ظهور أنثى. وطيلة الوقت أتخيل مناظر جنسية ومواقف، وأخوض مغامرات غاية فى البراعة والعذاب. وسمعت حوارا بين الوكيل وزميل له من معارفه:

- كيف وجدت الفراغ؟

- لا يطاق.

- على أيامنا كانت الوظيفة حلما عزيز المنال، فاذكروا نعمة الله عليكم.

ـ وما قيمة النقود؟

ـ هى خير من الشارع!

تبادلت مع الزميل، عقب ذهاب الوكيل، نظرة شاحبة مثل جو الحجرة وقلت له:

ـ هنيئا لنا فنحن محسودون..

وتعلمت أن أتسلل إلى شارع قصر النيل مع الضحى. تعلمت الصعلكة. إنها مسلية ومفيدة ومنشطة فى الجو الآخذ فى البرودة. وهى مضحكة أيضا وهى تخوض فى بحر متلاطم الأمواج من البشر والسيارات والأصوات المزعجة. طابعه ـ الشارع ـ الضيق والعصبية والكبت. كل شىء يريد أن ينطلق ويعجز عن الانطلاق يستوى فى ذلك الإنسان والسيارة. الكبت والقهر والتذمر. الطريق يعانى من أزمة جنسية مثل أزمتى. إنه يفتقد الشرعية والحرية والإشباع. ومع ذلك فهو مغطى بالتراب كأنه يتهادى فى مدينة خيالية. ولكنى لم أعن إلا برصد النساء. هن همى وشغلى وحياتى ومماتى. وجعلت أبل ريقى الجاف بمضغ اللبان. وتنتقل نظراتى المحمومة من السيقان إلى الصدر إلى الأعين.

وكدت أفقد حياتى ذات مرة. كنت أهم بعبور الطريق حين اقتحمنى صدر ناهد فسحرنى واستولى على.. قذف بى فى أعماق الهو. اندفعت إلى العبور دون أن ألتفت يمنة كما ينبغى لى. وإذا بسيارة تنقض علىَّ كالقذيفة. نظرت نحوها فأيقنت بالنهاية. لا وقت للرجوع ولا للتقدم. استسلمت استسلاما نهائيا وتقوس ظهرى لتلقى الضربة القاضية. تجلت لى حقيقة الموت لا كفكرة مجردة مسلم بها ولكن كشعور يملأ الوجدان بثقله وقوته وإقناعه. صرخ بى أن هكذا أجىء عندما تقرر ذلك وهكذا تنتهى الحياة فى غمضة عين. خُيِّل إلىَّ

أنى رأيت وجهه مجسدا فى اللحظة الخاطفة التى لا يكشف عن وجهه إلا فيها. وحيال نظرته الواثقة مر بسرعة البرق شريط حياتى من المهد إلى اللحد. لا وجهه أدرى كيف أصفه ولا حياتى أدرى كيف رأيتها مجتمعة فى أقل من ثانية. وبلغ الخوف الدرجة التى يفقد فيها الشعور بذاته. لكنه اختفى بمعجزة. انحرف السائق بالسيارة ببديهة مذهلة فصعد الطوار مهددا حيوات وأوشك أن يصطدم بالجدران. ماذا حدث لى؟ وماذا حدث للآخرين؟ سبحت فى ذهول وأعفانى من متاعب جسيمة. مرت دقيقة على الأقل قبل أن أدرك أن الطريق كله يلهبنى بنظرات السخط والغضب. ثمة صياح وتعليقات شتى.. السائق لصق السيارة ويقذف بالسباب كالمطر. مضيت مترنحا أفر بنفسى فرارا. كنت أعانى آلام الحياة من جديد. وأعانى من مرورى الخاطف فوق ثلاثة معابر متناقضة هى: شهوة الجنس، ومقابلة الموت، ومفاجأة النجاة. وأحدثت برودة النجاة الملقاة على نيران الفزع أثرا عنيفا تعانق فيه السرور المتألق والحزن العميق.

مضيت أسير حتى وقفت لأسترد أنفاسى بعيدا عن موقع الحادثة. حتى فى ذلك المكان لم أفلت من عينى عامل من عمال الطرق فقال لى بسخط واضح:

- مسطول؟.. بسبب أمثالك يتعرض السواقون المساكين إلى متاعب المحققين، لا تنس أنك مدين بحياتك للسائق..

تضاعف ضيقى وقلت كالمعتذر اتقاء لسخطه:

- إنها الهموم.

فصاح محتجا:

- الهموم؟!.. ماذا تعرفون عن الهموم؟!

ذهبت مبتعدا وقد نسيت أزمتى الجنسية وقتا غير قصير. ولكنه غير طويل أيضا. حذرت نفسى من سحر المناظر. وقلت لنفسى إنها التعاسة

حقّا أن يفقد الإنسان حياته لسبب كهذا. إنها محنة. ولكن ما العمل؟ لا يغيب عنى ما يقال عن الزواج وتكاليفه. المهر والشقة وخلو الرجل. يلزمنى قرن من الزمان لأقتصد نفقات زيجة عادية. إنه طريق مسدود تماما. أجل، إن الأيام تمضى والصبر يفقد ولذلك هان علىّ - رغم تقاليد تربيتى الراسخة - أن أفكر فى «الحرام» كضرورة لا مفر منها دفاعا عن صحتى الجسدية والنفسية. شاورت فى ذلك صديقا قديما من أهل الخبرة فقال لى:

- الفرص أكثر من أن تحصى.

ولما آنس منى إقبالا شديدا سألنى:

- هل عندك فكرة عن الأسعار؟

ومضى يستعرض الفرص والأماكن والمراتب ويذكر الأسعار حتى قلت فى ذهول:

- غير معقول!

فقال باسما:

- العرب والتضخم والانفتاح! هل أدلك على أرخص سبيل؟ فسألته بلهفة فقال:

- لعله الزواج!

وقلت لنفسى: «إنه الحزن ولا شىء إلا الجنون».

٣

أسرتى أيضا مصدر هم لى لا ينقضى. فى متاعبها الظاهرة ما يكفى فيمنعنا الحياء من نبش متاعبها الخفية. أبى يقترب من سن المعاش فنحن فى سباق مع الزمن. أمى كيميائية، لأنها درست الكيمياء فحظها

من التعليم وقف بها عند الابتدائية، ولكن للأعاجيب التى تصنعها لتوفر لنا الطعام اليومى. وهى تقلب الملابس وتصبغها وترفوها وتجددها وتجعل بعضها ملكية مشاعة، والبعض الآخر ملكية متوارثة وتصنع من البطاطين القديمة أروابا للأيام الباردة. والمساعدة التى جاءت نتيجة لالتحاقى بالعمل التهمها الغلاء المتصاعد. . وإنى أنظر إلى شقيقتىَّ مها (الآداب) ونهى (الثانوية العامة) برثاء، ويحزننى منظرهما البسيط المتقشف، إنهما محرومتان من أشياء تعتبر فى سنهما ضرورية لا كمالية، وممنوعتان أيضا من الشكوى، التى تضيق بها أمى فيرتفع صوتها الحاد:

ـ حالنا أفضل من غيرنا ألف مرة.

وعلى ذلك فإيجار شقتنا قديم دون الأربعة الجنيهات بقروش، ومهما قيل فى شارع شمردل بروض الفرج فهو مسقط رءوسنا جميعا. لذلك لا يكاد أبى ينعم بضحكة صافية. ودأب على تذكيرنا بمصيره فيقول:

ـ لم يبق إلا عامان ثم المعاش!

وينظر إلى شقيقتى ويقول:

ـ النجاح. . النجاح. .

لقد نحل الرجل كأنما يجف رويدا رويدا، وزاد من ضآلته قصر قامته، ولم يكن يبقى أثر من وسامته الأصلية. الوسامة خاصية لأسرتنا مثل الفقر. وهو لا يدخن، كما انقطع عن المقهى منذ أعوام. وكما يقال، فهو من البيت إلى وزارة المواصلات ومن وزارة المواصلات إلى البيت. وتسليته الوحيدة يجدها فى تبادل الزيارة مع جار قديم ـ مدرس قديم ـ مدرس لغة عربية على المعاش ـ يسامره ويستفتيه أحيانا فى بعض الشئون الدينية. وكان يقول:

ـ منذ أعوام كان رجل مثلى ذو مرتب يجاوز الستين جنيها شهريا يعد من الموظفين المنعمين، ولكن الدنيا جنت . .

وكان مما يحز فى نفسه أنه ضيع فرصة زواج لا بأس بها على مها . يومها قال بأسى :

ـ ما باليد حيلة، لكن المهم هو العلم والعمل، بعد ذلك تتحسن الظروف والأحوال . نحن لا نملك بالكاد إلا قوت يومنا .

فقلت له :

ـ الأسعار ترتفع ونحن ننخفض .

فقال باسما ابتسامة لا معنى لها :

ـ كنا طبقة وسطى فأصبحنا من الطبقة الدنيا . .

فقلت بحدة :

ـ نحن الفقراء الجدد فى مقابل الأغنياء الجدد .

فحدجنى بنظرة تصدنى عن الاسترسال وقال :

ـ لا تستسلم للسخط فهذا ما يزيد الحياة تعاسة وحذار أن تردد ذلك أمام مها ونهى!

فقلت مصرّاً :

ـ الزواج حق مشروع، ترى كيف يفكران يا أبى؟

فتجهم وجهه وقال :

ـ لقد أحسنت تربيتهما، أمك صاحبة فضل أيضا، نحن أسرة شريفة والحمد لله، وغدا يتوظفان ويبتسم الحظ!

ـ لقد شاهدت برنامجا فى تلفزيون المقهى يقطع بأن المتسولين أحسن حالا منا . .

ـ ولكنهم متسولون ونحن نخدم الدولة!

لم تستطع الأحوال أن تقتلع بقية العزة من نفسه، كما أن أمى تعْبر أحيانا عناد الحاضر متطلعة إلى آمال غامضة وراء الأفق. وقلت مواصلا حديثى:

- إنى أتابع أنباء الأفراح فى الفنادق بذهول.

فتساءل بحدة:

- وأى فائدة تجنيها من وراء ذلك؟ يوجد أغنياء منحرفون كما يوجد شرفاء، ولا شىء يدوم فى هذه الدنيا.

ثم بنبرة أرق:

- أتدرى ما هو حلمى؟

ثم أجاب قبل أن أنبس:

- أن تعملوا ذات يوم فى الخارج، إنه حلم وما هو بالحلم..

٤

الهجرة! إنهم يدعون أهل المهن والحرف وأنا لا من هؤلاء ولا من أولئك. وما فرصة الحقوق؟ إنها نادرة جداً. فضلا عن ذلك فإنى أمقت القانون، وها أنا ذا أنساه فى بطالتى الرسمية دون أسف. وكنت أتسكع فى وسط البلد لا أدرى أين بلغت فى تسكعى عندما لمحت - فى مقهى الحرية - الصحفى القديم عاطف هلال. كان منفردا بنفسه للراحة أو التفكير، فمضيت نحوه بقرار مرتجل وبجرأة لا تعوزنى. وقفت أمامه حتى انتبه إلىَّ فراح ينظر نحوى بعينين مستطلعتين وقد تجلى الكبر فى صفحة وجهه أكثر مما يبدو فى الصور التى تنشرها الصحف له. قلت:

- معذرة عن تطفلى. أنا أحد قرائك..

فتمتم بصوت محايد :

ـ أهــلا .

ـ تسمح لى بدقيقتين من وقتك الغالى؟

ـ تفضــل .

جلست ثم قلت :

ـ حرصا على وقتك سأدخل فى الموضوع رأسا . المسألة أنى واقع فى أزمة شديدة . .

غامت نظراته بغشاء خفيف من الفتور فخشيت أن الذى تبادر إلى ذهنه أنها أزمة مالية وأننى سأطالبه بمعونة ، فقلت بصراحة :

ـ إنها أزمة جنسية !

توارت الغشاوة وراء يقظة طارئة وتساءل :

ـ جنســية؟ !

ـ جنسية بكل معنى الكلمة .

فما تمالك أن ابتسم قائلا :

ـ لعلك أخطأت الرجل المناسب !

فقلت جـادا :

ـ الرجل المناسب لم يعـد مناسـبا لأمثـالى ، لذلك قـصـدت الرجل المفكر !

فثبت نظارته ليدارى انفعاله وقال :

ـ يبدو لى أنك فريسة تجربة عاطفية مريرة . .

ـ إنى أتسول تجربة فلا أجدها .

ـ شىء جديد تماما .

ـ المسألة بكل بساطة أن الزواج مستحيل وسيادتك سيد العارفين . والانحراف أصبح خيالى التكاليف بفضل إخواننا العرب .

فتجلى الاهتمام فى عينيه فتساءلت :

- هل تصدق أننى بلغت السادسة والعشرين من عمرى ولما أمارس الجنس ولو مرة واحدة؟!

- أصدقك ولو أن شكلك مقبول جدّاً .

- ولكنى مرفوض موضوعا .

قبض على ذقنه فى حيرة وصمت فسألته :

- ما الحل يا أستاذ؟

فتمتم جادا :

- إنها مأساة ولست ضحيتها الوحيد . .

- وما العمـــل؟

- يا له من سؤال!

ثم مواصلا حديثه :

- لا يوجد جواب جاهز ، يمكن أن ننتقد تقاليد الزواج السخيفة وندعو إلى الهجوم عليها ، يمكن أن نتحدث عن واجب وزارة الإسكان ، يمكن أن نتحدث عن مشكلة الإناث . .

- وهل أنتظر أنا حتى يتم هذا الإصلاح؟

- ماذا أقول؟ كم من أجيال أجهضت فى تاريخ البشرية!

. . وكما أن ملايين من الشباب سعدوا بمعاصرتهم لاكتشاف العالم الجديد فقد هلكت ملايين أخر فى خضم الحروب الطاحنة!

- يعنى أنه ليس أمامى إلا تجرع التعاسة فى صبر طويل .

- قد يتغير الحظ بإرادة الإنسان ، إنك مطالب بالتفكير والعمل ، إنك واقع فى شبكة من الظروف المعقدة ، وعليك أن تسأل نفسك : «ما

أفضل سبيل للتصرف فى مثل هذه الظروف؟». وعليك أن تجيب بنفسك . .

فسألته بحنق خفى :

ـ ألا يوجد رأى عند جيل الأساتذة؟

فابتسم قائلا :

ـ دعك من هذا . إنكم لا تؤمنون بأى جيل سابق . ألم تجد ولو مثلا واحدا صالحا لأن تقتدى به؟

ـ تعنـى . .

فقاطعته مواصلا حديثى :

ـ أعرف أسرة حلت مشكلتها بالدعارة!

ـ ويقتنون الشقق والسيارات ولكنه حل مرفوض كما قلت .

ـ عرفت زميلا احترف السطو على الشقق فى أثناء الصيف .

ـ وهو مرفوض أيضا وعاقبته معروفة .

ـ سمعت عن آخر اغتصب امرأة ثم قتلها إخفاء لجريمته . .

ـ لعلك تقصد الشاب الذى طالب شيخ الأزهر بشنقه علانية؟

ـ لا أدرى ، ولكن أما كـان الأجـدر بالشـيخ الأكـبـر أن يقـتـرح حـلا إسلاميا للعاجزين عن الزواج؟!

ـ التشدد فى العقوبة أسهل من إيجاد الحلول .

ـ فما الحل إذن؟

ـ ألم تفكر فى الهجرة؟

ـ لست من أصحاب المهن المطلوبة ولا من أهل الحرف .

صمت الأستاذ قليلا ثم قال :

ـ ثمة رأى أفضله ، إذ إننى مازلت أحتقر الحلول الفردية . . فى فترة

قديمة دأب على ترديد هذا الرأى، وكان وقتها يكتب بقلم يسارى صريح، وها هو ذا يعود إليه فيما يشبه الهمس والاستحياء. وقلت له بهدوء لأخفى انفعالى:

ـ جئتك عارضا أزمة ملحة تتطلب حلا عاجلا، وها أنت ذا تنصحنى بالانخراط فى عمل سياسى من أجل تغيير المجتمع، وعلى ذلك فعلىَّ أن أنتظر حلا لمشكلتى يجىء مع القرن القادم..

وغادرت مقهى الحرية بلا ذرة من عزاء. ولكن هل كنت قصدت عاطف هلال بدافع من ثقة؟! لقد انتزعت الثقة ثم ماتت ثم دفنت. إنهم كذابون.. كذابون.. كذابون.. ويعلمون أنهم كذابون. ويعلمون أننا نعلم أنهم كذابون.. ومع ذلك فهم يكذبون بأعلى صوت، ويتصدرون القافلة..

٥

ما هذه البهجة المنعشة؟

نظرت وحلمت وثملت. اشتعلت النيران وأرهفت الحواس، لبثت فوق مقعدى مؤجلا الانطلاق إلى رحلة التسكع اليومية.

ـ ضيفة؟

موظفة جديدة، ليسانس آداب، اسمها رجاء محمد. سمرتها صافية، ما أندر السمرة الصافية! لا بالنحيلة ولا بالسمينة، فى العينين العسليتين جاذبية محسوسة، عند الابتسام ترتسم غمازتان فى وجنتيها، بينى وبين أن أرفعها بين يدى وأمضى مشكلات تعيى العديد من وزارات الدولة. انفعلت بها كما أنفعل بأى أنثى يستوى فى ذلك المراهقات

والكهلات، البلديات والمتفرنجات، المحتشمات والمبتذلات. انغمس خيالي في مصادر الإثارة. حتى تذكرى شقيقتى لم يهذب من طغيان الرغبة. غبت عن الإدارة ساعة واحدة فصاحبتنى نشوتها الزكية فى الذهاب والإياب. وفى آخر النهار تم تعارفنا فى رزانة رسمية. ورجعت إلى مسكنى بروض الفرج وأنا أقرب ما يكون إلى التعاسة والألم وهما ما يترسبان عادة فى صدرى عقب الرؤية المؤثرة. فى ذلك اليوم اختلست أكثر من نظرة من مها ونهى. جميلتان بلا ريب ولكنه جمال ملقى فى سلة المهملات. بدتا لى متقشفتين صابرتين. تموت الشكوى وراء شفتيهما الممتلئتين. وسألت مها:

ـ هل تعرفين فتاة من كليتك اسمها رجاء محمد؟

فتساءلت ساخرة:

ـ كيف أعرف ونحن أكثر من الجيش عددا!

ـ التحقت بإدارتنا اليوم.

فتساءلت نهى بمكر:

ـ لم تسأل؟

فقلت بتحد ساخر:

ـ كيف لا وقد توافر لدى المهر وخلو الرجل؟

فقالت مها:

ـ ادع الله أن يكون أبوها من شارع الشواربى فلا يطالبك بمليم!

فقلت ضاحكا:

ـ الشواربيات للشواربيين!

قرأت فى دعابتها أحلاما خفية، ونحن عادة نتحادث بحذر متأثرين بجو بيتنا المتشدد. أبى، وأمى أشد منه. وأمى متفائلة جدًّا رغم عنائها الدائم. وهى سعيدة بأنها حصنتنا ضد استهتار الزمن. وفى تقديرى أنه

سيسعى إليهما ذات يوم - خاصة بعد التحاقهما بالعمل - زوجان محترمان متقدمان فى السن والقدرة المالية فيهيئان لهما الحل الممكن. إنه زمن الكهول والأوغاد.

٦

ما هذه البهجة المنعشة؟

لقد وهبتنى ابتسامة. مضيئة وبريئة كالوردة اليانعة. تبادلنا الكلمات عند كل مناسبة ثم جادت بالابتسامة. خلقت الابتسامة حياة جديدة. غلفت الانفعال البهيمى بعذوبة صادقة. نمت الشجرة وتفرعت وتعذر أن تنعت بصفة واحدة. وتساءلت: أهكذا تتحول الغريزة إلى عاطفة؟ وكنت أخلق المجال تلو المجال للحديث؟ قلت لها:

- حذار من البطالة!

فقالت بحيرة:

- إنهم لا يعهدون إلينا بعمل.

- ستنسين ما تعلمته.

- العمل نفسه هنا مقطوع الصلة بما تعلمته.

- ماذا كان تخصصك؟

- التاريخ.

- لولا ضوضاء المكان لاقترحت عليك القراءة.

- لا أحب القراءة إلا نادرا.

- جيل التليفزيون؟

فضحكت بصوت غير مسموع وقالت:

ـ ليس تمـامـا.

ـ وحذار من الملل.

ـ اليوم طويل حقّا، ماذا تفعل أنت؟

ـ أتسكع وسط المدينة..

ـ لا يناسبنى ذلك.

ـ لا مفر من أن تجديه مناسبا ذات يوم.

ـ المهم ألا نعتاد الكسل!

فقلت بأسف صادق:

ـ كنت طالبا مجتهدا، حتى العطلة السنوية لم تخل من نشاط واطلاع. أما اليوم فقد أصبح التسكع مذهبى.. كيف تمضين وقتك؟

ـ لى أخوات وصديقات، هناك التليفزيون دائما، وأحيانا السينما أو المسرح.

لم يعد فى الدنيا ما يستأثر بوعيى أكثر منها. لها الغريزة والعقل أيضا. ومن عجب أن مظهرها انتبهت إليه أخيرا نسبيا. تعاملت مع المضمون قبل الشكل. وعندما حدثتنى عن السينما والمسرح أدركت أنها تطل على مستوى أرفع، عند ذلك ركزت على البنطلون الرمادى والحذاء ذى الرقبة والبلوزة المزركشة والجاكتة الجلدية. أنيقة وثمينة. ترى ما وراء ذلك؟ الزمن يطرح احتمالات شتى. وإنى أحلم بالزواج ولكنى أرحب بالفرص. عاطف هلال ذو مال وبنين فهو يحتقر الحلول الفردية! وهو لم يصل إلى مركزه المرموق إلا بحل فردى انتهازى. ووجدتنى أتذكر عهد الدراسة. أتذكر التيارات التى انتظمت الطلبة. أبناء الأغنياء الذين ينعمون بالاستقرار ولا يهتمون كثيرا بالدراسة.

فقراء يحلمون بالشهادة من أجل الوظيفة. متمردون يضطربون فى عوالم الأحلام ويرفضون كل شىء. كنت فى مكان وسط بين الصنف الثانى والثالث. أحلم بالوظيفة إكراما لعناد أسرتى ولكن للمتمردين الإعجاب والتأييد. كثيرا ما يتعرضون للتحقيق والمطاردة، ومنهم من انتهى إلى السجن. ترى إلى أى فريق تنتمى رجاء؟ على أن الاحتمالات أوسع من ذلك. وإنى أريدها من أى سبيل ممكن وإن ظل الزواج حلمى المنشود. لذلك لم أدع فرصة تفلت لتوثيق مودتنا حتى نطق لسان حالى بما أحلم به. وتشجعت ذات مرة فدعوتها إلى لقاء ضمن رحلة للتسكع..

٧

ما هذه البهجة المنعشة؟!

فاضت نفسى بهذا المعنى وأنا أراها مقبلة نحو موقفى أمام الأمريكين. فى تلك اللحظة شعرت بأننى بت من كبار العاشقين، فعاهدت الله ألا أسىء إليها ما حييت قط. غصنا فوق أريكتين جلديتين يفصل بيننا خوان معدنى. وضعت حقيبتها السوداء على طرف الخوان وراحت تمشط بعض خصلاتها كما رحنا نتبادل النظر فى هدوء وحب استطلاع. طلبنا الشاى ليدفئنا فى الجو البارد وشملنا من بادئ الأمر تفاهم حميم. لا ظل من الغموض يطرح نفسه على الدعوة من جانبى والتلبية من ناحيتها. كلانا ناضج ويعرف ما يريد. وإن تكن صداقة فهى واضحة الهدف. قد تعنى من جانبى ميلا وربما حبا، وبحسبها أن تعنى من جانبها أننى موضوع صالح للتجربة. ألا يعنى ذلك القبول من ناحية المبدإ؟! سألتنى:

- هذا مكان تسكعك؟

فقلت وأنا أقدم لها وعاء السكر :

- التسكع فى الشوارع ولكنه لا يصلح للقاء .

- وكيف تطيق الزحام؟

- إنها القيامة ولكنها خير من القعود ست ساعات فوق مقعد خشبى . .

فابتسمت قائلة :

- إنه نوع من العقاب ولكن الزحام لمثلى غير مأمون!

- ماذا تركبين فى الذهاب والإياب؟

- نحن نقيم فى شارع الشهيد عبد الملك فيما وراء دار القضاء العالى فلا حاجة بى إلى الباص . .

ثم مواصلة حديثها بسرعة :

- لولا ذلك ما قبلت الوظيفة!

فقلت بقلق :

- إذن فأنت غنية!

- أبدا ، أبى موظف ، موظف كبير إذا شئت ، ولكن ذلك لم يعد يعنى شيئا .

وجدت فى قولها متنفسا للراحة وقلت :

- الحال من بعضه حتى وإن لم يكن متطابقا .

وانتهزت الفرصة فقدمت لها صورة أمينة لأسرتى متوخيا الصدق فى الأمور الجوهرية ودون تطرق إلى التفاصيل الحرجة ، ثم سألتها :

- لك إخوة؟

- ثلاث بنات كبراهن فى كلية الطب .

ـ الحق أن الحياة عبء ثقيل .

فأحنت رأسها الرشيق مؤمنة على قولى ، فقلت :

ـ خاصة للشرفاء .

ـ كان أبى «محمد جاد» محاميا مرموقا ، ثم تغير الحال عقب التأميمات فقبل وظيفة مدير الإدارة القانونية بشركة أ . م . د .

قلت لنفسى : «إن مثله جدير بأن يملك مدخرات لا بأس بها فهو خير من الموظف العادى . ليس بالغنى ولكنه ليس بالفقير أيضا ثمة أمل ولكنه ضعيف» . وقلت ملقيا مزيدا من الضوء على موقفى :

ـ أسرتى لن تعرف الراحة قبل أن توظف أختاى ، وأمل أبى متعلق بهجرة ثلاثتنا إلى بلاد العرب .

ـ على أختيك أن يختارا مهنة مطلوبة كالتعليم .

ـ أنت لا تفكرين فى ذلك؟

ـ إنى أمقت هذه الفكرة وأرجو ألا أحتاج إليها أبدا . .

انقبض صدرى بعض الشىء ولكن ذلك دفعنى إلى مزيد من الجرأة فسألتها :

ـ كيف تتصورين المستقبل؟

فتساءلت متغابية :

ـ ماذا تقصد؟

ـ لا يمكن أن تعيشى بلا حلم ما؟

فضحكت قائلة :

ـ أنا لا أحلم .

ـ كل إنسان له حلمه .

ـ حقّا؟ فما حلمك أنت؟

فقلت متماديا فى جرأتى :

ـ الحق أنى أحلم بشريكة حياتى . .

فرمشت كالمرتبكة ولاذت بالصمت ، فقلت :

ـ هذا هو حلمى .

فتساءلت شاردة :

ـ ماذا يمنعك من تحقيقه؟

فلم أدر ماذا أقول اعتقادا منى بأننى قلت كل شىء ، فسألتنى :

ـ لم لا تتكلم؟

ـ قلت ما فيه الكفاية . آن لك أن تتكلمى أنت . .

وإذا بها تقول بجدية تامة :

ـ لقد تعرضت لتجربة غير سارة . .

فحدجتها بنظرة مستطلعة فقالت :

ـ تقدم لى موظف من مرءوسى والدى وفشلت التجربة أمام عقبات لا يمكن التغلب عليها . .

فتساءلت بأسى لم أستطع إخفاءه :

ـ ما هى؟

ـ المهر . . والمسكن . .

فقلت متعلقا بآخر خيط :

ـ ليس التغلب عليها بالمستحيل .

ـ حقّــــا؟

ـ إن يكن بوسع الأب الاستغناء عن المهر ، أو يكون من الممكن إخلاء حجرة فى البيت للعروسين!

فهزت رأسها بأسف مما يعنى النفى . فى الصمت الذى تلا اعترفت بالإخفاق . جاءت مدفوعة بحب الاستطلاع والأمل فتلاشى كل فى هيكل الحقيقة العارية . لعلها تتأسف الآن على ضياع الوقت سدى . ولعلها تفكر فى انتحال سبب لإنهاء اللقاء . وقلت بلا روح :

ـ حسبنا صداقتنا الحميمة .

غمغمت شاكرة . ولم يبق إلا أن نغادر المكان ليرجع كل منا إلى الشركة من طريق .

٨

قلت لنفسى إنه لا مفر من النسيان . لا مفر من الوأد . الأمل والغريزة متعلقان بها ، يتسلطان علىّ بكل قوة ، يستأثران بأحلام اليقظة ، يعذباننى ليل نهار ولكن لا مفر . مازلت فى أول الطريق وهى لا تبادلنى إحساسا أو عاطفة . ما هى إلا فتاة عاقلة تبحث عن زوج مناسب . إنه حق مشروع ورغبة نبيلة . ويبدو أنه لا يحركها طمع ولا آمال جامحة ، إنها عاقلة تماما . لم تجرب الحب أيضا أو هذا ما أظن . داخلنى شعور قوى مؤثر بأننى لن أجد فرصتى فى «العقل» ما فائدة العقل فى عالم لا معقول؟ لا مفر . وعليه فلأتجنب مبادلتها الصداقة ما أمكن ذلك ، ولأهجر الإدارة مبكرا عن العادة . رجعت إلى الفراغ . الفراغ المحتدم بالعذاب والملل . إنه يتجسد لعينى كما تجسد الموت فى مقدمة السيارة ، كائن محسوس ، غير محسوس ، يقطر كآبة ورفضا للحياة . قبضته الخانقة تفشى لى سر المدمنين . مدمنى الخمر والمخدرات والقمار . لكننى محصن بمثالية باهتة وبالفقر . لعل الأوفق لى أن أملأ الفراغ بالسياسة . مازلت على صلة تعارف بالزملاء القدامى . يمكن أن أطوف بهم

للمناقشة والاختيار . شعار عاطف هلال صالح للتطبيق . إنه يدعو كثيرين من ذوى الإرادة ويصلح أيضا لليائسين . إنها مجرد خواطر تعبر رأسى سادرة ولكن أخطر القرارات قد تبدأ من خواطر سادرة . يتسلل إلى النفس كالمزاح ثم ينقلب جداً كل الجد . لكننى أقنع بمداعبة الأفكار . ومداراة الغريزة الطاغية . سيحدث شىء ما فى وقت ما . شىء قريب . أو بعيد . لن تضىء الحياة فى فراغ إلى الأبد . الهجرة أو السياسة أو مغامرة لا تخطر بالبال . الأيام تمضى . الحركة بطيئة فى الشارع ولكن الأيام تسرع . رجاء تحرك أحلام اليقظة . ملكتها فى الخيال بقدر ما فقدتها فى الواقع .

٩

تعرض بيتنا بشارع الشمندل لغزوة قوية . تقدم سباك فى الثلاثين من عمره يدعى أحمد عبد المقصود لطلب يد نهى . قال أبى ونحن مجتمعون فى الصالة :

ـ ما على الرسول إلا البلاغ ، أبوه عامل بالحديد والصلب ، يحمل شهادة صناعية متوسطة ، عمل فى السعودية أعواما خمسة ، يملك شقة فى المعادى وسيارة نصر . .

ـ شملتنا حيرة . وقالت أمى مقطبة :

ـ ليس من مقامنا !

فقال أبى بمرارة :

ـ عم تتحدثين؟ انتهى مقامنا من زمان . .

فقالت أمى :

ـ إنها لم تتم تعليمها بعد ولابد أن تتمه . .

فقال أبى :

ـ إنه يريدها ست بيت .

فقالت أمى :

ـ لم نعدها لذلك . .

فقال أبى :

ـ إنه أسهل من تعلم الطبيعة والكيمياء .

فقلت :

ـ العمل ضرورى لها حتى لا نتركها تحت رحمة المجهول . وتحولت نحو مها متسائلا :

ـ ما رأيك يا مها؟

فقالت بوضوح :

ـ لم نسمع صوت صاحبة الشأن . .

فقال أبى :

ـ الكلمة الفاصلة لها طبعا .

وتلاقت النظرات فوق وجهها حتى عطفت مها عليها فقالت :

ـ أمهلوها لتفكر . .

وقلت أنا :

ـ ثم إنها لم تره .

فتساءل أبى :

ـ يهمنى أن أعرف هل تقبله من حيث المبدإ؟

فقلت بإصرار :

ـ بل هو مقبول من ناحية المبدإ، إنه ينتمى اليوم إلى طبقة أعلى . .

فهتفت أمى :

ـ إنك تخلط الجد بالهزل .

وحدثت الزيارة التقليدية فوجدته مقبول الصورة ولا عيب فى مظهره إلا مبالغة فى التأنق وحساسية بالذات ملفتة للنظر . ووضحت مواقفنا بين رفض من ناحية أمى وحياء شمل ثلاثتنا ـ أبى ومها وأنا . وما أدرى إلا ومها تقول لى ونحن ننتظر الباص صباحا :

ـ نهى موافقة !

ـ من ناحية شكله لا بأس به .

ـ ومن ناحية الموضوع أيضا .

فسألتها بقلق :

ـ أهو قرار أملاه اليأس؟

فقالت بضيق :

ـ فسره كما تشاء . .

وفرضت الموافقة نفسها علينا جميعا ، غير أن أمى قالت بغضب مخاطبة أبى :

ـ المسألة أنك وجدت زوجا لن يكلفك مليما واحدا .

فسألها بمرارة :

ـ هل لديك مال تخفينه عنا؟

ودعوت لها من قلبى بالتوفيق . .

١٠

ما هذه البهجة المنعشة؟!

وأنا أغادر الشركة مبكرا للتسكع، وجدت رجاء كالمنتظرة عند الباب. أقبلت نحوى هامسة فى عتاب حاد:

ـ أين أنت؟ كأنك هاجرت من البلد!

غزتنى فرحة راقصة سمت بى إلى سماوات السعادة. طالما ظننت أنها نسيتنى تماما، وأن عقلها الحكيم قد حذفنى من جدول الاحتمالات. عتابها اقتحمنى كنغمة عذبة مفعمة بالنداء. فيه العتاب والشكوى والرغبة والاعتراف. فيه ما يغير مذاق الدنيا فى ثوان مثلما تغيرها الفصول فى أشهر. فهل يفرّق بين اليأس والأمل إلا خيط الفجر؟!

حوالى العاشرة كنا نجلس بمجلسنا فى الأمريكين. قلت معبرا عن امتنانى:

ـ جزاك الله كل خير فقد أعدت خلقى من جديد..

وتخففت من ارتباكها ناقرة على سطح الخوان بظفر أحمر على هيئة لوزة مصغرة. قلت:

ـ توهمت أن لقاءنا الأول هو الأخير، عزمت على النسيان بأى ثمن، ولكن الحب أقوى من كل شىء.

فهمست باسمة:

ـ ولكنك لا تكاد تعرفنى..

ـ عرفت ما يكفى لخلق الحب فى أقوى أحواله..

ـ خُيِّل إلىَّ أنك نسيتنى تماما . .

ـ تمنيت ذلك، وتبدد هباء ما تمنيت . .

فقالت باسمة :

ـ وها نحن أولاء نلتقى لنتقاسم العذاب!

فقلت بحماس خلقته نشوة الظفر :

ـ مع الحب الحقيقى لا توجد مشكلات . .

ـ حماسك جميل ولكنه عاطفة وليس معجزة .

ـ هل هو فى الأصل معجزة؟ علينا أن نعتبره كذلك، فى أى شرع يجوز أن يفرق بين قلبين أشياء مثل : شقة وأثاث ومهر؟

فابتسمت فى أسى وتمتمت :

ـ إنك تحلم بحياة كالطيور .

فقلت بإصرار :

ـ لدينا الحب والإرادة والحياة التى لا ترحم الأغبياء فلنتعاهد على ألا يفرقنا شىء فى الوجود . .

فتورد وجهها حيرة وسعادة فقلت والنشوة ترقى بى مدارج السكر :

ـ فلنتعاهد!

فهمست :

ـ كما تشاء . . ولكن أما آن لنا أن نفكر؟

فخفت أن أفيق من نشوتى فقلت :

ـ علينا أن نعلن خطبتنا فى الحال!

ـ مـــاذا؟!

ـ أن نعلن خطبتنا فى الحال . .

ـ لو اقتصر الأمر علينا لهان .

ـ علينا أن نقنع الأهل . .

ـ مهلا . . ماذا نقول لهم؟

ـ إننا سنعلن خطبتنا ونحل مشاكلنا بنفسنا!

ـ ولكـــن . .

فقاطعتها :

ـ لكل منا عمله واستقلاله .

ـ ألا نفكر قبل أن نقدم؟

ـ بل نقدم أولا . .

ـ أخاف أن نجعل من أنفسنا . .

قاطعتها :

ـ فلنعلن خطبتنا ، يجب أن نحقق نصرا ما . ولك عليَّ بعد ذلك أن أسطو على البنك الأهلى عند الضرورة!

غادرنا المكان وأنا أردد فى باطنى : «ما هذه البهجة المنعشة؟!» .

١١

يبدو أن رجاء اعتبرت ما دار بيننا دردشة غنائية فأصرت على لقاء ثالث لنناقش قرارنا بهدوء . قلت لها :

ـ رجاء ، إذا استرشدنا بالعقل ، فعلينا أن نسلم بالفراق الأبدى .

كانت تقدم رجلا وتؤخر رجلا . كانت تشاركنى الرغبة ولكنها تخاف العواقب . قلت :

ـ إنى مخلص ، يلزمنى عمر طويل لكى أقتصد المهر ، وثلاثة أعمار لأجمع خلو الرجل ، فإذا لم يكن من التعقل بد فلنفترق .

فقالت بقلق :

ـ سيرون فى سلوكنا ما يقطع بجنوننا!

ـ يلزمنا قدر من الجنون نلقى به عالمنا المجنون . .

ـ يحزننى أننى سأغضب أعز الناس على . .

ـ إما أن نغضبهم وإما أن ننتحر . .

فتفكرت مليا ثم تساءلت :

ـ هبنا فرضنا إرادتنا ، فماذا بعد ذلك؟

ـ لو أن لدى خطة جاهزة ما كتمتها عنك ، ولكن تحملنا للمسئولية سيدفعنا إلى التفكير إلى قهر المستحيل . .

ـ ولو وجدنا الطريق مسدودا؟

ـ الطريق المسدود شعار العاجزين ، ثم ألا يستحق حبنا المغامرة والتجربة؟

وكانت فى صميمها عازمة على المغامرة . .

١٢

خاض كلانا معركة عائلية على تفاوت فى العنف والحرج .

دهش أبى وتساءل :

ـ تخطب؟!!

لكن مرارة الحياة روضته على الاستهانة بما يعده من الأمور الثانوية .

وتساءل مرة أخرى :

ـ أأنت على استعداد؟

فقلت ببساطة :

ـ لا استعداد ولا خلافه .

فقالت أمى :

ـ أنت تعلم أنه ليس لدينا . .

فقاطعتها :

ـ إنى أعرف كل شىء . .

فتساءلت برجاء :

ـ لعل أهلها أغنياء؟

ـ كـلا . .

فتمتم أبى :

ـ قرار خاطئ ولا شك . .

فقلت بإصرار :

ـ لن أعدل عنه .

فرفع الرجل منكبيه قائلا :

ـ أنت حر ، وأتمنى لك التوفيق .

أما رجاء فقد خاضت معركة حقيقية . انهالت عليها الأسئلة وجاءت الإجابات كلها بالنفى . ثار الغضب كما ثار الكبرياء . رميت بالجنون . تدخل أقرباء وقريبات . أصرت رجاء على طلبها بل هددت بإعلان خطبتها خارج نطاق الأسرة .

* * *

كانت تجربة عسيرة أن أمضى إلى عمارة الشهيد عبد الملك وأنا على علم كامل بمشاعرهم نحوى ، وبأنهم يعتبروننى وباء أفلت من المراقبة الصحية . الحق أن مها صدقت عندما قالت :

ـ إن جرأتك تستحق الإعجاب . .

وقد أرهقنى ابتياع الدبلتين ، أما الشبكة فقد اشترتها رجاء ودستها

إلىّ لأهديها إليها فى الحفل الكئيب. ولم تعلق خارج المسكن أو داخله علامة من علامات الأفراح. وندّت الوجوه عن بسمات متكلفة أخف منها العبوس.

وقال لى الأستاذ محمد جاد:

ـ طبيعى أن أتمنى لكما التوفيق، لا تسئ الظن بنا، ستكون يوما ما أبا وتعرف..

أما حرمه ـ أم رجاء ـ فقالت لى:

ـ نحن دائما متهمون، لماذا؟ أيوجد أثاث بلا مهر؟ هل يعيش ابن آدم بلا مأوى؟ أيوجد أب أو أم بلا قلب؟!

إنه صوت العقل. هو ما يعترضنى دائما بجدار صخرى. لم يبق إلا أن نجرب الجنون. إذا صدك العقل عن السعادة فجرب الجنون، أليس ذلك من العقل أيضا؟! ما يستحق اللعنة حقّا هو الاستسلام. ونحن نلقى الإهمال والضياع على حين تتغنى الحناجر بالوعود المعسولة. وتحديت الظلام.

١٣

حققنا الرغبة واستقرت الدبلة فى البنصر. وأثملنا إحساس حميم بأننا بلغنا غاية ما وراءها غاية. وسرعان ما أدركت أننى لم أقطع إلا الخطوة الأولى. أجلنا مناقشة المشكلة استبقاء للصفاء ولكنها استوت على الأفق مثل نذير النشرة الجوية. ولم يحرجنى أحد من أسرتى فيسألنى مثلا: «وماذا بعد ذلك؟». مهما وهى أقربهم إلىّ همست لى يوما:

ـ لعله عليك الآن أن تخصص لى جنيها من مرتبك شهريا؟

فضحكت ضحكة عصبية وقلت:

ـ أتظنين أن توفير نقطة ماء يجدى لملء بحيرة؟

فقالت باهتمام:

ـ أظن أنه فى وسع والدها أن يحل المشكلة.

فقلت بامتعاض:

ـ إنه حقّا موظف كبير ولكنهم أصبحوا جميعا يتبعون كادر الشحاذين، ومدخراته تفى بالكاد بأعبائه، ولعله يستطيع أن يقوم بالواجب إذا قدم الطرف الآخر الشقة والمهر.

ـ إذن فما هى خطتك للمستقبل؟

فقلت ضاحكا:

ـ لا أملك إلا إرادتى!

وغامت نظرتها بالتفكير، ربما فى حالها أيضا، حتى سألتها:

ـ فيم تفكرين؟

فقالت وهى تتنهد:

ـ تمتعوا بشبابهم فى أيام يسر ورخاء ولم يخلفوا لنا إلا الأطلال!

ودأبت على زيارة آل جاد بشارع الشهيد عبد الملك من حين لآخر. أملت أن أظفر بعلاقة صادقة مع المسئولين، ولكن أم حبيبتى تصدت لى هناك كالصخر، وضنت على حتى بالابتسامة العابرة، وما من زيارة إلا وذكرتنى بالواجبات المقدسة، الشقة والمهر. وفى مجلس الأمريكين قلت لرجاء:

ـ الهجرة.. الأمل فى الهجرة..

فسألتنى والحق أنها لم تطرق الموضوع حتى فتحته لها:

ـ ما هى فرصتك؟

ـ عمل قانونى فى شركة ما، إنى أتابع الإعلانات فى الصحف، إنها فرصة نادرة . .

ـ لكنها محترمة .

ـ الحق أنى ما أحببت القانون قط، لقد اقتحمنى مثل حوادث الطريق . .

* * *

إنى أنتظر معجزة. أنتظر عونا من الخارج. خارج ذواتنا، لم أتعلم شيئا ينفعنى. أحمد عبد المقصود يعيش عصره أكثر منى ألف مرة. إنى أتحدى وأحلم ولكنى لا أفعل شيئا. وضاعف من حدة مسئوليتى أن عرف الزملاء فى الإدارة بخطبتنا. انهالت علينا التهانى والأسئلة. هذا السؤال اللعين:

ـ وجدتم الشقة؟

ـ دفعت الخلو؟

ما هو إلا مزيج من الإحراج. تضخمت المسئولية التى أحملها. الأيام تمر. الأسابيع والأشهر. ينظرون إلىَّ كطفيلى يقف عثرة فى سبيل شابة ممتازة. ولم تسكت عنى الأسئلة حتى فقدت أعصابى واختنقت بمشكلتى المستعصية.

* * *

وسألتنى أم رجاء مرة:

ـ حتى متى ننتظر؟

وأفصحت عن مشروع لأول مرة ـ بعد موافقة رجاء سرا فقلت:

ـ هنالك حل ممكن، جهزونا، واعتبروا نصيبى دينا يرد عند الميسرة.

فهتفت الأم محتدة :

- يا له من اقتراح لا أحب أن أصفه! حسبى أن أخبرك أنه مستحيل التنفيذ .

- لمـــاذا؟

فصاحت :

- إنه غير لائق!

همست رجاء برجاء :

- مـــامـــا!

وقلت أنا منفعلا أشد الانفعال :

- لا حيلة لى ولكن لا داعى للإهانة . .

فقالت الأم بحدة :

- افسخ الخطبة . .

فقلت بالحدة نفسها :

- لا أقبل أمرا إلا من رجاء .

فصاحت الأم :

- إن كنت تحبها فابعد عن طريقها!

ولم تكف إلا حين أفحمت رجاء فى البكاء .

١٤

رجعت الكآبة بسمائها الشاحبة وهوائها اللافح المشبع بالتراب . زادها الصيف احتداما ففتر نشاطى الروحى وغطاه الرماد . رغم جرأتى

عانيت حساسية شديدة. تمخض الموقف الباهر لعينى عن أنانية تتجسد كالبلطجة. وقلت لبقايا الحلم الوردى: «لا». لعلها لاحظت كآبتى فى اليوم التالى فى الأمريكين فقالت لى:

- إنى معك حتى النهاية.

ومع أننى تلقيت قولها مثل شربة مثلجة فى يوم قائظ إلا أننى قلت:

- ليبعد الله عنك شر هذه النهاية.

فتساءلت بقلق:

- ماذا حلَّ بروحك؟

فقلت بوضوح:

- ليس الحب أن أضحى بك على مذبح جنونى.

- ما زلنا فى أول الطريق وسوف نجد حلا ما.

- أين الحل؟ المسألة أفظع مما تصورنا وأنت الخاسرة!

فقالت بعتاب:

- أحسبتنى قاصرة؟ لا تعتبرنى ضحية من فضلك.

- هذا هو سر جنونى الباهر، ولكنه هو أيضا ما يملى على ما ينبغى عمله..

- ما ينبغى عمله؟

- لا يجوز أن تبقى خطبتنا أكثر من ذلك بلا حل واضح..

فقالت بانفعال:

- شخص آخر يتحدث، أنسيت..

فقاطعتها:

- لم أنس، كنت مجنونا، لقد أسأت إليك إساءة بالغة، الجميع

يدركون ذلك لا والدتك فقط، الجميع حتى الزملاء، لا شك فى أنك تسمعين وتفهمين.

ـ لا أهمية لذلك . .

ـ نبل وشجاعة ولكنك تسيئين إلى نفسك بلا أمل، رجولتى تأبى علىَّ ذلك، حبى يؤنبنى ويتهمنى، لا . . لا . .

فقالت بحدة:

ـ إنى صاحبة الحق فى القول الأخير.

ـ لى حق أيضا، بل هو واجب، على المجنون ألا يجر الآخرين إلى جنونه . .

ـ كنت فى جنونك أفضل منك الآن ألف مرة . .

فقلت بتصميم:

ـ إنى آسف، ولست فى حاجة إلى أن أؤكد لك حبى . .

فهزنى اليأس، وكنت مصرا بقدر ما كنت يائسا . .

١٥

ما فعلته بنفسى لا يصدق. استيقظت عقب ليلة مسهدة لأرى حقيقة بشعة ترصدنى لتقول لى بصوت فظ: «اختفت رجاء من حياتك». ترامت إلى أصوات الطريق كأنما هى نعى للوجود، نعى لأى معنى. لم أحيا؟! كيف أعاشر هزيمتى إلى الأبد؟! بودى أن أبصق على كل فكرة خطرت وكل فعل نفذ.

قال أبى لى بأسى:

ـ إنى حزين يا على، وددت لو كان بوسعى مساعدتك . .

واغتمت أمى حتى دمعت عيناها .

الحزن يتغلغل فى أعماقى كلها ولكنى لم أجد بدّا من حمل حياتى والمضى بها . واستسلمت لرد فعل غضبى فقابلت وكيل الإدارة وسألته أن أنقل إلى إدارة أخرى مقدما أسباب ذلك . ونقلت إلى إدارة المستخدمين عاطلا كما كنت . وصارعت أشواقى والأيام تمر مثقلة بأنفاس الصيف . رجوت أن يتلاشى الحب مع الزمن ، رجوت أن تحرر هى من القيود كافة لتسترد رونقها البهيج . فى تلك الأيام تابعت بإعجاب مغامرات الإرهابيين فى الصحف . إنهم ينفجرون فى أركان البلد معلنين عن نبض جنين ينمو فى رحم الغيب . انبعثت من قلبى المحطم أخيلة مطلقة مرقت فى الفضاء وغاصت فى أعماق المحيطات . وجعلت أتآمر مع خلايا الأحياء وذرات الجمادات . ولم يخمد الحب ولم يبرد الشوق وتمادت الغريزة اشتعالا .

* * *

وقادتنى قدماى إلى مقهى الحرية ، فلمحت الأستاذ عاطف هلال فى مجلسه . أقبلت نحوه بتلقائية وتوتر مشحونا بالاحتقار . حييته قائلا :

ـ لعلك تذكرنى . .

فرمقنى بنظرة طويلة وشت بعجزه عن تذكرى فقلت :

ـ أنا صاحب المشكلة الجنسية . .

فالتمعت عيناه وقال ضاحكا :

ـ آه ! لا مؤاخذة . . السن والشواغل . . اجلس . .

جلست فراح يقول متسائلا :

ـ لعلك وجدت الحل ؟

فدفعنى العبث لأن أقول :

ـ الحل الكامل . .

ثم مستسلما أكثر للعبث :

ـ سأنضم قريبا إلى أصحاب الملايين!

ـ حقّـــا؟

فقلت بثقة لا حد لها :

ـ بكل تأكيد .

ـ كيــف؟

ـ الأسرار لا تباح!

فهزَّ رأسه هزة الخبرة وقال :

ـ إنها مسجلة فى جدول محفوظ . .

فابتسمت فيما يشبه الطمأنينة فسألنى :

ـ أأنت سعيد؟

ـ طبعـــا .

ـ لأنك مازلت فى أول الطريق .

ـ هـذا حـــق .

ـ أما سمعت عن الذين يربحون الدنيا ويخسرون أنفسهم؟

فقلت كاتما سخريتى :

ـ كيف لا وأنا أحدهم؟!

فقال بنبرة مأساوية :

ـ خسارة النفس لا تعوض .

فقلت منفعلا :

ـ كـــذب .

استاء ولا شك من لهجتى فصمت مقطبا ، فقلت بسخرية :

ـ تحرر من الأكلشيهات لتعرف الدنيا على حقيقتها .

فقال متضايقا:

- إنى أعرفها خيرا منك.

فاندفعت أقول محتدا:

- ماذا كنت؟ وماذا أصبحت؟ وثبت فى الوقت المناسب من السفينة وهى تغرق..

تساءل فى انزعاج:

- ما هـذا؟

فقلت مستزيدا فى التمادى:

- أنت أيضا من الذين ربحوا الدنيا وخسروا أنفسهم..

فهتف غاضبا:

- لقد جئت بقصد إهانتى ولن أسمح لك بالبقاء بعد ذلك.

قمت. غادرته دون سلام. وتحت الشمس المحرقة فى الخارج شعرت بانشراح فضحكت. ماذا قلت؟ كيف تأتى لى قوله؟ الحوار من جانبى مرتجل من ألفه إلى يائه. المقابلة تمت بغير خطة سابقة. انتشيت بمرح عارض وأنا أمضى فوق قاعدة راسخة من الألم. وفى صباح اليوم التالى بدأت بعموده اليومى فى الصحيفة فوجدته يتحدث عن الطوفان الجديد، وإنه لن ينجو من الغرق إلا من يلوذ بسفينة المبادئ. الحق أنه ليس أسوأ من غيره، ومقالته تفهم على وجهها الصحيح إذا اعتبرت نوعا من النقد الذاتى الخفى، وإعرابا عن الاغتراب الذى تطوعوا لاعتناقه.

وفى مرحلة متأخرة من رحلة الآلام - وأنا أتسكع على غير هدى - اقتحمنى إلهام منعش. مجهول الأسباب مقطوع الصلة بالواقع، على مقربة من الأمريكين تألق الإلهام وتوهج، دفعنى إلى دخول المكان بقوة واعدة بالمعجزة..

١٦

رأيت رجاء فى مجلسنا كأنها تنتظر. تسمرت أمامها. تلاطمنى أمواج انفعالات متضاربة. مضيت أخرج من ليلى الحالك إلى نهار مشرق. انهمرت فوقى أعذب ألحان الوجود ونشواته. مؤيدة بقوة تستطيع أن تفعل ما تشاء. ارتميت إلى جانبها صامتا. تنفست بعمق لأسترد شيئا من الهدوء. تساءلت بصوت هامس:

ـ ماذا جاء بك؟

فسألتها بدورى:

ـ ماذا جاء بك؟

فقالت بعتاب:

ـ إنك ماهر فى الاختفاء، فلم أر بدّا من الجرى وراءك..

تذكرت آلامى بندم وأسف فواصلت حديثها:

ـ كأنك كنت تهرب من هذا المكان أيضا..

ـ هل ترددت عليه قبل هذه المرة؟

فحنت رأسها بالإيجاب، فقلت:

ـ آسف جدّا.

ـ ما فائدة الأسف؟

ـ سعادتك هى ما كانت تهمنى..

ـ وفرت لى من الشقاء ما يشفق منه العدو.

ـ أما آلامى فلن أحدثك عنها..

فقالت بحرارة :

ـ أرجو ألا تتصرف بغباء بعد الآن . .

فقلت بقوة وإيمان :

ـ لن نفترق أبدا .

فابتسمت بعذوبة ، فقلت :

ـ لن نتراجع حيال عقبة .

ـ لم أكف عن التفكير لحظة واحدة .

فهتفت :

ـ هذا هو الخطأ !

ـ مـــاذا؟

ـ التفكير فى مثل حالنا هو خصمنا . .

فابتسمت قائلة :

ـ لقد جربنا الارتجال؟ !

ـ ونجحنا ، ولم نفشل إلا بالإذعان للتفكير .

قالت بقلق :

ـ أخشى أن نجعل من أنفسنا أضحوكة للدنيا . .

فقلت بتصميم وهدوء :

ـ لنتزوج فى الحال !

فرمقتنى بذهول فكررت :

ـ فى الحال .

ـ أتعنى ما تقول؟

ـ بكل جدية ، ودون الرجوع إلى أحد .

فتساءلت بحيرة :

ـ ثـم مـاذا؟

ـ أجلى هذا السـؤال إلى ما بعد الزواج وسوف يتبدى لنا فى صورة جديدة تماما . .

ـ ربما وجدت فى الزواج ما وجدت فى الخطبة من قبل .

ـ إنى أعرف الآن معنى الفراق كما أعرف قيمة الجنون .

فتفكرت فى قلق واضح ثم تمتمت :

ـ الناس . . الناس . . التعليقات . . أف . .

فقلت مترفقا بها :

ـ لنبدأ فى سرية مؤقتة . . أيريحك هذا؟

فتساءلت فى حيرة :

ـ لم تكره التفكير؟

فقلت بسخرية :

ـ أى تفكير؟ . . ما هو إلا ترديد لأصداء ماض علينا أن نحطمه . .

١٧

سرنا معا متلاصقين بعد أن تقرر مصيرنا بأجرإ خطوة أقدمنا عليها فى حياتنا . كنا نشعر بدفء داخلى رغم برودة الخريف المودع كما شعرنا بطمأنينة ونحن نخوض دنيا لم تعترف بعد بنا . بيد كل منا وثيقة ملكية تشمل الروح والجسد . وبقلبى شعلة استأثرت بجوارحى فتناسيت الأمور المعلقة .

سألتنى فى مرح :

ـ كيف تشعر؟

فقلت دون تردد :

ـ بأننى انتزعت المسئولية من أيدى المغتصبين . .

ـ أظن أن التفكير الآن لا يعتبر جريمة . .

ـ يوجد الآن ما هو أهم . .

التفتت نحوى متسائلة :

ـ ما هـــو؟

ـ أن نجد مكانا نرتاح فيه ولو ساعة من زمان . .

فقالت وهى تدارى ابتسامة :

ـ المسألة أكبر من ذلك .

ـ أجل ، ولكنى أسير هذه اللحظة ، الأخيلة المرحة تطاردنى .

فقالت بعتاب :

ـ إنى أسيرة أفكارى أيضا . .

ربَّتُّ يدها وقلت بعجلة :

ـ لا مستحيل بعد اليوم ، ممكن أن تقنعى نفسك بالتعليم وأقنع نفسى بالقانون ثم نهاجر . .

ـ طالما كرهت ذلك . .

ـ أنا مثلك ، فلنعمل ما نكره لنعيش ما نحب . . لكن يلزمنا مكان!

ـ مكان . . مكان . . أنت تضحكنى . .

فقلت وأنا أتصفح وجوه العمارات :

ـ فندق . . بنسيون . .

فهتفـت :

ـ ماذا؟ . . لا حقيبة معنا!

وقلت بجدية محمومة :

ـ معنا تحقيق الشخصية والوثيقة الشرعية . .

ـ سلوك غريب . .

ـ لا تتعلقى بالأوهام الفارغة ، سترجعين إلى بيتك فى الوقت المناسب !

فقالت وهى تدارى ابتسامة :

ـ إنك تفكر مثل مراهق !

فقلت مدافعا عن نفسى ومتذكرا فى الوقت نفسه لتاريخى الأليم :

ـ ولكنى أتصرف كرجل . .

١٨

لقاءات نهارية ، قصيرة العمر ، متباعدة على قدر ما تسمح به الميزانية . لأول مرة أشعر بأننى أنضج كإنسان وكعاشق . لم تشاركنى رجاء أفراحى بنفس القوة . حثنى ذلك على مواجهة الحقائق . قلت لها :

ـ الهجرة هى طريقنا الواضح .

فقالت بعصبية :

ـ لا أدرى كيف سأتحمل العمل الجديد .

فقلت رغم مشاركتى إياها فى موقفها :

ـ هو خير من البطالة . ثم إنه سيهيىء لنا عش الزوجية .

ـ العمل بلا حب نوع من السخرة .

فقلت برجـاء :

ـ ثم يجىء الحب مع النجاح وهناء القلب . .

فتساءلت بقلق :

ـ ثم من أدرانا أن ذلك الهدف الثقيل ميسور فى النهاية؟

فقلت بقوة أغطى بها قلقى :

ـ أعتقد أنه غير مستحيل ، ثم إنه توجد تجارب أخرى . .

أدركت عند ذلك أنى أسـير بهـا نحـو الفندق فـشـدتنى إلى شـارع ماسبيرو وهى تقول :

ـ كرهت التردد على الفندق . .

فرمقتها بعتاب فقالت كالمعتذرة :

ـ الجميع يدركون لماذا نجىء ، ما أفظع نظرات الموظفين والخدم!

ـ ألا تستطيعين أن تقلدينى فى عدم المبالاة بالآخرين؟

ـ فعلت الكثير ولكننى أعجز عن مجاراتك!

انزعجت حقّا وقلت وكأنما أحادث نفسى :

ـ لا أطيق العودة إلى العذاب!

ـ وحتام تسدل على شرعيتنا ستار السرية؟!

ـ ما اخترتهـا إلا تشجيعـا لك وإنى مستعـد لإعلانهـا اليوم قبل الغد، أعلنيها وقتما تشائين ودون الرجوع إلى . .

وخشيت ألا تمضى الأمور بالعذوبة التى مضت بها .

١٩

دعيت إلى مقابلة مدير عام العلاقات العامة. أول دعوة من نوعها منذ التحقت بالخدمة. ولماذا يدعونى وأنا رجل عاطل؟ طالعنى بوجه متجهم أثار أعصابى وبخاصة أنه من الجيل الذى أناصبه العداء.

- حضرتك على عبد الستار؟

- نعم.

- ما عملك؟

- لا عمل لى.

- ألا يكفى أن تستبقيك الشركة رغم أنك زائد عن الحاجة حتى تكافئها بارتكاب الجرائم فى رابعة النهار؟

فقلت بغضب وذهول معا:

- إنى معين بحكم قانون عام فلا فضل لأحد علىَّ، ثم إننى لست مجرما فلعلك أخطأت الشخص المطلوب.

فتساءل بهدوء الظافر بفريسته:

- من إذن الذى يصحب الزميلة رجاء محمد إلى فندق «العش الجميل»؟

انشق قلبى تحت ضربة ذهول داهم فتساءل ساخرا:

- أرأيت؟!

تمالكت نفسى بسرعة وقلت بتحد:

- سيادتك مخطئ، ومبلغك مخطئ أيضا، رجاء زوجتى الشرعية!

ـ مــاذا؟!

ـ إليك الدليل .

قرأ الرجل الوثيقة بدهشة ، ثم تفحصنى باهتمام وقد لانت ملامحه وتمتم :

ـ مدهش ، ألا يعلم زملاؤك بذلك؟

ـ كلا ، ثمة ظروف جعلتنا نفرض سرية مؤقتة على علاقتنا!

ـ ولماذا تترددان على الفندق بتلك الحال المريبة؟

ـ المسألة بكل بساطة أننا لا نجد مكانا!

دارى الرجل ابتسامة خفيفة وقال :

ـ أنا مضطر إلى إعلان زواجكما كتفسير ضرورى لعدم إحالتكما إلى إدارة التحقيقات!

فسألته بسخرية خفية :

ـ هل يمكن أن تدلنى مشكورا على شقة؟

فأجابنى ببرود :

ـ لست سمسارا يا حضرة!

٢٠

أعلن الزواج ، لا مفر . فى بيتنا أحدث دهشة ولا شىء سواها . هتفت أمى :

ـ غير معقول أن تفعل ذلك من وراء ظهورنا .

أغرقت مها ونهى فى الضحك ، أما أبى فقال :

- أنتم جيل مجنون، قدم لى سببا واحدا يبرر تصرفك المضحك.

فقلت معتذرا:

- كانت السرية إكراما لها!

- أنت أحمق، وهى أيضا حمقاء. لولا ضيق شقتنا لدعوتك للإقامة معنا.

- إنى مدرك لذلك كله.

فتساءل ساخرا:

- ماذا يغريكم بالزواج؟ ألا تتعظون بما حصل لنا؟

فقلت عابثا:

- سعادة بيتنا هى التى أغرتنى بما فعلت.

أما بيت زوجتى فقد اجتاحته حريق. استنتجت ذلك من كلمات رجاء الموجزة ومن امتعاضها الدائم. تخيلت الطعنة وأثرها الدامى فى قلبى الوالدين. قالت لى:

- إنى أعيش فى بيت يرفضنى تماما. فدفعنى قولها إلى الارتطام بمسئوليتى فقلت:

- تعالى إلى بيتنا مؤقتا!

ولكنها لم تنبس فقلت:

- سأجد الإعلان الذى أبحث عنه فى الصحف، لابد أن أعثر عليه ذات يوم.

فقالت بضيق:

- ومن ناحيتى فالتعليم أحب إلىَّ من هذه الدنيا.

فقلت بإصرار:

ـ لو اقتضى الأمر أن أتعلم حرفة فسأتعلم حرفة .

* * *

وكان رفضها لفكرة الفندق قد أرجعنى إلى حيرة العذاب . ورغم أن الأمل فى الرسو على بر ـ بعد تقبلنا للهجرة ـ بات ممكنا إلا أن عذابى لم يبرد . ومضيت بها ذات مساء لا يخلو من دفء إلى هضبة الهرم . لم يبق الهلال الوليد فى السماء إلا قليلا ، ثم انتشر ظلام مريح . عن يميننا ويسارنا مرقت الأشباح إلى الخلاء وذابت فى الظلمة . طوقتها بذراعى بحنان وشوق ونحن نتعثر على مهل حتى توقفنا تماما . ملت نحو أذنها لأهمس لها بخواطرى المضطرمة ولكنها لكزتنى بكوعها قائلة فى تحذير :

ـ انظر .

رأيت شبحا قادما تبينته شرطيا عندما وقف أمامنا . اضطربت واتجه وعيى نحو الوثيقة فى جيبى . قال الشرطى :

ـ سلام عليكم .

فقلت وأنا أجهل ما وراء سلامه :

ـ وعليكم السلام .

وصمت فانتظرت الخطوة التالية ولكنه لم ينبس ولم يتحرك فقلت :

ـ نحن نشم الهواء ، أنا وزوجتى .

فقال بنبرة واضحة :

ـ متزوج أو غير متزوج ، لا يهم .

فقلت بتحد :

ـ لسنا وحدنا ، الخلاء ملىء بأمثالنا .

فقال ضاحكا :

ـ افعل مثلهم.

زايلنى الارتباك ففطنت إلى مقصده. دسست يدى فى جيبى مستخرجا ورقة من ذات الخمسة والعشرين قرشا ومددتها إليه.

تناولها ثم قرأها على ضوء بطارية ثم رددها قائلا:

ـ مقامك جنيه على الأقل!

ولما ذهب قلت ضاحكا:

ـ أرخص من الفندق بما لا يقاس.

فهتفت:

ـ يا للعار!

فضممتها إلىَّ بحرارة وأنا أقول معتذرا:

ـ إنها ظروف استثنائية لعينة، ولسوف نضحك عليها فى القريب.

وأطلت علينا القرون من فوق الهرم وهى تضرب كفا بكف.

سمَارة الأمير

تبدو ضئيلة جداً، لا لضآلة تكوينها فهى بشهادة الجميع أنضج من سنها، ولكنها لا تكاد ترى فى الحجرات الواسعة والأبهاء المترامية، أما فى الحديقة الفواحة الشامخة فتلوح مثل عصفورة حائرة فى وثباتها المتتابعة فوق ممشى الفسيفساء. فى أوقات الفراغ، العصارى المزخرفة بالظلال، تقف مستندة إلى ضلفة الباب الكبير ترنو بعين إلى أشجار البلح المظلة لشارع سبينالى، وتلحظ بعين الأريكة يجلس عليها البواب وسواق السيارة «على جلال» يعجبها منظر على جلال ببدلته الرسمية، وقامته الطويلة مثل جذع النخلة ولونه الغامق ونظرته الحادة. إنه يلى فى التأثير الباشا الذى لا يضارعه شىء، وهى يروعها كل شىء فى السراى وما حولها، قلبها الغض يجود بالإعجاب لكل شىء، وهى تحب كل شىء، ولم تعد تذكر من الكوخ الذى أواها فى طفولتها برشيد إلا طيفا ذائبا فى ماض مضى وانقضى. حتى والداها سرعان ما نسيتهما ولم يبق من صورتيهما إلا النمط الشائع.

جاء أبوها بها إلى سراى عصمت باشا خورشيد وهى ابنة ثمانية منذ سبعة أعوام وعقب عامين جاءت أمها حاملة نبأ وفاته، ثم أبلغت بعد عامين آخرين نبأ وفاة أمها، فلم يبق من الشجرة إلا أقارب مجهولون لا يحفلون بها ولا تذكرهم. وعند كل نبإ أسود كانت تجهش فى البكاء، وتحاط بعطف ما، ثم يطيب الخادمات الثلاث اللاتى يشاركنها حجرة البدروم خاطرها، ويحذرنها من الاسترسال فى الحزن. التصقت بالسرايا

باعتبارها دنياها الوحيدة. إنها قلعة شاهقة ذات أبراج الزينة وحديقة مترامية، تتوسط شارع سبينالى بلوران بالإسكندرية، وربة الدار الهانم تأنس إليها لإشراق وجهها وطيبة قلبها فتخصها بالقرب وتختارها دون غيرها لتدليك قدميها وساقيها. تعطف عليها لطيبة قلبها وسذاجتها، ونقائها من المكر فكانت الوحيدة فى السراى التى يتهيأ لها فرصة الوجود أحيانا فى اجتماع الباشا بحرمه. وتسمع أحيانا ما يدور بينهما من حديث، بل وما يتبادلان أحيانا من نقار أو شجار، ويسألنها - الخادمات الثلاث - عما تسمع فتشعر بأهميتها وتمضى فى حكى الحكايات.

وكان الباشا وحرمه عجوزين وحيدين. فكريمتهما متزوجة من قنصل يعمل فى الخارج، وابنهما يعمل كذلك فى سفارة، ولكن الرجل كان رائعا وقورا، يمضى فى شيخوخته وأناقته كتمثال أو يجلس فى روبه آية فى الجاذبية، وكانت حرمه جميلة رغم طعونها فى السن. وكم أعجبت شلبية بلون بشرتها الأبيض وزرقة عينيها، ويقول الباشا لحرمه فى غضبه: «أنت ظالمة.. أنت عمياء». فتقول له: «ما أنت إلا ثور، ألا تقرأ ما يكتب عنك؟!». عندما تثور عاصفة تنكمش فى ذاتها، تود أن تختفى، تنكس رأسها، وقد تدمع عيناها. ومرة سألته الهانم بحدة: «لماذا أفلتت منك الوزارة هذه المرة؟». فيقول لها: «حتى السراى لا تخلو من عدو لى». فتقول له: «بل أفعالك الشائنة هى عدوك الأول». فيتساءل: «أفعالى الشائنة؟!». فتصرخ: «نعم.. مازلت تحلم بمباذل الشباب يا عجوز؟!» «متى منعت الأفعال الشائنة من الوزارة، إنى أفكر فى الإقامة مع ابنى فى الخارج».

ولا يحول ذلك دون خروجهما فى المساء نفسه لقضاء سهرة معا كزوجين سعيدين.

ألفت شلبية هذه الحياة الأنيقة، كادت تخص بخدمة الهانم ولكنها كانت تخدم عن طيب خاطر النسوة الثلاث اللاتى يشاركنها فى

البدروم، تنظف الحجرة، تغسل الملابس، تبتاع لهن الدخان وأوراق البفرة، وتتطوع بدافع خاص للف السجائر. وعن لسان الهانم أدركت أنها أنضج من سنها، وأنها «شيخة» لطيبتها وسذاجتها. أما فى الطريق وعند البدال فمضت تدرك أنها جميلة فتسعد بهذا الامتياز وتتعامل فى تحفظ وبدلال مع المعجبين. وكانت أخلاقها فطرية لا تكاد تتجاوز الحياء. حدثتها أمها عن الجنة والنار، وحذرتها الخادمات من الهفوات اللاتى تقضى على مستقبل البنت. إذن فحياة السراى غير دائمة، ما هى إلا دار انتقال. المستقبل الحقيقى يقع فى الخارج. ربما فى كوخ كالذى جاءت منه، لكن ما كان يكفى هذا لتوفير تربية أخلاقية حقيقية. كانت طيبة، سمحة القلب والعاطفة، وهابة للإعجاب والحب. ذات قشرة رقيقة من الدين والخلق. ألفت الحياة الأنيقة، ومعاشرة علاقة زوجية حافلة بأسباب الهناء والصراع، كما ألفت جو الإسكندرية المتقلب بإشراقه وعذوبته ونواته الضارية. وتجمعت أنفاس المراهقة فى برعم قلبها فامتلأ بريق الحياة الساخن..

٢

من عالم الرجال، العذب المخيف الغامض، يطل وجه «على جلال» مثل المنارة. ليست بدلته الكحلية هى المثيرة وحدها، ولكن قامته أيضا، وبصفة خاصة نظرة عينيه الوهاجة، فى العواصف التى تسجد لها الأشجار الشامخة يقف مستهترا، مقطبا وباسما فى آن واحد، ولا يتراجع إلى حجرة البواب حتى ينهمر المطر ويشرق أديم الأرض السنجابى. له نظرة يودعها أحيانا النسمة الباردة المضمخة بشذا البحر، مثل قرصة ملاطفة لخد مورد، حادة وناعمة، لغتها غامضة متحرشة،

تهيج الشعور بالأهمية، تداعب السرور الخفى. تغطى القلق بغلالة من إيحاء وردى.

وذات أصيل كانت تطارد ضفدعا فى جدول محفوف بالشوك. كان الوقت خريفا والرذاذ يجىء قليلا ويغيب قليلا. شعرت بنداء يدعوها للنظر إلى الوراء. رأت «على جلال» يقف تحت شجرة ليمون رانيا إليها بنظرة ثملة، بسمت بارتباك ووثبت فوق الجدول. فى الجو سر خفى وكأن أوراق الآكاسيا تتهامس به. عكست عيناها السوداوان بهجة وحذرا. ترنحت فوق حافة مغامرة مجهولة بلا مقاومة تذكر. دنا منها صامتا مربد الوجه تناول يدها ومضى بها إلى الجراج فى نهاية ممشى مسفلت. لم تقاوم ولكنها تساءلت:

ـ ماذا تريد؟

ضمها إلى صدره وغمرها بقبلات شرهة. وقفت مستسلمة لا تشارك ولا تقاوم. تمنت ألا يجاوز ذلك الحد ولكنه لم يجترح خطوة إلا كتمهيد لأخرى جديدة. وسألته:

ـ ألا تخاف النار؟

ثم تساءلت ووجهها يتقلص بالألم:

ـ ما هذا؟!

٣

الواقع دون الحلم ولكن شخصه أهم من فعله، باتا شريكين فى حدث خطير، وكاتمين لسر مبهم. استولى على قلبها وخيالها، أحبته أكثر مما تصور، تصورت العلاقة أقوى من صلب البوابة وأنقى من ماء المطر. هو فارس قلبها وقلبها مطيته الأمينة. ليست السراى بالمكان

المأمون لهذه الأفعال ولكن حتام يبقى السر سرا؟ ضايقها أن يتجاهلها بحكم الحذر، طمحت إلى معاملة أرق وأطيب صراحة. وقال لها مرة:

- تجنبى النظر نحوى، أنت مجنونة؟

فسألته بحنق:

- لماذا تخاف؟

- أنت مجنونة؟

- أنت المجنون، أنسيت فعلك؟

- من الخير أن تتركى السراى..

- حقّا؟.. إلى أين..؟

- أنت مستعدة؟

- نعم.

فتفكر قليلا ثم قال:

- انتظرى مساء عند نافورة الميدان واحذرى أن ينتبه إليك أحد..

٤

انتهى عهد السراى كما انتهى هذا الكوخ من قبل. فى حجرة على جلال الوحيدة بفراشها السفرى وصوانها القديم المقشر وحصيرتها المتهرئة، شعرت بأنها فى بيتها. لأول مرة تشعر بأنها تنتمى إلى وطن، وأنها ست بيت مثل حرم عصمت باشا خورشيد، ومضت تعرف نفسها وتخبر الحياة والرجل والحب. وكان للعلاقة شهر عسل أيضا ولكنه فى الواقع أقل من شهر. تجلى على جلال عاشقا نحو أسبوع ثم خرج من جلده رجل جديد، اختفى المجامل الباسم العطوف وحل محله رجل

فظ، ضيق الصدر، متوثب دائما للزجر والردع، عجبت لتغيره، فزعت من معاملته، وكانت تزداد به تعلقا وارتباطا. إنها لا تطالبه بشيء، تخدمه بولاء. تهبه ما تملك بلا مقابل. لم تكن تذوق اللحم إلا مرة واحدة فى الأسبوع بلا تذمر. أيست من فكرة الزواج فتجنبتها وقنعت بحالها، ورغم حزنها شعرت بأنه ملكها وبأنه لا غنى له عنها. ومرة سألته:

ـ لماذا تعاملنى بخشونة؟ هل بدر منى ما يسيئك؟

فقال:

ـ إنك تتوهمين ذلك لأنك دلوعة!

فقالت برجاء:

ـ أحسن معاملتى، ألا ترى أنى يتيمة وحيدة مقطوعة من شجرة ولا أحد لى فى هذه الدنيا سواك؟!

فقال بسخرية:

ـ إنى مثلك تماما، وكنت مثلك، دائما، لم أعرف لى شجرة. وعلى حين نشأت أنت فى سراى باشا نشأت أنا فى إصلاحية، ورغم ذلك اعتبرت الشكوى خنوثة!

ـ ولكنى أتألم..

ـ الحياة خشنة وتطالبنا بالخشونة..

ـ ألا تزال تحبنى؟

ـ أظن هذا واضح..

فقالت بعذوبة وبراءة:

ـ إنى لا أشكو إلا معاملتك!

ـ هكذا خلقت! ماذا ينقصك؟!

أحقًا لا يدرك كم تتحمل من شظف العيش وحرصا عليه؟! وتنهدت قائلة:

- ربنا موجود..

فسألها بحدة:

- ماذا تعرفين عنه؟

فقالت باستسلام:

- إنه موجود، ألا يكفى هذا؟!

ولكنها كانت تغوص فى صميم الحياة، وتزدهر رغم حرمانها من طيبات الحياة التى ألفتها فى السراى، ويتألق جمالها وشبابها فى الجلباب الشعبى، وتنعم بالحب..

٥

وكان يقول لها أحيانا وهو يدخن ويحلم:

- لا دوام لحال..

فترمقه بسؤال حائر فى عينيها الجميلتين فيقول:

- ولما كنت فى الحضيض فسيصير الحال إلى الأحسن!

- حقًا؟!.. ولكنى لا أصلح لشىء..

ويبتسم، ويبرم طرفى شاربه، ويصمت فتقول:

- بوسعى أن أخدم فى أى بيت ولكنى سأنقطع عن بيتى!

فيضحك ويقول:

- هروبك أثار فى السراى زوبعة..

فقطبت ولم تجد ما تقوله.. فيواصل:

ـ ظنوا فى بادئ الأمر أنك سرقت شيئًا ثمينا، ولما وجدوا كل شيء فى محله أدركوا الحقيقة!

ـ الحقيقة؟!

ـ قالوا إنها هربت مع رجل غواها، أليست هذه هى الحقيقة؟

ـ ولكنهم لم يعرفوا الرجل؟

ـ طبعا..

ثم يقول بثقة:

ـ لا دوام لحال.

٦

وذات مساء جاء معه برجل قصير بدين قمحى اللون صامت الملامح. جلس إلى جانب علىّ على الكنبة على حين وقفت هى مستندة إلى السرير غائصة فى ارتباكها. ولما طال الصمت والنظر قالت متهربة:

ـ أصنع لكما الشاى.

فقال الغريب بصوت غليظ:

ـ شكرا.. لا أريد شيئا..

وقال على جلال:

ـ إنها لائقة وإلا فإننى لا أعرف شيئا..

فابتسم الرجل ولم يعلق وواصل النظر فقال على:

ـ إنها لائقة..

فسأله الرجل ببرود:

ـ ماذا تعنى؟

ـ من ناحية الشكل . .

فتساءلت بحدة :

ـ عم تتكلمان؟

فأشار لها على إشارة آمرة بالصمت على حين قال الرجل :

ـ وما أهمية الشكل؟

ـ إنه الأساس . .

ـ أعندك فكرة عما تحتاجه من تعليم؟

ـ إنه اليسير إذا توافر الشكل .

ـ وما اسمها؟

فقال على مستقبلا وثبة من الأمل :

ـ شلبية الأمير . .

فابتسم الرجل متمتما :

ـ الأمير مرة واحدة! . . ولكن أعوذ بالله من شلبية!

فهتف على بتحد :

ـ إنك موافق ولا داعى للمناورة . .

قام الرجل ، حنى رأسه تحية لشلبية ، وذهب وعلى فى إثره يودعه .

٧

رجع على بعد دقائق ممتلئا حيوية واستبشارا . سألته :

ـ من الرجل؟

ـ مأمون الفرمانى صاحب ملهى الفلير دامور بالشاطبى .

ـ لماذا جئت به؟ وما معنى حديثكما؟

ـ الصبر مفتاح الفرج . .

وقف ينظر إليها باهتمام ثم قال :

ـ غنى . . غنى أى أغنية . .

فذهلت ولاذت بالصمت فعاد يتساءل :

ـ ألم تغنى من قبل؟ فى الحقل؟ فى الحمام؟

ـ أبدا لم يشجعنى صوتى قط . .

ـ يا للأسف! ولكن جسمك صالح للرقص . .

فهتفـــت :

ـ الرقـص!

ـ ليس عندك إلا الشكوى والصـــراخ ، إنى أعـــرض عليك خـــاتم سليمان .

ـ أنا أرقص؟!

ـ بعد تهذيب وتعليم ثم تتفتح لك أبواب الرزق .

ـ أمام الناس؟!

ـ طبعـــا . .

ـ اخص . . يا للعيب!

فابتسم برقة مصطنعة وقال :

ـ إنه مهنة شريفة ، شرفك من شرفى . افهمينى جيدا ، لست أنا الذى أدفع بك إلى السقوط!

ـ أنا مستعدة أعمل أى شىء آخر .

ـ ألا تريدين غذاء أوفر وكساء أجمل وحياة أفضل؟ . . سنغير حياتنا

بالعمل الشريف . . جربى ولا تخافى ، سيربط الرقص بيننا برباط متين . أما الحياة كما هى الآن فلن تحسَّن أكثر من ذلك!

انقبض قلبها ، رمقته بتوسل ، اغرورقت عيناها .

٨

كان صباح داكن ، تجيش سماؤه بسحب ملبدة ، والريح تزأر مطلقة الأمواج المزبدة إلى أديم الكورنيش . جلست إلى جانبه فى شيفروليه عصمت باشا واندفع بها نحو الشاطبى وهو يقول :

- من يدرى؟ قد تمتلكين يوما سيارة كهذه .

استقبلهما مأمون الفرمانى فى شقته فوق الملهى مباشرة بعمارة مكونة من عشرة أدوار مطلة على البحر الثائر ، تجاهل احمرار عينيها من أثر البكاء وقال :

- أهلا بالتلميذة . . ستضحكين غدا . .

وقدم لها الشاى والكعك ، ومضى يقول :

- انسى شلبية ، اخترت لك اسم «سمارة» ، سمارة الأمير . تركت لك الأمير فهو مناسب جدّا ، هل نتوقع إزعاجا من أهلك؟ فأجاب على عنها قائلا :

- كـــلا .

- عظيم ، نحن فى أوائل الشتاء ، الشتاء فصل ميت ، ولكن يجب أن تعدى كما يجب قبل الصيف ، مم تخافين؟

- إنها بنت شريفة كما تعلم .

ـ ونحن أيضًا شرفاء، لن يضطرك أحد إلى شىء تأبينه، ولا تصدقى غير ذلك.

ثم بعد فترة صمت وتأمل:

ـ ولكن التعلم لا مزاح فيه، ستتعهدك امرأة خبيرة، ولكن كل شىء يتوقف على إرادتك.

٩

وسرعان ما بدأ التدريب، ووفر لها الرجل أيضًا كساء مناسبا وغذاء صحيا. وكان التدريب يشمل آداب المائدة واللبس والزينة. وكلما وجد مأمون الفرمانى إهمالا أو تكاسلا استعان بعلى جلال حتى اضطر الرجل مرة إلى توجيه لطمة إليها. يومها رجعا إلى حجرتهما وهى صامتة غارقة فى حزن أبدى. وغير هناك من لهجته المألوفة لها بنبرة المعتذر:

ـ ما من رجل إلا وضرب محبوبته عند الضرورة.

أصرت على الصمت والعبوس فداعب بإبهامه خدها وقال:

ـ العمل عمل، لا مزاح فيه، وهو لمصلحتك.

فقالت بحنق:

ـ بل لمصلحتك أنت!

ـ لمصلحتنا المشتركة إذا شئت، ما نحن إلا شخص واحد.

فصاحت به:

ـ لقد سلمتنى إلى رجل غريب!

ـ إنه رجل أعمال وليس له فى النسوان.

ـ لو كنت تحبنى حقًا ما فعلت ذلك.

ـ ما فعلت ذلك إلا لأنى أحبك.

فقالت بتحد:

ـ أنت؟! لم أسمع منك كلمة حب واحدة!

ـ ولكنى أفعل ذلك!

ـ أريد حياة معقولة، هل فى ذلك من بأس؟!

وساد صمت ثقيل حتى قطعه قائلا:

ـ كنت ذات يوم تلميذا، انقطعت عن التعليم بسبب الفقر واليتم، تركت شبه أمى وانطحنت فى الإصلاحية.. ها أنا ذا أهيئ لك سبيلا أجمل. ماذا فى ذلك من عيب؟! انظرى إلى الراقصات وحظهن فى الحياة.

لقد احتملت الحياة حرصا عليه، ولأنها شعرت فى أعماقها الحية الملهمة أنه يحبها.

١٠

الفلير دامور ملهى صغير وأنيق. لا تفتح نوافذه الأمامية شتاء، تسفعه العواصف وهو صامد بجدرانه الأرجوانية، مربع الشكل، مسرحه صغير يعلو على الأرض بمتر واحد، فى جوانبه مقاصير من خشب الزان، وصفوفه موائد، يغالب نعاسه طيلة الشتاء والخريف، قلة تختلف إليه كحانة نظيفة تمتاز بمزتها الغنية، وفرقة موسيقية تعزف ألحانا شرقية وغربية، ومغنى درجة ثالثة يترنم بأغان كلاسيكية. به أيضًا مهرج يقدم نمرا فردية هزلية وساحر، وبطانة مطرب مكونة من فتيات أربع

يُدعون أحيانا لمشاربة الزبائن ملتزمات بأدب يناسب رواده الممتازين من المصريين والأجانب.

دفعت سمارة للرقص فوق مسرحه فى أول الربيع، كانت فرصة فريدة للممارسة والتدريب العملى أمام رواد معدودين غير مبالين. كانت كمن يلقى بنفسه فى الماء وهو جاهز لفن السباحة، رقصت على أى حال ونالت تصفيقا من أيد محدودة، عطفا من ناحية وانجذابا إلى جمالها من ناحية أخرى. الرقص يقدم لأول مرة فى الفلير دامور، وسمارة وجه ممتاز وجسد ممتاز أيضًا.

فى الحجرة الخلفية وجدت مأمون الفرمانى وعلى جلال فى انتظارها. قال الفرمانى:

- التصفيق للمرأة لا للراقصة.

فقال على جلال:

- فى المرة القَادِمة سيكون للراقصة والمرأة معا.

فقالت بحرارة:

- إذا كنت لا أصلح فلأنصرف بسلام.

فتساءل الفرماوى ببرود:

- عندك فكرة عما كلفنى تدريبك وكساؤك وتغذيتك؟

فعبست وصمتت. وكان المتفق عليه أن تعمل حتى نهاية الصيف بلا مقابل نظير التكاليف، على أن تكافأ فى الصيف بعد ذلك بجنيه فى الليلة، وثلاثين قرشا بقية العام. وتساءل على جلال بمكر:

- ألا تعطى شيئا على الحساب؟

فقال الرجل بحزم:

- لم أعتد أن أغير حرفا من الاتفاق.

ثم مستدركا :

ـ لا تنس تحيات الزبائن !

١١

سألت على جلال وهما عائدان مشيا على الأقدام إلى الإبراهيمية :

ـ ماذا يعنى بتحيات الزبائن ؟

ـ سيدعوك بعض الأكابر حتما للمجالسة والمشاربة ، فى تلك الحال يحسب الكأس بضعف ثمنه تأخذين نسبة محترمة .

فهالها الأمر ، وقالت بحدة :

ـ ليس هذا ما تم الاتفاق عليه بيننا .

ـ لا خوف من ذلك وهو رزق شريف .

ـ لكننى لا أشرب .

ـ يملأ كأسك عادة بالشاى ، هذا تقليد معترف به .

فقالت بأسى محدثة نفسها :

ـ أجالس رجالا ؟ !

ـ قد يدعوك بعضهم للذهاب معه ولك أن ترفضى .

ـ يا له من موقف !

ـ بسيط لا تعقدى الأمور .

ـ ربما تدخل مأمون الفرمانى ؟ !

ـ إنه يعرف سلفا أنى أدق عنقه لو فعل .

شدت على ذراعه بامتنان وهما يخوضان النسائم العذبة تحت بصيص النجوم، فقال:

- لا أريد لك الابتذال الرخيص.

١٢

اعتادت الرقص ومضت خطوات فى طريق إتقانه، اعتادت كذلك المجالسة والمشاربة والاعتذار عند اللزوم. اكتسبت مكانة سامية بفضل أنوثتها، وانقضى الربيع والصيف وهى تتألق كنجمة فى الملهى الصغير. لم تأنس إلى أحد كما أنست إلى سعداوى بياع الفستق، فهو فلاح مثلها صبوح الوجه، يرمقها باحترام وعطف. يرمقها بأكثر من ذلك حتى قالت لنفسها: «إنها لو كانت حرة بلا رجل لما تردد فى طلب يدها». وقد مالت إليه ميلا صافيا؛ لأنها كانت سلبية القلب، مكبلة بحب على جلال.

وذات ليلة، عقب انتهاء الموسم، وحلول الخريف، جاءها سعداوى وقال لها:

- المقصورة رقم واحد.

مضت إلى المقصورة فوجدت فى استقبالها شابا أنيقا وجيها ذا جاذبية واضحة، صافحته باسمة كالعادة، فقال بصوت أضخم كثيرا من عوده النحيل:

- أهلا.. مروان أمين المعجب بفنك وجمالك.

فتمتمت وهى تجلس قبالته تحت أغصان الياسمين المعشق فى أعواد الزان:

ـ تشــرفنا .

وجاء الجرسون كظلها فقال مروان أمين بنبرة مترفعة :

ـ اثنين ويسكى .

عيناه نجلاوان ، وسيم القسمات ، مبروم الشارب ، عذب الابتسامة . تأملها بإعجاب وقال :

ـ يُخيّل إليَّ أنك ولدت لتكونى راقصة ، ومجيئك إلى الفلير دامور أضفى عليه حيوية لم ينعم بها من قبل .

ـ أشكرك جدّاً .

وشرب نخبها ثم قال :

ـ اطلبى ما تشائين . لا تتقيدى بى فإنى لا أشرب عادة أكثر من كأسين . .

فحنت رأسها ممتنة وسألته :

ـ حضرتك من الإسكندرية؟

ـ نعم ، أنا وأجدادى ، إنها مدينة عالمية كما ترين .

ـ نصف زبائننا من الخواجات .

لزم أدبه طيلة الوقت . لم تبدر منه كلمة نابية ، ولا ملاحظة ماكرة ، ولا حركة مستهجنة . واتسم بوقار لا يناسب سنه حتى تساءلت فى نفسها عما جاء به ، وجعل يحثها على الشرب حتى شربت ست كاسات من الشاى المثلج .

وعند منتصف الليل نهض وهو يقول :

ـ ليلة سعيدة أرجو أن تتكرر كثيرا .

١٣

رجعت تلك الليلة بصحبة على جلال وفى جيبها مائة وخمسون قرشا، ولما دستها فى يده تهلل وجهه الندى بنسائم الخريف المشعشعة بأضواء النجوم وقال:

ـ الحظ يبتسم، ما رأيك فى مروان أمين؟

فقالت بحماس برىء:

ـ مهذب للغاية، فوق ما تتصور.

ـ الفلير دامور مكان محترم!

ـ هل سمعت عنه؟ . . مروان أمين؟

ـ يقول عنه مأمون الفرماوى إنه صاحب جريدة «الصوت»، أذكر أنه جالس مرة عصمت باشا خورشيد فى بدرو.

ولكنه أقلقها بحماسه الزائد وهو يتساءل:

ـ متى يتاح لنا أن نؤجر شقة صغيرة وجميلة؟!

١٤

واظب مروان أمين على الذهاب إلى الفلير دامور مساء كل أحد. وجعل يطلبها إلى مجلسه فى كل زيارة. نشأت بينهما مودة حميمة وألفته بأريحية وعذوبة. ومرة قال لها:

ـ جمالك فريد، وهو مصرى صميم.

ـ ولكنك لست مصريا صميما!

فرفع حاجبيه الكثيفين وهتف:

ـ كيـف؟!

ـ عيناك!

ـ هذه الزرقة؟ . . أوه! كانت جدتي جركسية ولكنني مصري مائة في المائة . . المصري من يحب مصر.

ـ ولكن مستر فاولز يؤكد حبه لمصر!

فضحك ضحكة عالية وقال:

ـ رجل البـورصة الإنجليـزي؟! ذاك حب مغـرض، الحب أنواع كـما ترين.

فتساءلت باهتمام:

ـ حـب مغرض؟

ـ كما نحب البقرة لنستغلها.

فوجمت، وكان وجهها مرآة صافية صادقة فسألها:

ـ مـالك؟

ـ لا شـيء.

ـ لا يجوز أن تتكدري هذه الليلة بالذات.

ـ لماذا هذه الليلة بالذات؟

ـ نويت أن أدعوك للعشاء في بيتي!

وبلا تردد أعادت الأسطوانة المعتادة أمام هذا النوع من الدعوات.

ـ معذرة. . أنا لا أفعل ذلك.

فدهش، صمت قليلا، ثم قال مرتبكا لأول مرة:

ـ إنه لأمر مؤسف لي جدًا، ولكنك رائعة!

وجاء مأمون الفرمانى عند انتهاء السهرة ليودعه، فقال الشاب:

- كل شىء طيب حقّا ولكن..

وضحك ضحكة عالية يدارى بها ارتباكه ثم واصل:

- ولكن من المؤسف أن سمارة الحلوة لا تلبى طلبات المنازل!

١٥

سار على جلال طوال الطريق صامتا فتوقعت شرا. وفى الحجرة نفخ وهو يخلع بدلته وقال:

- غير معقول أن ترفضى النعمة.

فهتفت بحدِة:

- نعمــة؟!

- طبعــا..

- إنه الابتذال الرخيص كما سميته..

- بل هو ثمين وغال!

- أنت تدفعنى إلى ذلك يا على؟

- لصالحك، لصالحنا.

- أأنت تحبنى حقّا؟

- طبعــا.

- إنه حب مغرض!

فدهش على وقال:

- يا لها من كلمة!

ـ كما نحب البقرة لنستغلها .

فما تمالك أن ضحك ، ثم قال :

ـ حديث السكارى! عليك أن تفهمى الحياة خيرا من ذلك ، الحب فى القلب ، لا أهمية للجسد ، الأغنياء يرون فى الحب أنواعا ، أما الفقراء فلا وقت لديهم لذلك ، إنهم يحاربون العناء بكل وسيلة .

فقالت وعيناها تغرورقان :

ـ إنى أرفض .

فقال بإصرار :

ـ كلا يا سمارة . شلبية ترفض نعم . وتحفظ قلبها لى ، أما سمارة فتخوض إلى جانبى معركة واحدة .

١٦

انسابت بهما الفورد فى الطريق المحفوف بالمزارع ، فى السماء غيم كثير والريح تنقض بعنف ولكن الطقس معتدل لطيف . دخلا بيتا خلويا صغيرا فى «أبو قير» . بدا مروان أمين طيلة الوقت نشيطا سعيدا . مضى بها إلى فراندا وهو يقول :

ـ لو كانت ليلة مقمرة لسبحنا معا .

ـ الحمد لله على أنها غير مقمرة .

ـ تخافين البحر؟ . . ألست سكندرية؟

ـ كلا من رشيد .

ـ بلدة ذات تاريخ مجيد . إنى سعيد بوجودك .

ـ وأنا سعيدة .

فرمقها بشىء من الريب ثم تساءل :

ـ لكن الظاهر أننى لم أحظ بإعجابك؟

ـ أبدا ، المسألة أننى أفعل ذلك لأول مرة . .

فقال بصدق :

ـ إنى أصدقك ، البراءة لا تكذب ، ولكن هل ساءك ذلك؟

فقالت وهى تغض بصرها :

ـ إنى سعيدة . .

١٧

فى رحاب مروان أمين ظفرت بحنان واحترام ومعاملة رفيعة ونقود وفيرة . إنه أفضل من على جلال بما لا يقاس ، فلماذا يتعلق قلبها بعلى وحده؟ لا سبب معقولا واحدا يدعوها إلى حبه ولكنها أسيرة هواه . وفى سبيله تضحى بكل غال . وهو أيضا يحبها ما فى ذلك من شك ، على طريقته أى نعم ، ويشاركها الوحدة والعناء . ولن تنسى قوله ساعة رجوعها من عند مروان أمين أول مرة : «أنا لا أستغلك ولكن كلينا يسلم للاستغلال» . وهو أيضًا الوحيد الذى يناديها باسمها «شلبية» فتشعر بين يديه بأنها هى هى وليست شخصا آخر . أما مروان أمين فقد احتل من نفسها مكانة سامية واحتراما ومودة ، وهو لا شك فى أنه يعشق جمالها ويهيم بمفاتنها ، ويغدق عليها بسخاء ، ويحترمها بطريقة جعلتها تشعر بإنسانيتها لأول مرة ، وقال لها مرة :

ـ إنك طيبة أكثر من اللازم يا سمارة .

فقالت ببساطة :

ـ الله مع الطيبين . .

فجفل قليلا وتمتم :

ـ الدنيا متوحشة وقد خلقنا لنقاتل !

فقالت بدهشة :

ـ كيف أقاتل ، وأنا امرأة ولا أهل لى ؟

فتجهم وجهه ، وفتر حماسه ، ثم سألها :

ـ ماذا جاء بك إلى الفلير دامور ؟

فأعادت أسطوانة حفظتها عن ظهر قلب :

ـ سرت من يتم إلى زواج فاشل إلى طلاق ، ثم دعانى الفرمانى .

فقال لها وهو يتنهد :

ـ ادخرى كل مليم ، فلا سبيل إلى النجاة فى هذه الغابة إلا بالنقود ! أما الإيمان فلا ينقصك .

١٨

وتوثب على جلال للتجديد بلا توان ، اشترى شقة صغيرة فى كامب شيزار بعمارة جديدة ، وتبدى فى مظهر أنيق فلم يبق من ابتذاله القديم إلا نظرة عينيه البراقة المتحدية . وقال لها :

ـ تركت خدمة الباشا ! فسألته باهتمام :

ـ ألم تتسرع ؟

ـ كلا ، إنى أفكر فى مشاركة الفرمانى .

ـ دفعة واحدة؟

ـ كل شيء يتوقف على اجتهادك!

فسألته بأسى :

ـ وتستمر الحياة هكذا؟

ـ سنبدأ يوما حياة جديدة .

ـ مــــتى؟

ـ عندما نطمئن على مستقبلنا .

وابتسم إليها واستطرد :

ـ ثم نتزوج!

وثبت متهللة فتعلقت بعنقه وهتفت :

ـ آه . . متى يحدث ذلك؟!

١٩

منذ حديثها الأخير مع مروان أمين لم يواصل الشاب ممارسة غرامه معها . قنع بالمجالسة والمؤانسة وتبادل الاحترام والعواطف الرقيقة ، ولكنه لم يضن عليها بجوده وهداياه . ورغم كل شيء لاحظت عليه تغيرا غير يسير وفتورا حتى قالت له :

ـ لست كسابق عهدك .

فقال وهو يبتسم :

ـ إني مريض . .

ـ كفى الله الشر .

ـ أحتاج إلى جراحة ، سأجريها فى الخارج .

ـ يا لسوء الحظ !

ـ إننى لم أعرف الراحة فى حياتى .

ـ ولكنك غنى والحمد لله . .

ـ ليست مشكلة المال .

ـ عملك شاق؟

ـ جـــداّ . .

ـ سأدعو لك دائمًا بالسلامة . .

ـ دعاء مبارك من قلب طاهر .

ثم أخـرج من علبة سوارا ذهبيا مطعما بفصوص الماسية ، أهداه إليها قائلا :

ـ هدية لك لمناسبة السفر .

فقالت بتأثر شديد :

ـ أنت شـــاب نبيـــل ، لو كـان النـــاس مثـلك ما عرف أحـد الشقاء قـــط !

٢٠

وقال لها على جلال وهو يتفحص السوار باهتمام :

ـ لقد أنهى العلاقة بينكما بلباقة وبلا كسر خاطر !

فقالت معترضة :

ـ لا تسئ الظن فإنه لا يكذب . .

فقال على بازدراء:

ـ الصدق محرج ومهلك.

أما سمارة فقد حزنت لفراقه، وتمنت لو دام لها ليجنبها على الأقل التورط فى علاقة جديدة مجهولة. أدركت أن على ـ وقد جنى من العلاقة ما جنى ـ سيلقى بها بلا رحمة بين يدى ذراعين واعدتين. ومضت تكون لها شخصية فنية مؤثرة وتتوكد شهرتها وسحرها. وهلَّ الصيف برطوبته ورواده وضجيجه. وازدحم الفلير دامور بالزبائن الجدد. وتكررت المجالسات كل ليلة. والاعتذارات عما عدا ذلك. وطبعا كان على يوافق على ذلك مترفعا عن العشاق «المفلسين» عشاق الليلة الواحدة! واقترح على أن يدخل شريكا فى الملهى ولكن الفرمانى رفض. وفى الوقت نفسه استرضاه فعينه مديرا للملهى بجنيه يومية فى الصيف، ونصف جنيه فى سائر العام. وفى أواخر الصيف الثرى جاءت أنباء حزينة من وراء البحار تنعى الصحفى الشاب مروان أمين. واهتزَّ قلب سمارة، وغشيها حزن صادق، فتوارت فى حجرتها وبكت طويلا. وفى أوائل الخريف رجع مستر فاولز إلى الفلير دامور، وإذا به يدعو سمارة للعشاء فى بيته! وكالعادة اعتذرت. وسعد بذلك سعداوى بياع الفستق وهمس فى أذنها:

ـ إنهم أنجاس!

غير أن مأمون الفرمانى احتد بشدة وقال:

ـ كيف ترفضين إنجليزيا؟!

وسأله على:

ـ أظنه مقتصدا كسائر تجار البورصة!

ـ إنه يقدم هدايا أثمن من النقود.

فقال على مخاطبا سمارة:

- إنه على أى حال عجوز ولن يضايقك!

٢١

مستر فاولز يقترب من الستين، ربعة، ضخم الرأس والوجه، غليظ اليدين، متين البنيان، يشرب كثيرا ونادرا ما يسكر، يعرف كلمات معدودات من العربية يستعين بها على توضيح إشاراته وقت السمر أو يمضى الوقت صامتا. كانت تؤانسه ليالى كثيرة فى الفلير دامور ولكنه لا يدعوها إلى بيته إلا مرة أو مرتين فى الشهر. وكان يقيم فى الدور الأول من بيت أنيق يقوم على هضبة فيكتوريا. أرمل وحيد، أولاده فى أستراليا، يخدمه نوبى ومساعده، وقد ولع بسمارة، ولانقطاع التفاهم بينهما ظل حيالها رمزا مجهولا. وجدت معاملة لطيفة وأهداها قرطا ثمينا ولكنها شعرت نحوه بشبه نفور وخوف، ولم تأنس من وجهه الضخم الحاد شعاع جاذبية واحدا. أعجبت فقط بعمق زرقة عينيه، وتذكرت بلونهما مروان أمين وأيامه الحلوة.

فى الصباح ترى البقعة خالية ومترامية، رقعة منها صحراوية، ورقعة يتناثر فيها النخيل وتغطيها الحشائش، ويقوم البيت الأنيق وحيدا فوق الهضبة يصعد إليه بدرجات منحوتة فى الصخر. وهو مكون من دورين. يقيم فاولز فى الأرضى المغروس وسط حديقة، أما الثانى فلا يجىء منه صوت، ومرة رأت فى شرفته عجوزا مهيبا فأسرعت فى مشيتها كأنما تفر. البيت جميل تحت هامات السحب ولكن كأنه ملجأ للعجائز، أما النخيل الفارع المثقل بالبلح الأحمر فذكرها برشيد فنسمت على قلبها ذكرى مبهمة مبتلة بالدمع.

٢٢

وذات ليلة وجدت فى مقصورة مستر فاولز آخر يجالسه، قدمه لها بنبرته الإنجليزية قائلا:

ـ جارى مهدى باشا جلال!

آه! إنه العجوز الذى لمحته فى الشرفة، حيّاها بابتسامة جذابة، إنه طويل، ضخم الهيكل رغم رقة لحمه، فضى الشعر والشارب، مشع العينين، ذو أنف غليظ، وله وقار نفاذ. من أول نظرة أنست إليه وشغفت بأبوته الكامنة. يبدو أكبر من فاولز ولكنه ممتلئ حيوية وابتساما. شرب بكثرة مثل فاولز وتابعت ضحكاته، حادث فاولز بلسانه، وحادثها ـ طبعا ـ بلسانها. صوته عذب أيضًا. قال لها:

ـ رقصك جميل مثل وجهك..

وفى آخر السهرة، تقدمها بسيارته حتى البيت الوحيد، ثم مضى إلى شقته العليا، فتمنت أن يجيء كل ليلة.

٢٣

قالت لعلى جلال وهى تحدثه عن الباشا:

ـ لقبه جلال مثلك!

فقال باسما:

ـ إنه أكبر محام فى الإسكندرية، محترم بين أولاد العرب والخواجات، على علاقة وثيقة بعصمت باشا خورشيد، كما كان صديقا للمرحوم مروان أمين رغم فارق السن، غنى لدرجة كبيرة، أرمل بلا ذرية . .

ـ إنه جار مستر فاولز ويعيش وحيدا مثله .

وصمتت قليلا ثم قالت بدعابة :

ـ لقد وقعت فى هواه!

فقال لها باهتمام :

ـ المهم أن يقع هو فى هواك .

٢٤

فى الليلة التالية مباشرة شرف مهدى باشا جلال ولم تكن من الليالى التى يسهر فيها فاولز . ودعا سمارة إلى مقصورته فجاءت ممتنة وسعيدة . رشف من كأسه ولما رفعت كأسها، أوقف يدها برقة وهو يقول مازحا :

ـ الشاى منهك للأعصاب!

فضحكت، وأدركت من توها أنه دائر وابن سوق، فقال :

ـ اطلبى ما تشائين ولكن لا تشربى إلا القدر المناسب . .

فقالت بصراحة وبراءة :

ـ إنى سعيدة بالجلوس معك .

ـ مثلك وأكثر، ولكن ما رأيك فى فاولز؟

- شخص غريب .

- شيطان .

- حسبته صديقك؟

- صديق عمل ليس إلا . . ماذا لو علم بأنك سعيدة بالجلوس معى؟

- لا أدرى .

- على أى حال فأنت حرة ، أليس كذلك؟

فقالت ضاحكة :

- لم يشترنى بعد .

- عظيم ، ما جوابك لو دعوتك إلى بيتى؟

- إنه نفس البيت .

- لم لا؟

وبسرور ، وقبل مشاورة على هذه المرة ، قالت بجرأة جديدة :

- إنى أقبل . .

٢٥

أحبت المسكن ، وأدهشتها فخامته . قهقه الباشا وهو يقول مشيرا إلى أسفل :

- لا يتصور الحيوان أنك هنا . .

وشرب كعادته ، ونشطت شهيتها فأكلت بلذة . ولما ثمل سألها :

- هل تغنين؟

- كلا للأسف . .

فوضع فى الحاكى أسطوانة وهو يقول :

- إذن نسمع «يوم الهنا» . .

وراح يفرقع بأصابعه مزيحا وقاره جانبا ويقول :

- كل ما يخفق القلب له عبادة !

- هل تغنى أنت؟

- أحيـــانا .

- إذن فأسمعنى صوتك .

- كلا . . أود أن أعطيك خير ما عندى .

فضحكت وقالت :

- أنت رجل ظريف .

- أنت ساحرة يا سمارة .

فتساءلت وقلبها يمتلئ بحب برىء صاف :

- متى ماتت زوجتك؟

- إنك تتحرين عنى ، حسن ، حسن ، منذ عشرين عاما . .

- ولِم لَمْ تتزوج؟

- حزنا عليها ، وعلى نفسى لأن الله لم يكتب لى الإنجاب !

- كنت تود أن يكون لك ولد؟

- إنى أسلم بمشيئة الله .

فبعد تردد قالت :

- تتحدث عن الله وأنت . . .

فضحك عاليا ، وسلط عليها شعاع عينيه مليا ، ثم قال :

- أرجو أن تجىء هدايتى على يديك .

فوضعت راحتها على يده وقالت :

ـ أنا أغضبتك!

ـ محال يا سمارة، ألا ترين أنى أحبك؟!

٢٦

كان سخيا فوق الوصف، وأعلن حبه بطريقة صارخة ودون مبالاة فكان يأخذها فى سيارته إلى بدرو وأثنيوس وحديقة أنطونيادس. وإذا بمستر فاولز يقتحم عليهما الشقة ذات ليلة. أما هى فركبها الخوف، وأما مهدى باشا فقد ضحك وهتف به:

ـ هاللو فاولز!

ولكن الآخر وقف متجهم الوجه غيورا حانقا. رطنا بما لا تفهمه ولكنها توقعت شرا. بدأ الحوار بدرجة منخفضة ومضى يعلو ويشتد. تصلبا متواجهين فى تحد. عجوزان يتطاحنان على امرأة. وإذا بفاولز يوجه لطمة إلى صدغ الباشا، وإذا الباشا ينهال عليه باللطمات. وصرخت سمارة. وتراجع فاولز فثبت الباشا فى موضعه. ذهب الرجل وجعل مهدى جلال يلهث فأخذته سمارة من ذراعه إلى ديوان وأجهشت فى البكاء..

٢٧

صارت له وحده فى حياتها الأخرى. تمنت أن يبقى إلى جانبها حتى آخر العمر. ذلك الأب الذى جادت به عليها السماء، وسألها مرة ـ كما فعل مروان أمين من قبل:

ـ ماذا جاء بك إلى الفلير دامور؟

فقصت عليه القصة المحفوظة فقال بحنان :

ـ لا داعى للخيال!

ـ ألا تصدقنى؟

ـ لعن الله من لقنك الكذب .

ـ عرفت حكاية سراى عصمت خورشيد، وعلى جلال!

ازدادت صمتا وحياء فاستطرد :

ـ إنه يستغلك بدناءة!

ـ كلا . . إنه يحبنى . .

ـ وأنت، أتحبينه؟

فلاذت بالصمت فقال :

ـ إنه لا يستحق حبك .

ـ الحب وحده لا يكفى .

ـ أنت مشكلة يا شلبية .

ـ إنك تعرف كل شىء .

ـ إنى محام عجوز . .

ـ إنى أحبك أيضًا!

ـ وكانت أمى اسمها شلبية!

ـ أنت فـلاح؟

ـ طبعا . ليس كل باشا بعصمت خورشيد . .

ـ إنى وحيـدة .

ـ أنت؟! لا، إنك أقـوى منى، وأقـوى من فـاولز، أقـوى من أى

عاشق، العاشق ضعيف أما المعشوق فقوى، ولكن ما جدوى الحب إذا لم أرد إليك كرامتك يا زينة النساء؟!

٢٨

وذات ليلة وهو ثمل لثم عنقها وتساءل:

ـ هل توافقين على الزواج منى؟

ذهلت. سحرتها الكلمة المقدسة. طرب قلبها حتى السحر. ثم سرعان ما ورث الأسى كافة مشاعرها.

راقبها صامتا، ثم تساءل:

ـ على جلال؟!

فلم تنبس، فرنا إليها واجما، حتى تمتمت:

ـ إنك أجمل ما فى حياتى.

ـ إنى شيخ فان وهو رجل شاب، ولكن لا تسلمى باستغلاله لك كأنه قضاء وقدر.

ـ إنى أتمنى السعادة، ولا يهمنى المال!

ـ لا أدرى كيف أكافئك على ما وهبتنى من سعادة، والحق أننى ما أردت الزواج منك إلا لترثى تركتى التى لا وريث لها.

فقالت بإخلاص:

ـ حياتك عندى أغلى من التركة.

فقال بأسى:

ـ إنى أحترم الحب وأقدس الإخلاص فلا بأس عليك ولعلى أجد طريقة أخرى لمكافأتك يا شلبية.

٢٩

أسعد أيام حياتها. تمتعت بالاحترام والحب ما شاء لها التمتع، وضاعفت العلاقة - مقرونة بما نشب حولها من عراك بين الباشا وفاولز - من شهرتها الفنية وأضفت عليها احتراما لم تعرفه من قبل. وكان على جلال يستحثها دوما على انتهاز الفرصة والإفادة من العلاقة ما وسعتها الحيلة ولكنها كانت تأبى ذلك، وفى الوقت نفسه لم يقصِّر الرجل فى إغداقه. وكثيرا ما قال لها على:

- ألا تدركين أنه يترنح على حافة القبر؟

فكانت تغضب وتحتد وتدعو له بطول العمر، وتقول:

- ما عرفت أبا قبله!

ولكن الحب مهما بلغ من قوته وصفائه لا يستطيع أن يدفع الحتم. فقد مضت صحة الباشا فى التدهور حتى اضطر إلى اتخاذ قرار نهائى بتصفية عمله والإقامة فى الريف. وكان وداعًا مؤثرًا أهداها هدية ثمينة عقدا من الذهب ذا فصوص ألماسية، وقال بتسليم:

- اليوم أو غدا، لا مفر من النهاية، وسيكون لك فى وصيتى ما أستطيع أن أوصى به، وعليك أن تحتفظى بها لنفسك حتى تملكى استقلالك، وتضمنى حياة حرة كريمة.

ودعته وهى لا تراه من فيض الدمع الصادق.

٣٠

وأصر على جلال على مشاركة مأمون الفرمانى، وخشى الرجل أن ينفذ علىّ تهديده بفسخ عقد سمارة فقبله شريك بثمن العقد، وفى الحال تجدد الملهى، فدعم بمطبخ شرقى وغربى وكافتيريا، وطلى من جديد، كما تجدد أثاثه. سجل عقد المشاركة باسم على جلال، وظلت هى لا تملك شيئًا إلا الحب، أو لا تملك إلا ما أتقنته من هزّ البطن والصدر والرقبة.

وسألت على جلال:

ـ أما آن لنا أن نتزوج؟

فداعب خدها برشاقة وقال:

ـ مازلنا فى أول الطريق، الملهى لا يعمل بكامل قوته إلا ثلاثة أشهر، أما بقية العام فهو مثل سفينة فى مهب العواصف والأمطار لا يأوى إليها إلا طلاب الدفء والستر.

ـ وما ضرر الزواج؟

ـ إنك ساذجة، لو حازك وجيه وأنت على ذمتى لأمكن أن أتعرض لتهمة خطيرة تزج بى إلى السجن..

ـ لم تعد فى حاجة إلى هذه العلاقة.

ـ مازلنا فى أول الطريق، هل شيدت عمارة مثل أمينة الفنجرى؟!

ـ يا خبر!.. إنه طريق بلا نهاية.

ـ بل له نهاية، وهى قريبة، ولكنها تطالبنا بالصبر والعمل.

٣١

وتجلت فى سماء الفلير دامور سحابة سوداء . فذات يوم غزا الملهى عمرو عبد القوى مفتش الضرائب . شاب فى الثلاثين ، جاد المظهر ، قوى الجسم ، يهز منظره المتهربين من أعماقهم . راح يفحص المستندات ويقيد ملاحظاته ثم ذهب . غاص قلب على جلال فى صدره ولكن مأمون الفرمانى قال له :

ـ لا تخف ، كل إنسان وله ثمن !

وتحرى عن المفتش الجديد عند بعض رجال الأعمال فى الحى ، رجع عصرا وهو يقول :

ـ الولد نزيه ، سنلقى متاعب لاشك فيها . . .

فقال على جلال :

ـ لاحظت أنه نظر إلى سمارة بإعجاب !

فقال الفرمانى :

ـ هذا هو الأمل الأخير !

٣٢

وجاء عمرو عبد القوى ليتلقى الإقرار . جلس فى المقصورة ليطالعه . وبإشارة من على جلال جلست سمارة على مقربة من المسرح بحيث

يراها المفتش. ولما كرر النظر نحوها ابتسمت فى حياء، ثم مضت إليه وهى تقول:

- أتريد شيئًا فى أثناء عملك؟

فابتسم عن فم عريض متمتعا:

- خطوة عزيزة..

فجلست قائلة:

- نحن أصحاب المكان وعلينا إكرام الضيوف.

- مفتش الضرائب ليس بضيف!

- نحن نحب الناس كما ترى..

- ولو كانوا من رجال الضرائب؟!

- ولو كانوا!

- فواصل مطالعته وهو يتمتم:

- عذرت الآن فقط مهدى باشا جلال!

فقالت محتجة ولكن بعذوبة:

- عفا الله عن الناس، كان لى أبا ولكن الناس لا يرحمون..

فارتسمت فى عينيه اللوزتين ابتسامة ماكرة وتساءل:

- أب؟!

- صدقنى!

- لقد عرف كيف يختار ابنة فريدة!

فقالت بتواضع:

- لست إلا فلاحة من رشيد!

فتجلى الاهتمام فى عينيه وهتف:

- رشيد؟! أنا أيضًا من رشيد! أسرة من؟

ـ لا . . لا . . على باب الله . .

فقال مقهقها :

ـ أنا من نفس الأسرة . .

ثم انهمك فى عمله ، واستدعى مأمون الفرمانى وقال :

ـ المغالطات كثيرة ولكن لا مفر .

عند ذلك قالت سمارة :

ـ أى معاملة بين أفراد الأسرة الواحدة؟!

فحدجها بنظرة قوية وقال :

ـ العمل مقدس مثل الصلاة!

٣٣

تمت المحاسبة فى جو شديد التوتر ، عمل الفرمانى المستحيل ليتملص من قبضته ولكنه لم يفلح . قال له عمرو بحزم :

ـ عندك محكمة الضرائب إذا شئت .

ومنى الملهى بخسارة فادحة على حد قول على جلال . وبكل جرأة جاء عمرو ليسهر سهرة شتوية هادئة . كانت ليلة معتدلة صافية جاءت فى أعقاب نوة عاصفة أغرقت المدينة وأغلقت البوغاز . وكلما آنس من الوجوه تجهما مرح ودندن واندمج فى المشاهدة . ثم بلغ القمة عندما طلب سمارة للمجالسة . وقال لها سعداوى المحب الأبدى :

ـ اذهبى ، إنه واجبك .

وذهبت متحدية ، جلست وهى تقول :

ـ تقتل القتيل وتمشى فى جنازته .

فقال بسرور :

- إنى معجب بك يا رشيدية!

- إنك مرعب .

- على المتهربين .

- تأخذون أموال الناس! . . بأى حق؟!

فتجاهل نقاشها وقال بحرارة :

- لا أحب الطرق الملتوية ، فلنقصد الهدف رأسا ، إنى أدعوك للعشاء فى شقتى المتواضعة بكامب شيزار .

- أنت فى كامب شيزار أيضًا؟!

- مسكنك هناك؟! عظيم ، من رشيد إلى كامب شيزار . . أصبحت الموافقة حتمية!

- ولكنى لا أقبل الدعوات الخاصة ، ألم تسمع عنى؟

- سمعت عن مروان أمين وفاولز وجلال مهدى!

- أنت مخبر؟!

- إنك ترفضين الموظفين الصغار وبخاصة إن كانوا نزيهين .

ثم برجاء :

- لك جانب دمث وآخر خشن ، وقد جئت لمجالسة الدمث!

٣٤

وتفكر على جلال وقال :

- إنه لا يساوى شيئًا ، إنى أعرف مدعى الشرف أكثر مما يعرفون أنفسهم!

وجاء عمرو فى نهاية الأسبوع. كانت الليلة صامتة ولكنها شديدة البرودة، ارتاحت لمجيئه ارتياحا أدفأ أعماقها. أدركت أنها تهبه شعورا جديدا. لم تشعر به نحو مروان أمين النبيل المتباعد المترفع، ولا نحو مهدى جلال لطعونه فى السن. إنه شعور جديد، وهو أول منافس حقيقى لعلى جلال. عجبت لذلك فماج قلبها خوفا مبطنا بسرور خفى. عمرو قريب جداً وأليف جداً، ينبض فى جذورها الرشيدية. وهو يصر على المجىء، متحديا الجفاء المحيط، من أجلها هى، وهو مثير للإعجاب بقوته وتحديه. وهمس على جلال فى أذنها:

- لا تلبى إذا طلب.

هل استشعر باطنه خوفا؟! ماذا عليها أن تفعل هى التى لم تخالف له أمرا؟! إنها تضمر العصيان لأول مرة فى حياتها. وتذكرت كلمات مهدى باشا عن الاستقلال والكرامة. ماذا يريد على منها أكثر مما أخذ؟ ها هى ذى لأول مرة أيضًا تحاسبه. وحلت اللحظة الحرجة فجاء الجرسون يبلغها الدعوة، لاحظت أن سعداوى يراقبها بقلق، ذلك المحب القديم الصامت. دنا منها وهمس:

- لا تذهبى!

فتساءلت:

- لماذا؟ ألم تقل إنه واجبى؟

- ولكن سيقع شر لا مفر منه.

وذهبت بلا تردد. وجلست وهى تشعر بأنها تستقبل حياة جديدة. وإذا بعلى جلال يقتحم المقصورة ويأمرها قائلا بفظاظة:

- اذهبى!

حدجه عمرو بنظرة قاسية وقال:

- عليك أنت أن تذهب..

فلم يباله وكرر أمره لسمارة:

ـ اذهـــبى.

ولما لم تتحرك هوى بكفه على وجهها.

وثب عمرو فوجه إليه لكمة صادقة، سرعان ما اشتبكا فى صراع مخيف كنمرين. وجاء مأمون الفرمانى وسعداوى والجرسونات. لم يفلح أحد فى الفصل بين المتعاركين. حتى تهاوى على جلال على الأرض فعند ذلك رفع سعداوى كرسيا ليضرب به الشاب غير أن سمارة صاحت به:

ـ ارم الكرسى من يدك يا سعداوى..

وقف سعداوى ينظر إلى عمرو ولا يقول شيئًا وقد اصفرَّ وجهه من شدة الغضب.

وقبض عمرو على يدها وهو يلهث ثم قال:

ـ لا يجوز أن تبقى هنا بعد الآن.

٣٥

كانت غاضبة وحزينة فمضت معه. كأنها فى حلم.. تترك الفلير دامور وتهجر الرقص؟! هل يمكن أن تتغير الحياة فى غمضة عين؟ لم تحب حياتها الماضية ولكنها لم تبغضها أيضًا لما أمّلتها فى تحقيق الحياة المستقرة التى تهيم بها. خرجت منها كما دخلتها فقيرة لا تملك مليما. استقرت فى شقة صغيرة متواضعة على مبعدة دقائق من شقتها الأولى. ولأول مرة تحكى قصتها بلا أكاذيب. وقال عمرو أول ما قال:

ـ لم تخسرى بمجيئك شيئًا، فقد كنت طيلة الوقت منهوبة.

فقالت بصدق:

ـ ما اهتممت قط بالنقود، وما تطلعت إلا للحب والاحترام.

فقال ضاحكا:

ـ عندى منهما الكثير ولكن لا مال لى إلا مرتبى المحدود.

ـ لا أهمية لذلك عندى.

فقال بحرارة:

ـ بالصدق والأمانة أصارحك بأنى أحبك.

ومضت الحياة عذبة، غير أن على جلال قابل رئيس المصلحة وادعى أن عمرو طالب برشوة، ولما رفض سعيه افتعل مشاجرة ثم خطف راقصة الملهى.

٣٦

لم يسفر التحقيق عن شيء ولكنه أساء إلى سمعة عمرو عبد القوى حتى اضطر إلى أن يعلن رئيسه بأنه أخذ الرقاصة حقًّا ولكن ليتزوج منها. وبالفعل عرض الاقتراح على سمارة وتم عقد القران. ورغم ذلك صدر قرار بنقله إلى الصعيد فثار عناده وقدم استقالته. إنها لخطوة جنونية ولكنه وجد عملا فى مكتب محاسبة حتى يمكنه الاستقلال بالعمل. سمارة كانت السعيدة الفائزة. لقد تحقق حلمها الأبدى بالزواج. وسعدت سعادة لا مثيل لها، غير أنها سألته:

ـ هل تورطت يا عمرو فى الزواج منى؟

فقال بقوة:

ـ أبدا . . الظروف سبقت، هذا كل ما هنالك، ولكن نيتى كانت صادقة .

وازدهرت سمارة كالوردة المتفتحة .

٣٧

وتتابعت الأيام متألقة بالبهجة، ومع أنه كان شتاء قاسيا كثير العواصف والمطر، فإنها سعدت به وهى تشاهده لأول مرة من وراء الزجاج دون اضطرار إلى الخروج اليومى والسهر . أصبحت بمأمن من عواصف الحياة وأمطارها . واستوت العاصفة والأمطار فى وعيها رمزا للجود والبهاء . وفى ذلك الشتاء انتقل مهدى باشا جلال إلى جوار ربه، وقد أوصى لها بمبلغ عشرة آلاف من الجنيهات . هبطت الثروة من السماء وقد بكت الراحل طويلا ولكنها تمالكت نفسها لدى عودة عمرو، وقالت له :

ـ صرنا أغنياء يا عمرو!

ولكنه عبس وقال :

ـ كيف فعل ذلك لامرأة متزوجة؟!

ـ من أين له أن يعلم بزواجى؟

فقال بازدراء :

ـ ولو!

قالت بصدق وحرارة :

ـ كان أبى يا عمرو، صدقنى .

ـ كانت سمعته الخاصة سيئة!

ـ رعانى وهو فى السبعين.

ـ ولو.. كان رجلا سيئ السمعة!

فاغرورقت عيناها وقالت:

ـ لو عرفته بنفسك لكان لك فيه رأى آخر.

فقال بحدة:

ـ إنى أكره هذه الدموع.

ـ أتريد أن أرفض النعمة؟! إنك فقير، وفى بطنى جنين!

فغادر الحجرة وهو يدمدم. ولكنه لم يدل برأى حاسم. لو أراد الرفض لجهر بذلك وهو لا ينقصه الصراحة. هكذا احتفظت بالمال الموهوب.

٣٨

سعدت سمارة بزوج يحبها حقًّا. زوج مفعم بالرجولة والفحولة والشهامة والعطف. ولم يكدر صفوها شيء من العادات البالية إذ كان بلا أهل مثلها. لا شك فى أنه كان نشيطا فى عمله، فما لبث أن فاق دخله مرتبه السابق. غير أن الأيام كشفت لها عن عيب أو عيبين جوهريين فيه. إنه شديد الغضب، وغير متسامح، إذا غضب أفصح عن غضبته بالكلمة والفعل. فى مرة، عند خروجهما من سينما رويال لمح شابا يغازل فتاة بقحة، فما كان منه إلا أن لطمه، ثم فعل به ما سبق أن فعل بعلى جلال. ارتعبت وقتها وقالت له:

ـ بالغت فى العنف وكان القليل يكفى.

فقال لها بانفعال:

ـ إنها اللغة الوحيدة المجدية!

ـ لقد كنت على حق ورغم ذلك فقدت عطف الناس.

ـ لا يهمنى الناس!

ولكن ثمة عيب آخر بدا خطيرا فتاكا، ذلك ولعه بالقمار. ما أن انقضى شهر العسل حتى كشف سره. كان يقامر فى شقة بالإبراهيمية، يسهر حتى منتصف الليل، ويمتد السهر أحيانا للفجر. قالت له برجاء:

ـ صحتك ومالك!

فقال بأسى:

ـ لكل إنسان عيبه.

ـ ولكن هذا العيب قد يخرب بيتنا.

فقبلها وهو يقول:

ـ لا تبالغى، ثم إنى محظوظ.

ولكنه كان يخسر أيضا، ومرة رجع مدينا بمبلغ جسيم أخل بميزانه، فقالت له:

ـ عليك أن تسدد الدين مهما كلفنا ذلك.

وأعطته من هبة مهدى باشا جلال فتقبلها بوجه واجم ونفس منكسرة حتى أثار عطفها.

وواصل اللعب، وانقلب عليه الحظ حتى أتى على التركة كلها.

واسودَّ وجه الحياة.

وولد أحمد فى ذلك الجو المتجهم.

٣٩

وقال لها عقب عودته من الإبراهيمية :

ـ مصادفة سيئة جدّاً .

ـ ليحفظنا الله . .

ـ انضم إلى مائدتنا على جلال !

فانقبض قلبها وتساءلت بقلق :

ـ مصادفة ؟ !

ـ طبعـــا . . .

ـ وهل يذهب إلى هناك كل ليلة؟

ـ يبدو ذلك .

ـ قلبى غير مطمئن .

ـ المائدة تجمع بين خير الناس وأسافلهم .

ـ إنه سبب كاف لكى تقلع عن هذا الداء الوبيل .

لاذت بالصمت . وتوكد لديها أن ما تتمناه حلم بعيد المنال ، فتنهدت قائلة :

ـ طالما حسبت نفسى أسعد امرأة فى الوجود .

فقهقه قائلا :

ـ وإنك لكذلك يا جاحدة !

فقالت بنبرة باكية :

ـ إنى تعيسة يا عمرو !

٤٠

ومضت الأيام فى قلق وتوتر حتى صدقت مخاوف قلبها . بل جاءت الأحداث أسرع مما قدرت . ففى ليلة احتدم التناحر ما بين عمرو وعلى فانتهى إلى غايته المحتومة وهى الشجار . وتراجع على جلال أمام ضربات لا قبل له بها فاستل مطواة طعن بها قلب خصمه فتهاوى فاقد الحياة!

هكذا اختفى الرجلان اللذان أحبتهما فى ليلة واحدة ، ذهب أحدهما إلى القبر والآخر إلى الليمان .

وجنت المرأة من الحزن . وجدت نفسها وابنها فى دنيا خالية . فقدت الحب والأمان . ناءت تحت عبء مسئوليتها الكاملة عن وليدها ونفسها . وبخاصة وليدها ، ابن الرجل الذى أحبته ، الذى قرصته حشرة فقوضت بنيانه .

٤١

وانشقت الظلمات ـ ذات يوم عن وجه سعداوى بياع الفستق . أثار فى قلبها مكامن ذكريات جميلة وأخرى محزنة ، ولكنها وجدت نحوه امتنانا لا شك فيه . وتلقت مواساته الصادقة بمودة وأسى . ثم وضح أنه جاء من أجل هدف أدل على صدق عواطفه من المواساة وحدها . قال :

ـ مأمون الفرمانى على أتم استعداد لاستقبالك .

ولكنها قالت بوضوح :

ـ لن أرجع إلى تلك الحياة يا سعداوى .

فقال الرجل بحماس :

ـ وعد عليه حق ، ألا يطالبك بما لا ترتضينه !

فقالت بإصرار :

ـ أصبحت اليوم أما ، وعلىَّ أن أصون سمعة ابنى من الآن فصاعدا ، ومن حسن الحظ أننى أخفيت هدية ثمينة أهدانيها المرحوم مهدى باشا جلال ، وبها يمكن أن أبدأ بداية جديدة تمكننى من تربية ابنى كما أريد .

ارتسم الترحيب فى وجه سعداوى وتمتم :

ـ ليكن . إنه أفضل على أى حال ، وستجديننى فى خدمتك على الدوام .

جلس الرجل يرنو إليها ولا يزيد ، ولكن نظرة عينيه باحت بأكثر مما قال . كأنما تبتهل إليها أن تؤمن بأنها ستجد دائمًا من يتذكرها عند الشدة ، ومن يحبها حبا صادقا .

صاحب الصورة

اختفى شيخون محرم .

كان اختفاؤه حدثا هزَّ المجتمع هزة عنيفة . كان رجلا مرموقا ، ذا نشاط مالى عريض ، وله فى السياسة وجود راسخ وأثر ، وفى دنيا الإحسان والخير أياد بيضاء ، إلى سمعة طيبة ذات رائحة زكية .

غادر سرايه فى أصيل يوم قاصدا النادى ، ثم اكتشفت أسرته ـ المكونة من حرمه سريرة هانم ووحيده عيسى ـ أنه لم يعد . انزعجت الأسرة أيما انزعاج ، إذ لم يسبق أن شذ الرجل عن جدول مواعيده بلا إخطار . اتصلت الهانم برفقائه فى النادى فأجمعوا على أنه لبث بينهم ساعة واحدة ، ثم انصرف ليزور ـ على حد قوله ـ شقيقه محمود محرم فى سرايه بالزمالك . وفى الحال اتصلت الهانم بمحمود محرم ، ولكن زوجته أجابتها بأن زوجها فى رحلة فى البحر الأحمر يرجع منها مساء اليوم وأن شيخون لم يزرهم منذ أكثر من أسبوع . وشهد سائق السيارة بأن الرجل غادر النادى ، أمره بالانتظار فى موقفه ، ثم مضى مشيا على الأقدام ، وأنه لزم موقفه حتى شقشق الصبح .

وبدأ بحث شاق ملهوف على شيخون فى جميع مظانه . عند جميع الأصدقاء والزملاء ، فى الإسكندرية وفى العزبة ، فارتطم دائمًا بخيبة مرة ، فاشتعلت الأفئدة بالقلق والوجل ، وتجمعت سحب الظنون .

ووفد على سرايه الأهل وفى مقدمتهم شقيقه محمود محرم ، والأصدقاء والمعارف ، وتداولوا الأفكار والحلول ، وقالت سريرة هانم :

ـ لو كان بخير لاتصل بنا!

واستقر الرأى على إبلاغ الجهات الرسمية. عند ذاك اتخذ البحث مجرى جديدا فشمل الأقسام والمستشفيات، وازداد اللغز انبهاما، والتشاؤم استفحالا، وكأن الرجل رائحة وتلاشت فى الكون.

وتلاحقت الأيام.. فتجسد الاختفاء صخرة سوداء لا تتزحزح، يتحطم عليها الأمل. لقد اختفى شيخون محرم كأنه لم يكن.

وجاء دور التحقيق والتحريات، ولكنه لم يسفر عن جديد أيضًا، فلا عداوة ولا سرقة ولا شبهة سبب مما قد يفضى إلى جريمة.

وخلنت سريرة هانم إلى ابنها عيسى وهى فى غاية من اليأس، وقالت له:

ـ لم أدل بكل ما عندى فى التحقيق!

فرنا إليها الشاب ذاهلا وتساءل:

ـ أعندك مزيد؟

ـ قلت إنى لا أعرف لأبيك عدوا.

ـ هذا حقيقى..

ـ كلا..

ثم مواصلة حديثها بعناد:

ـ عمك.

ـ لا.. لا.. المسألة أنك دائمًا تسيئين به الظن.. ليس لديك دليل واحد.

ـ لدى قلبى!

ـ لا يكفى. إنك تكرهينه.

ـ لا لشىء إلا لأنه كره أباك.

ـ لا أوافق على ذلك، كانت العلاقة بينهما دائما مثالية.

ـ فى الظاهر فقط، وعمك مجرم، ألم تسمع بما يقال عن ضحاياه فى الريف؟

ـ ذاك أمر آخر..

ـ إنه مطبوع على الإجرام.

ـ كان يحب أبى وأبى يحبه.

ـ قلبى لا يكذبنى. كنت أقرأ فى عينيه أحيانا ما يخيفنى إنه ينفس على أبيك نجاحه وثراءه.

ـ عمى ليس بالفقير.

ـ هنالك سر لا تعرفه، لقد واجهت عمك خسارة أوشك أن يبيع بسببها أرضه لولا أن أسعفه أبوك. أسعفه بلا عقد، أنت تعرف شهامة أبيك، ولكن الدين ثقيل ولا حجة عليه.

فتأفف الشاب وقال:

ـ المسألة أنك سيئة الظن بعمى.

ـ المسألة أنك مصر على حسن الظن به.

ـ هذا هو الأصل.

ـ آخر ما سمعنا عن أبيك أنه ذاهب للقاء عمك!

ـ ثم ثبت أن عمى كان فى رحلة مع صحبه.

ـ طالما قتل عمك الأبرياء وهو بعيد عن موقع الجريمة.

ـ أساطير لا دليل عليها.. لماذا تكرهينه؟

ـ قلبى، ألا تؤمن بحديث القلب؟

ـ كلا، لا أؤمن إلا بالمحسوس.

ـ هذا يعنى أنك لا تؤمن بشىء!

ـ هل فاتحت أبى بظنونك؟

ـ لم يصدق لصفاء سريرته .

ـ أرأيت؟

ـ ولكنه اعترف لى بخلاف نشب بينهما قديما!

ـ هذا حال الناس جميعا .

كانت الأم أصلب مما تصور ابنها ، فأفضت بظنونها إلى المحقق . وكان خطب وفضيحة . وجرى تحقيق دقيق مع محمود محرم ، ولكنه لم يسفر عن شىء . تزعزع الأساس الذى يستند إليه فرعا الأسرة الواحدة . وطالبت سريرة بالقرض الذى اقترضه من زوجها ، فكان جواب العم أنه سدده ، وأنه لم يكن بينه وبين شقيقه تعامل رسمى! وزاد ذلك من سوء ظن المرأة . ولكن العجيب أن محمود محرم بقى على ولائه لذكرى شقيقه ، بل إنه استدعى عيسى إلى مقابلة خاصة فى النادى وقال له :

ـ أسباب الغضب متوافرة لدى ، ولكنى مصر على الإبقاء على أواصر القربى ، فتذكر دائما أننى عمك ، كما أتذكر دائما أنك ابن أخى .

وتواصلت الأيام ، ولحقت بها الأشهر ، ثم الأعوام ، انتهى شيخون محرم! . . غير أنه عاش ذكرى حية فى ضمير سريرة هانم ، ذكرى حية لا تموت . لم تتعز قط ، ولم يفتر حبها له . لم تيأس من أن يستقيم عود العدالة المعوج ذات ليلة . وكثيرا ما كانت تقول لابنها :

ـ أبوك يطالبنا بالعدل ونحن عنه لاهون .

وكان عيسى قد حل محل أبيه فى الإدارة ، فشغله العمل عن كل شىء ، وشغلته الحياة أيضا بمسراتها اليومية ، فكان يتجنب مناقشاتها ما وسعه ذلك . ويثيرها بروده فتهتف :

ـ ألا ترى أنى لم أذرف حتى الآن دمعة واحدة؟!

فيقول برقة ما أمكنه ذلك :

ـ ما هكذا يلقى العقلاء النوائب .

ـ أتراني مجنونة؟

ـ أمي !

فتقول بأسى :

ـ لم ترث إلا أملاكه !

وحلت الكارثة الكبرى عندما قال لها يوما :

ـ أمي افتحي صدرك .

فرمقته متوجسة ، فقال :

ـ قررت أن أتزوج من سميحة !

بهتت المرأة . اصفرّ وجهها . ارتعشت أطرافها . قال بضيق شديد :

ـ الأمر بسيط جدّا لولا ظنون لا أساس لها .

فقالت بفزع :

ـ طالما توقعت ذلك ، طالما توقعته كأنه الموت المحتوم . . فابتسم في امتعاض شديد دون أن ينبس ، فتمتمت بمرارة :

ـ ابنة قاتل أبيك؟!

فقال برقــة :

ـ ابنة عمي . .

تقوست المرأة في جلستها من شدة الألم ، ثم قالت بحدة صارمة :

ـ إنه الفراق الأبدي بيني وبينك !

وهاجرت من المدينة إلى القرية ، وعاشت في السـراي الصغيرة في وحدة عميقة . وتركزت طيلة الوقت في هواجسها .

وكان صوتها يسمع وهي تحاور نفسها بلا انقطاع . غرقت في الضياع الذي ذاب فيه زوجها المحبوب .

وتزوج عيسى من سميحة. أصر عمه على أن يذهبوا جميعا إلى القرية ليقدموا فروض الود، ويتوهبوا الرضا، ولكنها أبت أن تلقى أحدا منهم، ومضت تردد:

- ها هو ذا القاتل يحقق هدفه ويصب ثروة ضحيته في ذريته! واستفحل العذاب بالأم حتى مزق وحدتها. وفي محنتها الطاغية أخذت ترى المأساة خلال أبعاد جديدة وافدة من المجهول. تألق في باطنها إلهام متوثب بأن الأشياء تخلق من جديد. وطرق أذنيها همس مضيء دعاها إلى تلبية نداء خفي. تلاشى إيمانها بالجريمة فتبخر اليأس وزال. وإذا بها تخرج من عذابها إلى الناس. تمضي في وقار ظاهري وبيدها صورة شيخون.. وكلما صادفها شخص عرضتها عليه متسائلة وهي تنتظر أن يجيبها الجواب الشافي في يوم من الأيام. لم تسأم من تكرار السؤال، ولم يثبط همتها النفي، وترامت أخبارها إلى عيسى ففكر في اتخاذ إجراء حاسم، ولكنه اكتفى بعد تدبر ومراجعة بتكليف أحد أتباعه في القرية بحراستها من بعيد. وتتابعت خطوات الزمان وهي مصرة على بحثها العقيم، وتقدم بها العمر فلم تهمد ولم تخمد.

* * *

بعد دهر فريد.

كان عيسى يجلس في السلاملك ذات أصيل عندما رأى عجوزا يتسلل إلى السراى متوكئا على عصاه، رنا إليه مقطبا بادئ الأمر، ثم اجتاحه الارتياع والذهول فوثب نحوه وهو يهتف:

- أبي!

حمل ما بقى منه بين يديه ومضى به إلى فراش، وسرعان ما استدعى الطبيب، لم يكن به مرض ولكن نهكته الشيخوخة والضعف. وما

استلقى على الفراش حتى تخلت عنه قوى المقاومة فتبدل شخصا آخر، ولما استيقظ من نوم عميق ظن عيسى أنه استرد عافيته فسأله بشغف:

- أين كنت يا أبى؟ ماذا غيبك ذلك الدهر الطويل؟

ولكنه لم يجب. بل كأنه لم يسمع، وهوم فى آفاق بعيدة، ورجع عيسى يسأل من جديد، ولكن الأب لم يباله، وتمتم كأنما يخاطب نفسه:

- الجبال الخضراء.

فسأله باهتمام:

- أكنت فى الخارج؟

فمضى العجوز فى حديثه الباطنى:

- والبحيرات الزرقاء..

- أين يا أبى؟

فهمس متنهدا:

- وعش الحب والعناء؟

فهتف عيسى فى أسى:

فعاود الهمس متمتما:

- عش الحب والعناء!

* * *

ويئس عيسى من الاتصال به، ولكنه قرر أن يجمع بين أبيه وأمه، وأمل من وراء ذلك فى الشفاء.

وجىء بالأم رغم إرادتها حتى بكت، ولما أجلسوها أمام الراقد فوق الفراش كفت عن البكاء. خفق عيسى بالترقب.. ولكن لم يحدث شىء ذو بال. لم يتبادل الزوجان نظرة عتاب أو فرح أو حزن.. ترامقا

كأنهما ينظران فى فراغ . غاص كل منهما فى دنيا لا علاقة لها بدنيا الآخر . كأنه لم يعرفها وكأنها لم تعرفه . تفشى فى الجو توجس وأسى عميق . شعر عيسى بأنه مجهول الأبوين .

وقامت الأم كأنما ضاقت بالجلوس . اقتربت من الفراش حتى لامسته ، ثم بسطت الصورة أمام عينى العجوز ، وطرحت سؤالها الخالد :

ـ هل تستطيع أن تدلنى على صاحب هذه الصورة؟!

الرجُل والآخــر

من دكان الفاكهة خرج الرجل حاملا قرطاسا مثل قمع السكر . ابتلعه تيار بطيء متلاطم فى سوق الخضار . ولقامته الطويلة برز وجهه الباسم المتورد فلمحه الآخر من موقفه عند كشك السجائر وقال لنفسه : «أخيرا . . لن يفلت منى» . وجعل يتابعه بانتباه حتى تملص من الزحام فمرق إلى الميدان . من المهم جداًّ ألا يثير ريبته حتى تحين الفرصة المواتية . الرجل يجيل بصره فى الميدان حتى يستقر على محل الحلوى فى الجهة المقابلة ويمضى إليه فوق نصف دائرة الميدان الأيمن فيمضى الآخر نحو الهدف فوق نصف دائرة الميدان الأيسر . دخل الرجل المحل فوقف الآخر تحت عمود النور العالى . جو الخريف عذب . . ضوء الأصيل هادئ يهبط من السماء بعد أن توارى قرص الشمس وراء العمارة العالية . الرجل ينتظر أن يفرغ البائع له . عيناه تثبان بنهم بين صفوف الحلوى الشرقية والغربية . الآخر يراقبه بصبر . ثمة امرأة تنتظر أيضا . مليحة ومتبرجة ومرحبة بالمجهول . الرجل يرمقها بنظرة مستطلعة ، تعرض عنه ولكن شبه باسمة . يتزحزح خطوة فيقتحم مجالها الحيوى . ها هو ذا يهمس بجرأة . ها هما ذان يتهامسان ، قال الآخر إن ذلك ينذر بتعقيد الأمور . إضافة جديدة لمتاعبه وتحد غير متوقع لخطته . ويجىء دورها لابتياع ما تريد ثم يجىء دوره . يخرجان ووجهه يتهلل ويطفح بالرغبة والظفر ، يتبادلان كلمات ضاحكة مثل فقاعات الشهد . ثم تمضى هى إلى شارع الملاهى ، يتابعها بعينيه لحظة ثم يسير على مهل

حاملا القرطاس واللفة. لا شك فى أنهما تواعدا على اللقاء، والآخر يأمل ألا يؤجل ذلك تنفيذ خطته، يرجو ألا يهدر تعبه الطويل وتدبيره الحاذق. قد يكون اللقاء قريبا فتتعقد الأمور، وقد يكون لغد لن يجىء أبدا. الرجل يسير. لا يرهقه المشى. ولا يدرى أحد متى يفتر نهمه وأشواقه. تجذبه معارض المحال التجارية كأنه ربة بيت. الساعات والنظارات والأدوات المنزلية والملابس وآلات الغيار والأجهزة الإليكترونية، حتى اللوازم الطبية وواجهات الصيدليات تجذبه. يتشمم رائحة الكباب والطعمية. يقرأ عناوين الكتب والمكتبات. وكلما جمعه موقف مع امرأة أو فتاة دخل مجالها الحيوى، ولكن لم يحصل تلاحم جديد. ولون المغيب يتشرب بالسمرة وتنفث النسائم برودة منعشة. دخل محل أقمشة، وخرج بكيس نايلون مشحون ودس لفة الحلوى فى الكيس مع القماش المشترى، ابتاع أيضا كتابا. . ترى أى كتاب؟ متى يعتقد أنه سيقرؤه؟ ود لو يعرف اهتماماته الدفينة. إنه لا يكاد يعرف عنه شيئا ذا بال سوى الاسم والهوية والتاريخ البغيض الغامض. وعطف الرجل إلى دكان مسح أحذية. اتخذ مجلسه فوق الكرسى الدوار واضعا حمله فوق كرسى خيزران قديم. ينظر إلى المرأة أمامه مغازلا وجهه بإعجاب وارتياح. يواجه الصورة تارة، ويثنى رقبته يمنى ويسرى تارة أخرى. والآخر يراقبه من زاوية فوق الطوار. التقت عيناهما لحظة فوق سطح المرآة. تضايق وتحرك خطوة نحو الأمام. غاب الرجل عن منظوره. لا يرى الآن إلا الإسكافى العجوز وصاحبة المحل البدينة، خشى الآخر أن تلتصق صورته بعين الرجل خاصة أن وجهه سهل الانطباع. وجهه غامق، وعيناه حادتان، وشعره أسود كثيف ولكن الرجل مستغرق فى ذاته ولم يره من قبل. أضاءت مصابيح الشارع وتخايل ظل المساء. ها هو ذا يغادر الدكان وقد ازداد ـ بتلميع الحذاء ـ رضاء عن نفسه، وارتطم به مار مسرع فارتد بخطوة ملهوجة وهو يشدد قبضته على حمله ويصيح غاضبا:

ـ هـــوه!

توقف المسرع مبهوتا وصمت فصاح به مرة أخرى:

ـ على الأقل اعتذر!

فسأله بضيق:

ـ أليست لديك لهجة أفضل؟

ـ كـلا!

ـ إذن فليس لدى اعتذار!

ـ حيـوان!

فبصق المسرع على الأرض محتجا. عند ذاك وضع الرجل حمولته على الرصيف ثم انقض عليه فتبادلا ضربات شديدة. أدرك المسرع أنه ليس ندا لخصمه فتراجع قائلا:

ـ غاوى خناق.. اشهدوا على المعتدى..

وتجمع خلق، وجاء الشرطى. والآخر يراقب بانفعال وضيق، وعندما قال الشرطى: القسم موجود والصلح خير.. بدا أن المتخاصمين تجنبا الذهاب إلى القسم، فتناول الرجل حمولته وذهب. تنفس الآخر بارتياح وتبعه. نسى الرجل انفعالاته تماما أمام محل للعب الأطفال. له أبناء فى سن الطفولة؟! ودخل. ما أعظم إلحاحه وصبره! وخرج بلا إضافة. لعله لم يشتر شيئا أو لعله اشترى لعبة كبيرة سيرسلها المحل إلى مسكنه. فى تلك اللحظة قابله كهل يتأبط حقيبة تصافحا بحرارة. تبادلا كلمات سريعة، ثم مضى الكهل وهو يقول:

ـ لا تنس المحكمة يوم عشرة القادم.

أأنت أيضا من أرباب المحاكم؟! متى تسمع الحكم؟ ترى أين يذهب بعد ذلك؟ عصير فواكه.. ليكن، أتعبتنى الله يتعبك. للمرة الثانية تتلاقى عيناهما فوق سطح المرآة. انقبض صدره.. هل يتذكره؟ كلا..

إنه مأخوذ بمذاق الشراب وعيناه تدمعان. ينظر ولا يرى ويتملى صورته بإعجاب وبراءة.

ها هو ذا يغادر الدكان. يعبر الطريق، يغيب فى محل ترزى يعد كسوة الشتاء، غاب ربع ساعة ثم عاد إلى الظهور، عرج إلى مقهى الحرية ثم دخل. المقهى على ناصية، وله أكثر من مدخل فلم ير الآخر بدّاً من الدخول. جعل يراقبه من مجلس غير بعيد والرجل يحتسى فنجانا من القهوة ويكتب خطابا. أعطى الخطاب للجرسون وقام إلى التليفون. ها هو ذا يقف قريبا جداً منه:

- آلو.. حسن؟.. الدكتور موجود.

- ....

- احجز لى فى أقرب موعد.

- ....

- عظيم.. الساعة السادسة مساء. شكرا..

وما كاد يرجع إلى مجلسه حتى لحق به صديق، جالسه وهو يتساءل:

- حضرت المأتم؟

- نعم.. علمت مصادفة..

- كلنا لها. هل أطلب النرد؟

- لا وقت!

- عشرة واحدة بجنيه، لى أو لك.

نظر فى ساعته، قبل التحدى، لعبا من فورهما. ويعلق بسخرية على كل رمية زهر، ماهر فى الحرب النفسية، واثق بانتصاره، فى أقل من عشر دقائق قام وهو يدس الجنيه فى جيبه، فمضى ضاحكا والآخر يقول له:

- يا لص، ربنا يرزقك بنشال!

قال الآخر لنفسه: «إنها دعوة مستجابة غالبا»، يمضى الآن نحو عمارته وسط المدينة. هذه هى الفرصة. ليست مضمونة تماما، إذا فشلت فعليه أن يرسم خطة أخرى. كلما فشلت خطة تعرضت التالية لمصاعب جديدة. ها هو ذا يغيب فى مدخل العمارة. لحق به ثم دخل المصعد وراءه. إنهما منفردان. الرجل يسأل بكرم دون أن يلتفت إليه:

- الدور؟

- الأخير. .

- وأنا كذلك. .

ولكن امرأة أدركت المصعد قبل أن يتحرك. جنَّ جنون الآخر. غير أن المرأة غادرت المصعد فى الدور الثانى فاستعاد الآخر حيويته ونشاطه. هذه هى الفرصة. الاحتمالات كثيرة، ولكن العواقب لا تهمه ألبتة. ليس فى خطته للسلامة إلا واحد فى المائة. وبحذر شديد قبض على المطواة المستكنة فى جيبه. .

غادر المصعد. لم يصادف أحدا. الظروف تخدمه فوق ما قدر. ترك باب المصعد مفتوحا عن زيق. ثم هبط مسرعا. مضى إلى حانة إيديال. شرب كثيرا ولم يتناول من الطعام إلا الخس. ونعس وحلم حلما طويلا فى وقت قصير جدّاً. وغادر الحانة فعبر أمام العمارة فوق الطوار الآخر، فرأى الشرطة وجمعا لا حصر له. وواصل سيره إلى فندقه بالعتبة. دخل حجرته وهو يتنهد وقد نسى الحلم تماما. . أغلق الباب، أضاء المصباح. التفت إلى الوراء، رأى الرجل جالسا فوق الفوتيل يرقمه بهدوء ثقيل كالموت! ندت عنه آهة دامية، تراجع حتى التصق ظهره بالحائط، تعلق بالفرار ولكنه لم يتحرك، وتسمر فى مكانه وبال على نفسه، إنه حقيقة ما يرى، هو هو الرجل. القرطاس بيد والكيس بالأخرى. . الموت يطل من صورة حية. . يحدق فيه بعينين جامدتين عالمتين بكل شىء. شعر بغثيان ويأس، وقال إنه الشعر أو الجنون. وأمره بالاستسلام دون أن

يتفوه بكلمة، يخاطبه بلغة جديدة وواضحة ونافذة وغير مسموعة. كيف ومتى جاء بهذه السرعة؟ وما معنى تجمهر الشرطة والناس أمام مدخل العمارة؟ كم عاما مضت منذ ارتكب جريمته؟ كم عاما لبث بالحانة؟ وكلما مر وقت تأكد له وجود الرجل بثقله وسطوته غير المحدودة. وشيء حثه على أن يدس يده فى جيبه. فعثر على المطواة التى تركها منغرزة فى قلب الرجل، فأدرك أن هذا العالم يخضع لقوانين كثيرة لا لقانون واحد.

دقت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل. تلقى أوامر سرية فتهيأ فى خنوع لتنفيذها بدقة وطاعة عمياء. قام الرجل ببطء. سار بجلال نحو الباب. فتح هو الباب ومشى بين يديه صامتا مذعنا. أراد أن يصرخ، ولكن الصوت تلاشى فى حنجرته. هبط السلم والرجل يتبعه والتقى فى طريقه بفراش، بمدير الفندق، بموظف الاستقبال، ولكن أحدا لم يعره التفاتا، لم تسترع المعجزة انتباه أحد، لم تثر دهشة ولا اهتماما!

أمام الفندق وقف حنطور بلا حصان. اتجه الرجل نحو المقعد وجلس عليه بهدوء. أما هو فاحتل مكان الحصان وتأبط العريشين، لم ينظر أحد من المارة لما يحدث، لم يتجمهر أحد. كل فرد منشغل بشيء محسوس أو بشيء لا يرى. أكثر من ذلك ترنم أحد السابلة شاديا:

- أهل الهوى يا ليل.

وفرقع السوط فراح يجر الحنطور. مضى فى رشاقة وهدوء واستسلام. ورأى جانبى الطريق، ولكنه لم ير ما يمتد أمامه، فغاص فى مجهول. فى خط مستقيم يتقدم أو ينعطف متلقيا توجيهاته من جذبات اللجام. إلى أين يسوقه؟ ماذا يضمره له؟ لا يدرى. ولا يبالى. يمضى بلا توقف، يبول ويتغوط بلا توقف. يصهل أحيانا ويرفع رأسه، يلمس لجامه بلسانه الجاف، تتتابع إيقاعات حافره فوق الأسفلت. إيقاع رتيب ينذر بمسيرة لا نهاية لها.

الحوادث المثيرة

سأذكر ما حييت حوادث حى الخليفة المثيرة المفزعة، الحق أنها لم تكن كلها مفزعة، فمنها حكايات تناقلها الناس عن هبات مجهولة من النقود تتسلل بليل إلى بيوت الفقراء، ولكن منها أيضا حالات التسمم بالجملة، والحرائق، وأكثر من ذلك تكرارها على وتيرة واحدة مما أشار إلى فاعل واحد. وبثثنا العيون والحراس. وقمنا بدوريات ليلية منتظمة. وقلت لرئيسى:

ـ المجرم مجنون ولا شك.

فقال لى بحدة:

ـ المهم أن نقبض عليه.

وتقضت أيام البحث وأنا فى غاية التعاسة، فلا نتيجة ولا أثر ولا توقف للحوادث، حتى جاءنا خطاب غفل من الإمضاء. به سطر واحد:

ـ «مجرم حوادث الخليفة هو مكرم عبدالقيوم المقيم بالشقة ٣ بعمارة الفردوس».

فقررنا بلا تردد مراقبته، ولكن سرعان ما انكشف لنا أنه أخلى شقته منذ يومين، وبادرت إلى التحرى عنه فى العمارة. فقابلت مالكها وهو ساكن بها أيضا، وقلت له:

ـ أريد ما عندك من معلومات عن مكرم عبد القيوم الذى كان يسكن الشقة رقم ٣.

فأجاب الرجل:

- لقد أخلاها منذ يومين.

- أعرف ذلك، ولكن إلى أين انتقل؟

- لا علم لى بذلك.

- لعلك تعرف محل نقل الأثاث الذى حمل أثاثه؟

- إنها شقة مفروشة، وقد حمل حقائبه فى تاكسى ومضى..

- أتعرف التاكسى أو سائقه؟

- كـــلا.

- ما عمره؟

- يصعب تحديده لقوته وصحته، محتمل أن يكون فى الثلاثين أو فى الأربعين..

- وما عمــله؟

- من الأعيان، ولكنه كان موفور النشاط، يغادر العمارة فى الصباح الباكر، ويرجع فى أول الليل، ولكنى لم أتابع خط سيره إلا كلما اتفق لى ذلك..

- وأســرته؟

- إنه وحيد، لم يزره أحد فيما أعلم..

- معــاملته؟

- من وجهة نظرى فى غاية الكمال، يؤدى الأجرة - مائتى جنيه - فى أول يوم للشهر، ولم أجد منه متاعب على الإطلاق.

- وسلوكه الشخصى؟

- لا غبار عليه فيما أعلم، إنه يحترم نفسه بكل معانى الكلمة..

- ألم تعرفه عن قرب؟

ـ كلا ، مرة عند تحرير العقد ، ومرة عند فسخه .

ـ عندك فكرة عن حالته المالية؟

ـ كلا ، ولكنه وجيه المنظر ، ثم إنه يدفع إيجارا لسكنه فقط مائتى جنيه . .

ـ ألم يترك فى نفسك انطباعا بالشذوذ أو الإجرام؟

ـ إنه أبعد ما يكون عن ذلك . .

ـ أعطنى فكرة عن منظره؟

ـ طوله فارع ، ضخم ، قوى ، قمحى اللون ، ذو قسمات واضحة وقوية وبارزة ، أنيق جدّاً . .

ـ له علامة مميزة؟

ـ رغم سمرته فهو ذهبى الشعر والشارب .

ـ كيف أجر الشقة؟

ـ بوساطة السمسار عزوز بأول شارعنا .

٢

لم أجد فى أقوال صاحب العمارة أى إشارة ضوئية ، فقررت أن أثنى بالبواب . وكان كالمألوف نوبيا ولكنه كان طاعنا فى السن . قلت :

ـ أود أن أتحدث عن مكرم عبد القيوم . .

فقال بحرارة :

ـ ربنا يحفظه !

ـ إنك تحبه فيما يبدو؟

ـ كيف لا ، إنه أطيب خلق الله .

وسألته أول ما سألته عن التاكسى الذى حمل حقائبه فأجاب :

ـ وجه السائق غير غريب عنى .

فدونت ذلك فى مذكرة خاصة ، ثم تساءلت :

ـ قلت إنه أطيب خلق الله؟

ـ أجل . ما كلفنى مرة بعمل إلا نفحنى مكافأة ، غير المواسم والأعياد ، دائما بسام ، يحيينى فى الذهاب وفى الإياب ، يسأل عن حالى ، لا أنسى مساعدته لى عندما كنت أقوم بتجهيز ابنتى ، إنه حلم المحروم ، ودواء الجريح . .

ـ أعتقد أنه أخبرك عن المكان الذى انتقل إليه؟

ـ كلا . . ولكنه وكد لى أنه سيمر بى كثيرا . .

ـ يعنى زيارة خاصة لك؟

ـ ربما عند زيارته للحى لدى سبب من الأسباب . .

ـ ترى لماذا غير مسكنه؟

ـ عندما سألته عن ذلك أجاب بأنه يحب التنقل . .

ـ ماذا تعرف عن صفاته؟

ـ إنه قوى ومهيب وجميل ، وهو أيضا رقيق العواطف لدرجة لا تتناسب مع قوة مظهره ، سمع مرة صراخا على ميت فى عمارتنا فاغرورقت عيناه بالدموع ، وكان يهبنى نقودا لأبتاع خبزا للقطط الضالة التى تحوم حول العمارة ، وبلغت به الرقة أنه كان يرمى بحبات من الفول السودانى عند بئر السلم غذاء لفأر كان يلمحه كثيرا . .

ـ جميل هذا كله ، ولكنك لا شك فى أنك تعرف أشياء لا يعرفها أحد عن سلوكه الشخصى ، فرجل وحيد لا يستأجر شقة مفروشة لوجه الله . .

ـ لم يدخل شقته أحد قط ، هذا الجانب لا يمكن أن يفوتنى . .

ـ ولا أصحاب ولا أقارب؟

ـ ولا أصحاب ولا أقارب . .

ـ وكان يغيب طيلة النهار فى الخارج؟

ـ فى بعض الأحيان كان يتغدى فى شقته، فيطلب غداءه من أحد المطاعم . .

ـ ألم يلفت نظرك شىء داخل شقته؟

ـ لم أدخلها قط .

ـ ماذا تعرف عن مواعيد رجوعه ليلا؟

ـ كان يرجع عادة حوالى العاشرة، وقد يتأخر به السهر إلى منتصف الليل أو حتى مطلع الفجر . .

ـ كيف ترى لو ثبت لك يوما أن ذلك الرجل سمم أبرياء وأشعل حرائق؟

فأخذ الرجل وقال :

ـ يكون نذيرا بقيام القيامة!

٣

جمعنا سائقى التاكسى العاملين فى الحى، عرضناهم على البواب، فتعرف على أحدهم ويدعى يونس باعتباره صاحب التاكسى الذى حمل حقائب مكرم عبد القيوم، ولم يجد السائق صعوبة فى تذكر الرجل، وقال إنه أوصله إلى سميراميس . وانطلقت إلى الفندق مصحوبا ببعض المعاونين . وهناك توكد لى أن الرجل بات فى الفندق ليلة واحدة ثم غادره فى الصباح الباكر، رجعت أسأل عن هوية التاكسى الذى حمله،

لكن الشيال وكد لى أنه نقل الحقائب إلى سيارة مرسيدس ملاكى بيضاء، وأن البك الضخم الأسمر ذا الشعر الذهبى ساقها بنفسه، أما رقم السيارة فلم يلحظه أحد.

أهو صاحب السيارة؟ لمَ لَمْ يستعملها طوال إقامته فى العمارة؟ . . هل امتلكها أمس فقط؟ . . كلما أحدق الغموض بتصرفاته رسخت تهمة الاتهام فى نفسى . . فتوثبت غرائز البحث والتحدى فى أعماقى.

٤

قصدت بعد ذلك جيرانه المقيمين معه فى نفس الطابق. أولهم مهندس معمارى يدعى رءوف، وما سمعنى أردد اسمه (مكرم عبد القيوم) حتى تقبض وجهه تقززا، فقلت:

- يبدو أنك لا تستلطفه؟
- عليه اللعنة! رجل غريب، منطو على نفسه لحد الشذوذ، ولا أشك فى أنه يمقت البشر . .
- للبواب رأى آخر فيه.
- لا تأخذ بأقوال البواب فإن شلنا يدير رأسه، لا أنسى مرة تلاقينا فيها فى مدخل العمارة، بدأته بتحية فرد علىَّ بإيماءة متكبرة هبط لها قلبى وغلى دمى، إنه وقح وقليل الأدب.
- جديد علىّ ما تقول . .
- أتحدى أن تعثر على ساكن واحد من سكان العمارة قد تبادل معه تحية، إنه متعجرف بغيض. أما قسوته . .
- تقول قسوته؟

ـ حكت لى زوجتى أنها رأته يركل قطة بحذائه، صادفته أمام باب شقته ـ فارتطمت بعنف فى الجدار ثم سقطت بين الحياة والموت!

ـ عجيب هذا . .

ـ فى مآتم العمارة يتجاهل الواجب الإنسانى بلا مبالاة، يمر أمام السرادق بلا اكترث ولا حياء.

ـ وسلوكه الشخصى؟ . . أعنى الشقة المفروشة؟

ـ لا . . لا . لم يزره أحد فيما نعلم، أمثاله يعانون نقصا خفيا يدارونه بالعجرفة وأبهة المظهر . .

ـ ولكنه ثرى فيما يبدو؟

ـ لم لا؟ ما أكثر الأثرياء الأوغاد!

٥

ليست شبهة ولكنها تهمة حقيقية. والبواب صادق كما أن المهندس رءوف صادق. وتوكد ظنونى معرفتى الوثيقة لتاريخ الجريمة. من غير مكرم عبد القيوم يرمى بالنقود إلى شرفات الفقراء ويدس السم فى الشوكولاتة للأبرياء؟ أليس هو الذى يهب النقود لتغذية القطط الضالة ثم يركل واحدة منها حتى الموت؟!

وذهبت إلى الجار الثانى، مدرس لغة عربية، يدعى عبد الرحمن. قال:

ـ الرجل وحيد حقًا ولكنه ليس متعجرفا، والمسألة أن المهندس رءوف كرهه من رد تحيته بجفاء، ولعله كان وقتها مكدر البال . .

ـ فماذا تراه أنت؟

ـ أشهد له بالتقوى، طالما تقابلنا فى الجامع عند صلاة الجمعة . .
ـ حقـّـا؟
ـ وماشـيته مرة عقب الصـلاة فوجدته لطيفا، دعانى إلى الغداء فى مطعم الكورسال، وألح علىّ فلم أجد بدّا من الاستجابة، وأعلن لى عن حبه التراث، ورغب فى الاستعانة بى فى الاستزادة منه . .
ـ لعـله لـم يتعـلم؟
ـ كلا . . لم يكن متبحرا فى التراث . . ولكنه تخرج فى الجامعة بكلية الحقوق، ودرس فى السربون القانون والتاريخ . .
ـ لعلك الوحيد الذى خالطه؟
ـ لعلى، كنا نتقابل فى مشرب مينا هاوس، وهناك وضح لى أنه كثير الأصحاب، مصريين وأجانب، وكان يدعى إلى التليفون مرات عديدة حتى خُيّل إلىّ أنه من رجال الأعمال . .
ـ ألم يخطر لك أن تسأله عن عمله؟
ـ مرة سألته بلباقة ما يفعل بوقته، فأجاب بأنه يحب أشياء لا حصر لها ولكنه غير ملتزم بعمل محدد، بمعنى آخر هو من الأعيان . .
ـ ما مصدر ثروته؟
ـ أرض . أسهم وسندات وهلم جرا . . ولكن ميزته الأولى فى نظرى أنه واسع الاطلاع . . وقد طالبته مرة بأن يؤلف فى التاريخ، فابتسم وسألنى : «تصدق حقّا أنه يوجد شىء اسمه تاريخ؟» فاعتبرت تساؤله دعابة، ولكنه استدرك قائلا : «يمكن الاستغناء عن التاريخ ببابى المديح والهجاء فى الشعر» .
ـ طبعا لم تعرف لماذا تجنب الزواج؟
ـ مرة شكوت إليه تمرد أحد أبنائى، فقال لى بأسى لم ألمسه فيه من قبل : «إن تمرد ابن خليق بأن يشكل مأساة بلا نهاية» . . ولرنين

الأسى فى نبرته شىء قال لى إنه ذلك الابن أو إنه الأب المبتلى، وبشىء من الدهاء قلت له: «لقد أرحت نفسك من ذلك كله» فنظر إلىَّ وابتسم.. ولكنه لم يشف غليلى..

ـ لمَ لَمْ تستوضح تلك النقطة؟

ـ كنت أعاشره وأهابه، وأخشى أن أثقل عليه فأخسره..

ـ طبعا أخبرك بنية ذهابه؟

ـ أبدا.. فوجئت برحيله.. لكننى حتما سألقاه يوم الخميس فى مينا هاوس..

ـ لا أظن، ومع ذلك سنرى..

ـ لماذا قلت لا أظن؟

ـ ألا تدرى أن ثمة شبهة فى أنه مرتكب حوادث حيِّنا المثيرة؟

فاتسعت عينا الرجل فى ذهول وقال غير مصدق بل محتجا:

ـ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم..

٦

تجهم الغموض فانقلب ظلاما، ولكن شعورى ـ شعور الخبرة والسنين ـ صار يقينا أو كاد. وأوشكت على الاكتفاء بما استخلصت من معلومات لأسرع فى المطاردة، ولكنى لم أجد بأسا من لقاء الجار الثالث ـ الملاصق بابه لباب مكرم عبد القيوم ـ وهو مفتش الضرائب بكر الهمذانى. ما إن سمع اسمه حتى هتف:

ـ المجنون!

ـ مجنون؟!

- طبعا، طالما بلغنى صوته وهو يدوى كالطبل فى صمت الليل، ترى أيتحدث فى التليفون؟ . . يحدث نفسه؟ . . يتعارك مع خيال؟ ولا عزيف الريح وجعجعة الرعد، وكان هنالك ماهو أدعى إلى الدهشة . .

- حقّا؟

- كان يغنى ويلعب بأوتار العود!

- شيء جديد تماما . . !

- الحق أن صوته قوى وجميل، ولكنه يغنى أحيانا أغنيات فى غاية الوقار مثل: «ياما أنت واحشنى» أو يغنى أغنيات فى غاية الابتذال مثل: «أنا أبله كنت هبلة» أو تصور ذلك الرجل الضخم الوقور وهو يغنى: «يوم ما عضّتّنى العضّة» . . ولكنه رجل عربيد.

كنت مرة راجعا من سهرة مسرحية، فرأيته خارجا من حانة فلاديمير وهو يترنح من شدة السُّكر. ويقول بلسان ملعثم: «أنا جدع».

- عربيد؟

- ما أعجب هذا!

- بل يوجد ما هو أعجب، رجعت مرة فى سهرة فرأيته يسبقنى بخطوات، دخل شقته وملت نحو شقتى، ولسبب ما وجدنا شراعة بابه مفتوحة، لاحت منى نظرة فرأيت فى نهاية الدهليز حجرة مضيئة، ولعلها حجرة جلوس، فتسمرت فى مكانى لغرابة ما رأيت.

- رأيت خليطا من عجائب متنافرة، على الجدار المواجه لى ثبتت أقنعة غريبة، جميلة وبشعة ورءوس حيوانات محنطة، وأسلحة من مختلف العصور، وأدوات موسيقية، وفى وسط الحجرة ما يشبه المعمل الكيمياوى . . بل معمل كيمياوى بالفعل . .

ـ معمل كيمياوى؟!

ـ أجل . . مائدة طويلة صفت فوقها أوعية زجاجية مليئة بسوائل مختلفة الألوان، وأنابيب طويلة مركبة على قوائم معدنية، وبوتقات، ومولدات الطاقة . .

ـ مدهش . . مدهش . .

ـ ذهبت إلى شقتى ذاهلا . أيقظت زوجتى . . أخبرتها بما رأيت . اتهمتنى بالسكر، تحديتها أن تخرج معى لترى بنفسها . . كان منظرا مذهلا . .

ـ ألم تتبادل معه تحية أو كلاما؟

ـ أبدا . . أصارحك بأننى كنت أخافه، وقد تشهدت حين سمعت برحيله . .

٧

فى اليوم نفسه ذهبت إلى السمسار، لم أكن فى حاجة إلى مزيد من المعلومات عن شخصية «المتهم» ولكنى أملت أن أجد عنده خيطا يوصلنى إليه . ووجدته متذكرا تماما للمعاملة التى جرت بينهما رغم انقضاء ما يقارب العام عليها . بل إنه قال :

ـ ذلك يوم لا يمكن أن ينسى!

ـ لماذا؟

ـ تمت المساومة فى دقيقة، بل لم تكن ثمة مساومة على الإطلاق، وكان أكرم مما يتصور العقل، ولكنى اكتشفت فقد حافظة نقودى فى ذلك اليوم أيضا، ولذلك فهو لا يمكن أن ينسى . .

ـ كيف حدث ذلك؟

ـ سلمنى النقود فوضعتها على المكتب ثم انصرف، شغلت دقائق بمكالمة تليفونية، ثم تناولت النقود لأودعها الحافظة فلم أجد للحافظة أثرا..

ـ ماذا دار بخلدك؟

ـ كانت الحافظة معى، لم يدخل دكانى إلا مكرم عبد القيوم ومساح الأحذية، وفى الحال شككت فى مساح الأحذية، استدعيته، استجوبته، عنفت به حتى صرخ، ولكنه أقسم بأغلظ الأيمان وبكى..

ـ طبعا لم تشك فى الآخر؟

ـ كلا، الحق كانت تساورنى شكوك أحيانا ولكنها كانت تعز على التصديق، وقد حرقنى فقد أكثر من مائتى جنيه، ولكن كيف أوجه تهمة إلى رجل مثله بدا لى أنه من أصحاب النفوذ بلا أدنى شك؟ وما جدوى الاتهام إلا أن يعرضنى لبطشه؟!

ـ وسلمت أمرك لله؟

ـ كما يحصل فى أغلب حوادث النشل، وكنت أراه أحيانا وهو ماض فى الصباح فأتبعه عينى بحيرة وأتمتم: «ربنا عزيز ذو انتقام».

٨

واجتمعت برئيسى فى مساء اليوم نفسه، وعرضت عليه التقارير التى سجلتها بعناية تامة. راح يقرأ وهو يسند رأسه إلى راحته حتى فرغ منها، ثم طالعنى بوجه متجهم وقال:

- علينا أن نستعيد الصورة، توجد حوادث مثيرة، بعض الفقراء يجدون فى شرفات منازلهم صررا مليئة بالنقود هبطت من مصدر مجهول، آخرون يجدون علب حلوى سليمة، أناس يجدون علب حلوى مسمومة مات بسببها أبرياء، اختفاء أطفال، حرائق تشب فى الحوانيت. هذا من جهة، ومن جهة أخرى يجىء جواب من مجهول يوجه الاتهام إلى المدعو مكرم عبد القيوم، وتتحرى أنت عن الرجل فتجيئنى بمجموعة من التناقضات تماثل فى غرابتها تناقضات الحوادث المثيرة، ما رأيك؟

قلت:

- أصبحت على يقين من أنه المجرم..

- يقين؟!

- إنه شعور داخلى..

- ما يهمنى هو الدليل القاطع أو الاعتراف..

- لا تنس يا صاحب السعادة أن الحوادث توقفت منذ رحيله.

- الفترة قصيرة جدًّا ولا تعنى شيئا.

- لا تنس أننا أصبحنا مضغة للأفواه..

- سيخونه حرصه عاجلا أو آجلا.. فهو بلا شك مجنون!

- مجنون؟! محتمل. ومحتمل أيضا أن يكون عاقلا وداهية وذا أغراض خفية.

٩

اندفعت فى المطاردة بقوة متحدية، ضاعفت الدوريات والعيون، أبلغت الأوصاف إلى جميع الأقسام، ورسمت خطة شاملة للمرشدين

ولأهل الخبرة بأوساط المجرمين. لم يخف عنى أنه تحد لشخصى ومستقبلى وواجبى، وسيطر الموضوع على يقظتى ومنامى، وفكرت وفكرت ثم قررت تأجيل الاستعانة بالصحف والإذاعة.

١٠

وفيما نحن منهمكون فى المطاردة انقضت علينا صاعقة، طلعت علينا الصحف بأنباء حوادث مماثلة لما وقع فى حينا ولكن فى طنطا هذه المرة، انطلقت إلى طنطا بلا استئذان، وضعت معلوماتى تحت تصرف المسئولين هناك.

وفيما نحن نرسم خطة جديدة معتمدين أولا على الاستفادة من التجربة السابقة، طلعت الصحف بأنباء حوادث تقع فى أسيوط، وفى الحال سافرت إلى أسيوط وأنا أشعر بأن الجريمة استحالت فضيحة قومية. وهناك تلفنت إلى رئيسى أخبره بمقرى فإذا به يصيح:

ـ أين أنت؟!.. ما هذا التصرف المشين؟!

هممت بشرح الأمر ولكنه صاح بى:

ـ احضر حالا.. لقد عادت الحوادث إلى حينا!

١١

وخطر لى أن أستدعى رساما مشهورا، جمعت بينه وبين الشهود. وطالبته برسم صورة دقيقة للرجل المجهول من واقع شهاداتهم. وقلت له:

- لا تتركها حتى يقرروا بأنها طبق الأصل.

ونشرت الصورة فى الصحف مطالبا من يعرف صاحبها بأن يدلنا عليه، ودلنا مواطنون على أكثر من شخص، عمدة، تاجر أسماك، تاجر شنطة، بل انطبعت الصورة على مسئول فى الدولة له شأن، فاستفحلت الفضيحة حتى انقلبنا سخرية الساخرين ونادرة المعلقين.

وصاح بى رئيسى:

- لقد أشعلت النار فى الإدارة!

فقلت بإصرار:

- لا غبار على الخطة.

- ها قد جاءنا من لا نبحث عنه، وغاب عنا من نبحث عنه.

- لعله تعمد الاختفاء أو التنكر.

- واضح أن الحوادث المتفشية فى جميع الأنحاء ليست من صنع رجل واحد..

- لعله رئيس عصابة!

فهتف بيأس:

- لقد أشعلت النار فى الإدارة!

رجعت إلى حجرتى أعمى تماما من الغضب. عند الباب سمعت حوارا حادا بين الحاجب وآخر يريد الدخول لمقابلتى. قلت بحزم:

- لا وقت عندى الآن لأحد.

فقال الآخر بصوت جهورى متزن:

- أنا مكرم عبد القيوم!

١٢

تأبطت ذراعه، دخلنا الحجرة، وقفنا متواجهين وأنا ألهث، تساءل بهدوء غاضب:

- ما معنى المنشور فى الجرائد؟

فسألته وأنا أمتحنه بعينى:

- لمَ لَمْ تحضر مباشرة عقب النشر؟

- كنت فى البحر الأحمر بعيدا عن الجرائد وغيرها.

وفصل بيننا صمت متقد حتى عاد يتساءل:

- ما معنى هذه التهمة السخيفة؟

قلت بحنق:

- سنرى..

وقررت إجراء التحقيق فى حجرة رئيسى وتحت إشرافه.

١٣

- ماذا أقول؟

أجاب الرجل عن كل سؤال فورا وفى بساطة وثقة، لم نجد دليلا واحداً يدينه، عرضناه على أهل الضحايا والمخبرين المبثوثين فى أنحاء الحى فلم يشهد أحد بأنه رآه فى ليل أو نهار. أذعنا رسالة موجهة للمجهول صاحب الرسالة أن ينورنا بمعلومات إن كانت لديه فلم يرد

علينا أحد. وهكذا غادرنا مكرم عبد القيوم مرفوع الرأس وقد أصابنى بضربة قاضية. والعجب بعد ذلك أن شعورى الباطنى باتهامه لم يتزعزع.

١٤

كان لابد من كبش فداء فقررت الداخلية نقلى إلى الديوان وأحلت محلى من رأته أعظم أهلية للعمل. وتلقيت الأمر بغضب وتحد، فقدمت استقالتى معتزما الاشتغال بالمحاماة، وظللت أتابع أنباء الحوادث والتحقيق وأنا مشفق من أن ينجح من حل محلى فى القبض على المجرم. إنه شعور مخجل ولكنه متوافق مع الطبيعة البشرية، وما أدرى ذات يوم إلا ومكرم عبد القيوم يقتحم علىَّ مكتبى، رمقته بدهشة، فجلس أمام مكتبى وهو يقول:

- جئتك لأعرض عليك أن تتولى إدارة أعمالى وقضاياى!

وكان العرض مغريا لدرجة يتعذر معها رفضه، ولكننى سألته:

- لم أنا بالذات ولم أعمل فى المحاماة إلا عامين؟

- ولكنك ذو خبرة كبيرة، ثم إننى أعد نفسى مسئولا بعض الشىء عن استقالتك..

فسألته بحذر:

- نوع من الشماتة؟

فهتف بصدق:

- معاذ الله، ما ورائى إلا شعور طيب..

لـمَ لا؟

هكذا أصبحت مستخدما فى دائرة الوجيه مكرم عبد القيوم!

١٥

وأشهد لقد وجدته وجيها بكل معنى الكلمة، وقورا، عالما عذب الحديث، طيب المعاشرة، كريما ودودا. وربما فتر حماسى أحيانا فأتساءل: «ألا يفاجئنى مرة بتناقض من تناقضاته؟.. ألا يحسن بى أن ألتزم جانب الحذرة». ولكنه خيب وساوسى وقرص ضميرى بإصراره على كل ما هو طيب.

وذات صباح - وعقب مراجعته لما عرضته عليه - رجع بمقعده الهزاز إلى الوراء وقال:

- أخيرا قيدوا القضية ضد مجهول!

فقلت بشماتة:

- لتكن هذه اللطمة ردا على اللطمة التى تلقيتها.

فقال بهدوء عذب:

- كلا.. لقد أخطأت..

- ولكـــن..

وسرعان ما قاطعنى قائلا:

- كان من الخطإ أن تركز الاتهام فىّ بسبب رسالة سخيف غفل من الإمضاء.

فقلت مدافعا:

- ليس بسبب الرسالة ولكن بإغراء التحريات غير العادية!

- وبتركيزك الاتهام فىّ تركت المجرم الحقيقى يفلت من يديك!

ـ لم يكن معقولا أن أربط بين أقوال الشهود وغرابة الحوادث .

ـ يا أستاذ! هل يخلو مخلوق من تناقضات؟ ثم ما الغرابة فى أن أطعم القطط وأن أركل قطة مريضة هاجمتنى؟ . . ما العجب فى أن أتواد مع رجل . . وأجافى آخر لسوء خلقه؟ . . وما الجديد فى أن أمضى وقورا حينا وأترنح من السُّكر حينا آخر؟ أيعنى هذا أن أسمم الأطفال وأشعل الحرائق؟ !

ولذت بالصمت متفكرا وحذرا فى الوقت نفسه .

أما هو فواصل :

ـ بالمنطق نفسه يا عزيزى يمكن أن توجه التهمة إليك أنت .

فندت منى ضحكة وتمتمت :

ـ أنــا؟

ـ لم لا . . لقد استمرت الجرائم رغم تشديد الحراسة وبث المخبرين ، كيف اخترق المجرم سبيله فى حى ملغم؟ . . لا شك فى أنه كان مطمئنا إلى أن أحدا من رجال الأمن لن يشك فيه ، عظيم . . فمن يكون هذا إن لم يكن الرئيس المكلف بالمراقبة . . أو بمعنى آخر إن لم يكن أنت؟ !

فضحكت عاليا وقلت :

ـ وحوادث طنطا؟

ـ لقد وقعت حوادث طنطا . وثبت أنك سافرت إلى طنطا ، أما أن سفرك لحق بالحوادث أو سبقها فلا نعرف عنه شيئا !

فقلت وما زلت أضحك :

ـ عظيم ، ولكن ما الدافع وراء الجرائم؟

ـ هو الدافع الكامن فى أعماق المجرم الذى أعياك البحث عنه !

ـ فى اعتقادى أنه مجنون . .

ـ وغير مستحيل أن تكون مجنونا!!

ـ هل تجد فى عملى معك شبهة جنون؟

ـ الجنون أنواع، والمجنون آخر من يعلم..

وضحكت متظاهرا بالاستهانة، ولكن حديثه ساءنى، وساءنى أكثر الجد الذى تناول به حديثه حتى خُيِّل إلىّ لحظة أنه يوجه إلىّ اتهاما حقيقيا، بل إنه يصب اتهامه على الناس جميعا، ثم تبسم فعاد الإشراق إلى وجهه الكبير، وقال بنبرة جديدة:

ـ حسبنا، ولنواصل العمل.

وقلت لنفسى يا له من رجل محير!.. لا شك فى أن العمل فى دائرته فوز مرموق، وأن شخصيته تتعالى عن الاتهام، ولكن ما بال شعورى الباطنى باتهامه لا يفارقنى؟!

أعمال نجيب محفوظ

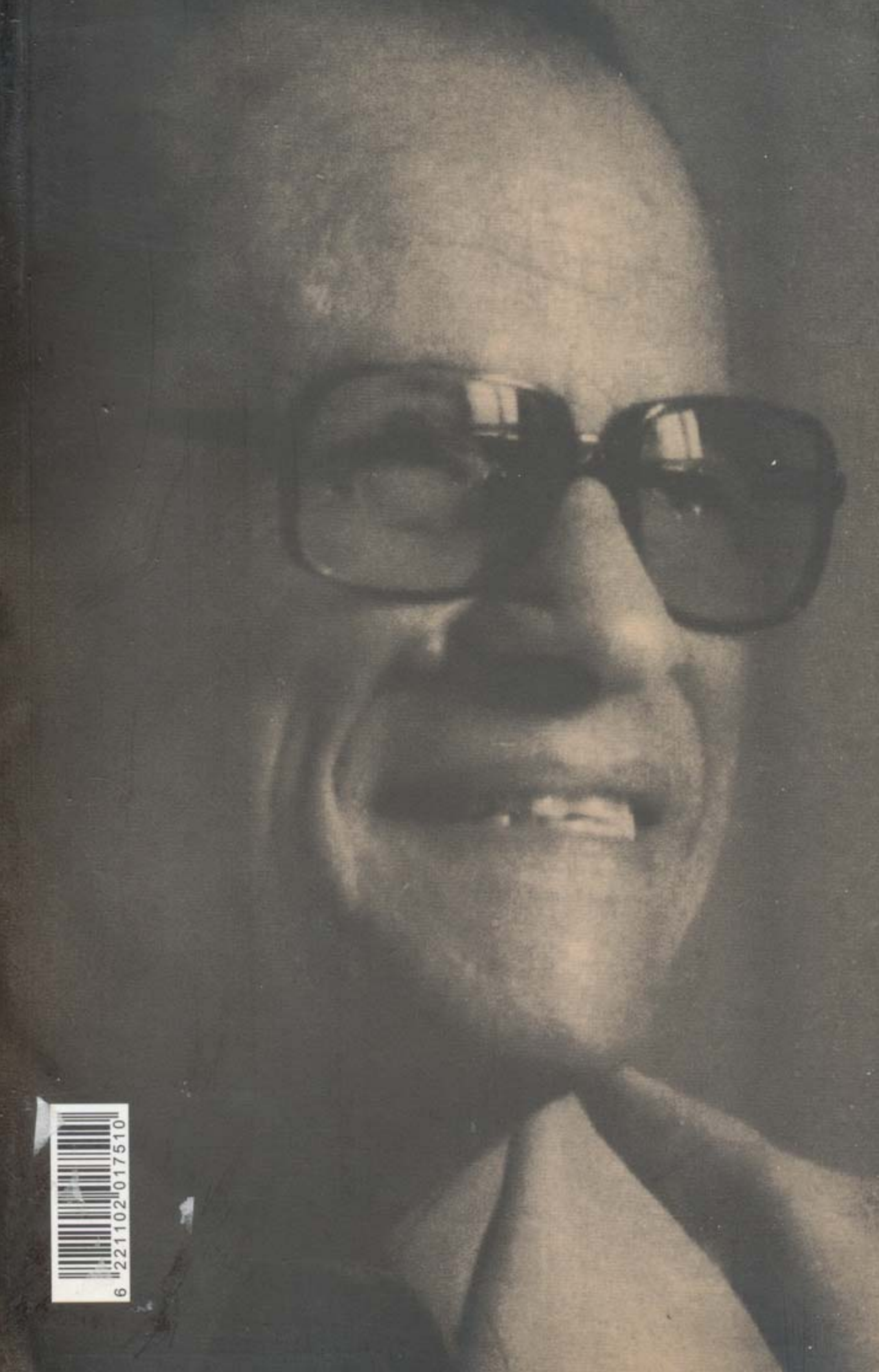
١ -	مصر القديمة	ترجمة	١٩٣٢
٢ -	همس الجنون	مجموعة قصصية	١٩٣٨
٣ -	عبث الأقدار	رواية تاريخية	١٩٣٩
٤ -	رادوبيس	رواية تاريخية	١٩٤٣
٥ -	كفاح طيبة	رواية تاريخية	١٩٤٤
٦ -	القاهرة الجديدة	رواية	١٩٤٥
٧ -	خان الخليلي	رواية	١٩٤٦
٨ -	زقاق المدق	رواية	١٩٤٧
٩ -	السراب	رواية	١٩٤٨
١٠ -	بداية ونهاية	رواية	١٩٤٩
١١ -	بين القصرين	رواية	١٩٥٦
١٢ -	قصر الشوق	رواية	١٩٥٧
١٣ -	السكرية	رواية	١٩٥٧
١٤ -	اللص والكلاب	رواية	١٩٦١
١٥ -	السمان والخريف	رواية	١٩٦٢
١٦ -	دنيا الله	مجموعة قصصية	١٩٦٢
١٧ -	الطريق	رواية	١٩٦٤

١٨ ـ	بيت سيئ السمعة	مجموعة قصصية	١٩٦٥
١٩ ـ	الشحاذ	رواية	١٩٦٥
٢٠ ـ	ثرثرة فوق النيل	رواية	١٩٦٦
٢١ ـ	ميرامار	رواية	١٩٦٧
٢٢ ـ	أولاد حارتنا	رواية	١٩٦٧
٢٣ ـ	خمارة القط الأسود	مجموعة قصصية	١٩٦٩
٢٤ ـ	تحت المظلة	مجموعة قصصية	١٩٦٩
٢٥ ـ	حكاية بلا بداية ولا نهاية	مجموعة قصصية	١٩٧١
٢٦ ـ	شهر العسل	مجموعة قصصية	١٩٧١
٢٧ ـ	المرايا	رواية	١٩٧٢
٢٨ ـ	الحب تحت المطر	رواية	١٩٧٣
٢٩ ـ	الجريمة	مجموعة قصصية	١٩٧٣
٣٠ ـ	الكرنك	رواية	١٩٧٤
٣١ ـ	حكايات حارتنا	رواية	١٩٧٥
٣٢ ـ	قلب الليل	رواية	١٩٧٥
٣٣ ـ	حضرة المحترم	رواية	١٩٧٥
٣٤ ـ	الحرافيش	رواية	١٩٧٧
٣٥ ـ	الحب فوق هضبة الهرم	مجموعة قصصية	١٩٧٩
٣٦ ـ	الشيطان يعظ	مجموعة قصصية	١٩٧٩
٣٧ ـ	عصر الحب	رواية	١٩٨٠
٣٨ ـ	أفراح القبة	رواية	١٩٨١
٣٩ ـ	ليالى ألف ليلة	رواية	١٩٨٢

٤٠ ـ	رأيت فيما يرى النائم	مجموعة قصصية	١٩٨٢
٤١ ـ	الباقى من الزمن ساعة	روايـــة	١٩٨٢
٤٢ ـ	أمام العرش (حوار بين الحكام)	روايـــة	١٩٨٣
٤٣ ـ	رحلة ابن فطومة	روايـــة	١٩٨٣
٤٤ ـ	التنظيـم الســرى	مجموعة قصصية	١٩٨٤
٤٥ ـ	العائش فى الحقيقة	روايـــة	١٩٨٥
٤٦ ـ	يوم قتل الزعيم	روايـــة	١٩٨٥
٤٧ ـ	حديث الصباح والمساء	روايـــة	١٩٨٧
٤٨ ـ	صبــاح الـــورد	مجموعة قصصية	١٩٨٧
٤٩ ـ	قشـــــتمر	روايـــة	١٩٨٨
٥٠ ـ	الفجر الكاذب	مجموعة قصصية	١٩٨٨
٥١ ـ	أصداء السيرة الذاتية	مجموعة قصصية	١٩٩٥
٥٢ ـ	القــرار الأخيـر	مجموعة قصصية	١٩٩٦
٥٣ ـ	صـــدى النسـيان	مجموعة قصصية	١٩٩٩
٥٤ ـ	فتـــوة العطـــوف	مجموعة قصصية	٢٠٠١
٥٥ ـ	أحـلام فترة النقاهة	مجموعة قصصية	٢٠٠٤

رقم الإيداع ٤١٣٧/ ٢٠٠٦
الترقيم الدولى 2 - 1543 - 09 - 977

مطابع الشروق
القاهرة: ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ت: ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت: ص.ب: ٨٠٦٤ ـ هاتف: ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس: ٨١٧٧٦٥(٠١)


6 221102 017510